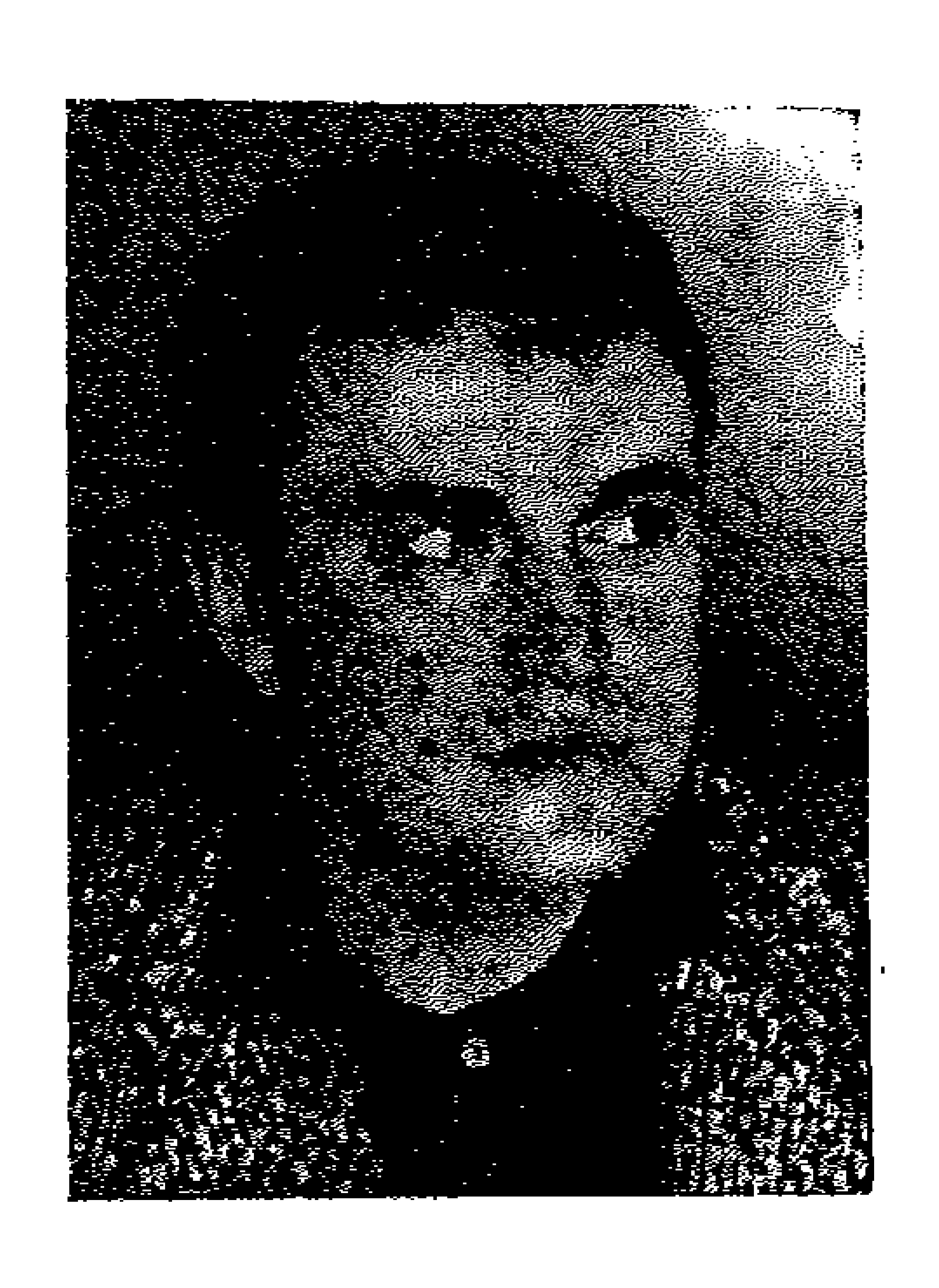
فاسيلي اكسيونوف

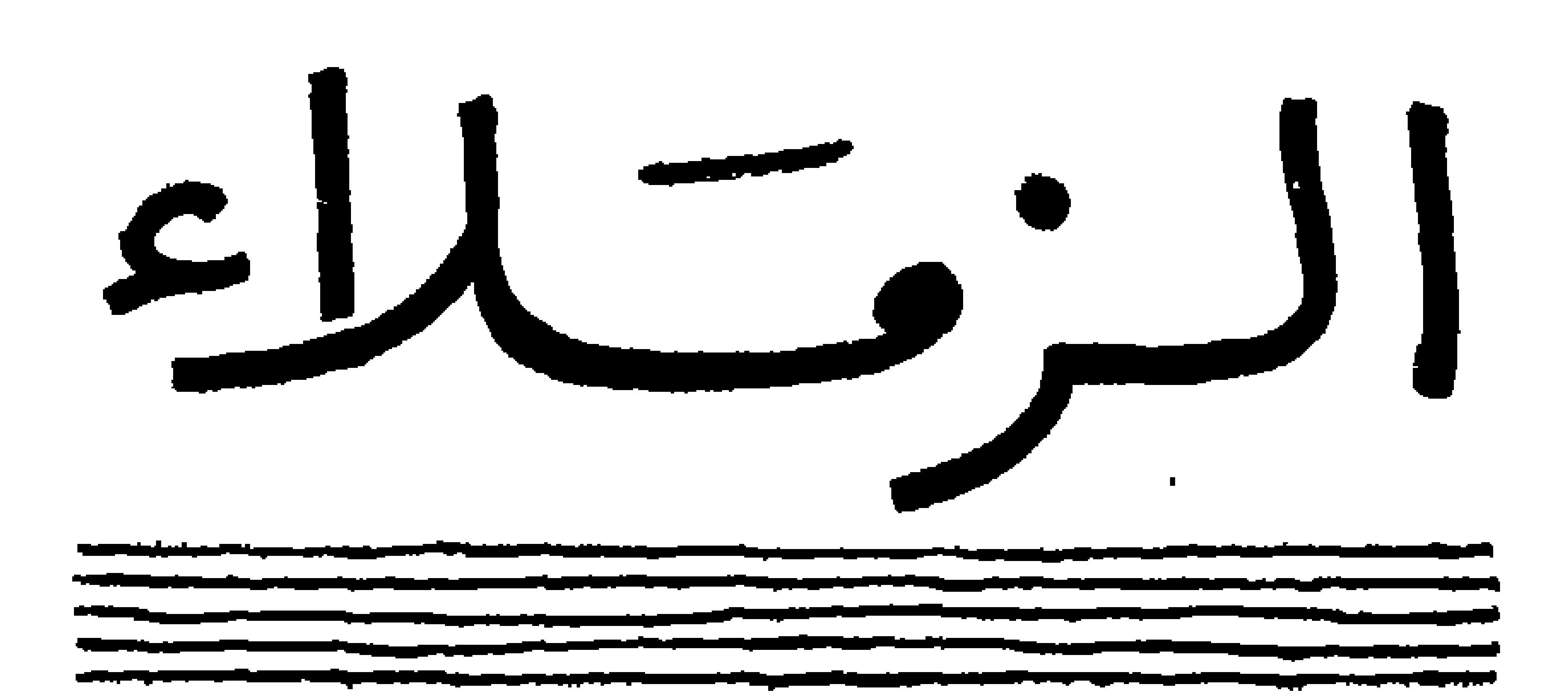


الزملاء



في عددي حزيران (يونيو) وتموز (يوليو) عام ١٩٦٠ من مجلة «يونوست» («الشباب») وهي احدى المجلات السوفييتية الكبيرة ظهر عمل ادبي حظي باعجاب الكثيرين من القراء في الحال. وكان هذا أول قصة للطبيب فاسيلي اكسيونوف عن معاصريه وزملائه، عن حبهم، وجدالهم، وشكوكهم، ومثلهم. «كتبوا عنهم: «سنة الولادة ١٩٣٢، من عائلة مستخدمين (كاربوف ـ من عائلة عمالية)؛ لم يشترك في الحروب، عازب». وقد

فاسيلي
اكسيونوف





دار التقدم

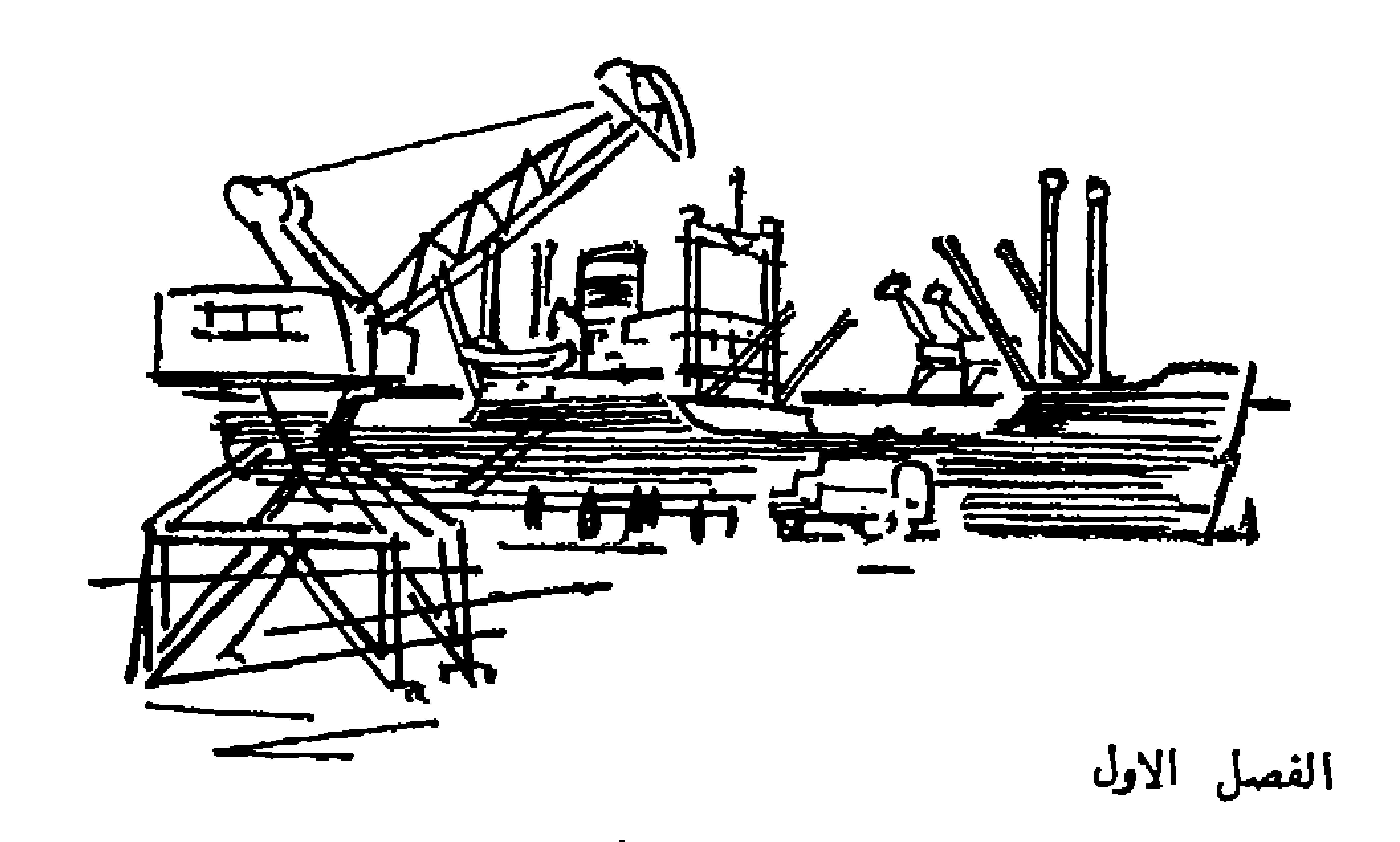
موسكو

ВАСИЛИЙ АКСЕНОВ

КОЛЛЕГИ

на арабском языке

ترجمة غائب طعمة فرمان



الفصل الاول

من هم؟

كتبوا في الاستمارات: سنة الولادة – ١٩٣٢؛ الاصل الاجتماعي – من عائلة مستخدمين (كاربوف من عائلة عمالية)؛ الانتساب الحزبي – عضو في اتحاد الشبيبة الشيوعي اللينيني في عموم الاتحاد السوفييتي منذ عام ١٩٤٧؛ الاشتراك في الحروب – لم اشترك؛ المحكومية – لا توجد؛ هل له اقارب في خارج البلاد – لا يوجد؛ ثم بعض «لا» حتى جدول «عازب ام متزوج» حيث كتبوا جميعا: عازب. وقد شغلت تواريخ حياتهم نصف صفحة. وحدثوني عن انفسهم هكذا:

الكسي ماكسيموف. كما يقال كنا اطفالا جميعا في وقت ما. وأمي مدرسة. ولا أب. اين عشت؟ غالبا ما كنا نسافر من مكان الى آخر. وكنت قد ولدت في مدينة نوفغورود. وتعلمت في المدرسة بشكل طيب. موضوعي المفضل؟ كان تجويد الخط. وفي المدرسة لعبت كرة القدم، وفي المعهد الكرة الطائرة. وانا الآن العب الكرة الطائرة ايضا وسألعبها دائما. لماذا دخلت معهد الطب؟ هل تهتم بذلك؟ آه... تهتم! حسنا، عن سوء تفاهم. الطب؟ ليس في وسعي ان اعيش بدونه. ولكن لماذا تسألني كل ذلك بحق الشيطان وكأنك رئيس قسم الملاكات؟ انا فظ؟ اذهب الى حيث تشاء!

فلاديسلاف كاربوف. يا ولد، اذا كنت لم تر البحر الاسود فانت لم تر شيئا في الدنيا. ان ابي صياد سمك. هل تحب السمك المفلطح المعد بالتدخين؟ هناك اغنية تقول:

قبليني، قبليني، يا عزيزتي
أنا بحبك مجنون.
اذا تحب السمك المفلطح المدخن
لحملت اليك منه عربة قطار.

نعم، بالطبع، أنا رياضي. ألا ترى هذا؟ رياضي بكل انواع الرياضة. واحب البليياردو أكثر من غيره. وانت؟ سنلعب يوما ما؟ أنت من اين؟ هل تحب الرقص؟ انت تعجبني. تفضل عندنا ولا تأسف على شيء. أوه. البحر الاسود. أي شيء هو؟ قصيدة شعر. يعني الى لقاء قريب.

الكسندر زيلينين. نعم. أنا لينينغرادي أصلي. تعال الى غرفة الطعام هنا. هل ترى هذه التصاوير الشمسية القديمة على الالواح النحاسية؟ هؤلاء اجدادي. هذا ماجستير فلسفة في جامعة بطرسبورغ، وهذا رحالة مشهور، وهذا قد سجن في سجن شليسيلبورغ في محاولة اغتيال. أتلومني على انني أفخر بهم قليلا؟ وتحول جميع من اعقبهم الى الطب. فأبي طبيب، وأمي ايضا. وأنا، كما هو معلوم لديك، طبيب الا خمس دقائق. نعم أنا لا احب الطب فقط، بل اعتبر مهنة الطب ضرورية على الارض. واي افق للمعرفة يهب الطب الانسان! أنا أشعر بانني من سنة الى اخرى افهم الناس بشكل أحسن ومن الناحية الجسمية والسيكولوجية. انني راض جدا

بمهنتي، وغير آسف الا على شيء واحد هو انني سأضطر الى ترك لينينغراد قريبا. لا استطيع ان اتصور انني لن اتجول، بعد الآن، في الشارع بولشوي، وعلى كورنيش النيفا، ولا استمتع بغروب الشمس حين تتوهج نوافذ متحف الارميتاج بلون قرمزي... ولكن ما العمل! ان ذلك كما يقال، واجبنا. ولكن، لماذا تبتسم يا الكسي؟ دائما هو على هذه الصورة.

من المؤلف. ان الكسي ماكسيموف كئيب وحاد الطبع. ويمثّل دورا مـا علىٰ الدوام. وفلاديسلاف كاربوف من الذين يمكن ان يوصفوا بكلمتين «من جماعتنا». ويضاف الى ذلك في بعض الاحيان: منّا. ومحبوب الفتيات، وعازف قيثار. والكسندر زيلينين مضحك بعض الشيء، ومندفع، ومؤدب جدا، وصريح جدا، وانسان لطيف جدا.

بدأت صداقتهم في السنة الاولى من الدراسة. وفي بعض الاحيـان تدهش النـاس صداقـة الاشخاص المختلفين للغاية ولكن الاشخـاص المختلفين للغاية وحدهم يستطيعون ان يتصادقوا صداقة حقيقية. وبين ذوي الاخلاق المتشابهة، والامزجة المتماثلة تجري

لا محالة صدامات حادة، والانفصال محتوم. وفي هذا الثلاثي كان ميل زيلينين الى التفكير، واخلاصه الغيور كانما يعادلان سخرية ماكسيموف المصطنعة، وخفة كاربوف.

هؤلاء هم. انهم الآن، في ربيع ١٩٥٦، ذاهبون في وجه الريح بثلاثيهم، ويفكرون جميعا بشيء واحد.

افكارهم عن توزيعهم على الوظائف

سأل الكسي ماكسيموف في غضب:

– من اين جاءتك روح المبدئية هذه يا ساشا؟ كما تقول ان التوزيع هو امتحان لنفوسنا!

فصاح زيلينين:

– هكذا هو!

– يا للشيطان!.. ان التوزيع عمل قسري. فطبيعي أن كل انسان متمدن يفكر في طريقة يفر فيها من حياة الريف النائي، والتحول الى حيوان.

– هذيان! ان الجيولوجيين يتجولون في الغابات العذراء سنين ولا يتحولون الى حيوانات.

– الجيولوجيون!.. الجيولوجيون سعداء. فهم

يخرجون جماعات، وكلهم شبان وفي مرح. اما نحن فماذا ينتظرنا؟ أتحسب انني اخاف من انعدام الكهرباء والمراحيض العصرية؟.. كل ذلك هراء! آنـــا على استعداد... ولكن تصور مستشفى ريفيا، قرية صغيرة، وسهبا او غابة، والريح تعول، وانت وحيد، وحيد تماما. وقد فرغت من عملك، وتناولت طعامك، وتمشيت من طرف الى آخر. وتنام. وتمر اعوام، وتسمن، وتتبلد حواسك، وتبدأ بتسلم هدايا المرضى الشكورين. وتشتغل افكارك بالفراخ والخنازير، ولا حاجة لك الى اكثر بعد ذاك. وستتذكر هذا الحديث بابتسامة تسامح.

دمدم فلادكا كاربوف:

– برر!.. الى الشيطان يا ماكس! انه شيء مرعب.

فسأل زيلينين:

– وانت، يا ابن صياد السمك، هل تخاف من القرية ايضا؟

قال كاربوف ضاحكا:

– افظع من الحرب. ولكن ما العمل؟ هذا نصيبنا العاثر. اردت ام لم ترد يجب ان تعمل بما تقول الاغنية: هيء حقيبتك الصغيرة.

فسأل ماكسيموف بحدة:

– وماذا تريد انت بالذات؟

– أنا؟ ايها الولدان أنا اريد دائما ان ارى فتياتنا، ووجهيكما المكروهين، وأن اطأ احجار هذه المدينة التاريخية كسابق عهدي، واتردد على حفلات الرقص والغناء وعلى السيرك. واريد ان امثل بنفسي في السيرك. «البهلول الاحادي الموسيقي فلاديسلاف كاربوف...» وبهذه المناسبة انا لا ارفض وظيفة طبيب دائم في مستوصف كروغلوف.

سأل زيلينين:

– وانت ماذا تريد يا الكسي؟

أجاب ماكسيموف بحرارة:

– اريد ان اعيش بشكل مثير. لا يهمني اين. ولكن بشكل آخذ كل شيء من شبابي. غير أن المستقبل يخبئ اكفهرارا. مصير طبيب ريفي. يجب ان تكون نزيها. علمونا الآن ان نواجه الحقيقة. فدع ترخانوف ومن على شاكلته يغنون لنا عن الرسالة السامية، والواجب الوطني، وليصرخ تشيفيليخين بان المصاعب لا تخيفنا، نحن الشباب الرومانتيكي. فكل الناس يعرفون انه قد ضمن لنفسه وظيفة طبيب دائم في مستوصف. اية

رومانتيكية تنتظرنا؟ لو قالوا لي: اصعد الى هذا الصاروخ وسنطلقك الى الفضاء وستتناثر ترابا بالتأكيد في سبيل العلم لهتفت «مرحى!» وحين يقولون لي ان رسالتي وواجبي ان اتحول الى طبيب ريفي من نوع «ايونتش» في قصة تشيخوف أقول: لا، رجاء! لا حاجة الى كلمات جميلة. سأقوم بذلك كشيء محتوم عليّ.

سأل زيلينين:

– لكن الا تفكر بالمرضى الذين ينتظرونك؟

ذهل ماكسيموف:

– عن المرضى؟

قال فلادكا:

– أتذكران كيف كان يقول غوشين اثناء دورته على المرضى: «أيها السادة، المرضى يشفون رغم كل جهودنا».

سأل زيلينين:

– الا تفكر يا الكسي بالآخرين؟

صاح ماكسيموف:

– وانت تفكر بالآخرين فقط؟

– ايه يا اليوشا، سيصعب عليك الامر.

ـ لا تقلق عليّ، ايها الفارس، اتوسل اليك ان لا تقلق!

فاقترح كاربوف:

ـ لنذهب الى السينما ايها الولدان.

التوزيع على الوظائف

ان هذا اليوم يعلق بالذاكرة طوال العمر. انه يوم التغيب الجماعي، والتهرب من المحاضرات، وقطرات الولريان، والقهقهات والدموع... والموزعون في اليوم الأول عشرات والمشجعون مئات: آبـاء، وزوجـات، وخطيبات، ومعارف، وفضوليون من السنوات الأولى.

ماكسيموف وكاربوف وزيلينين جالسون على اريكة في ممر الطابق الثاني. وماكسيموف وكاربوف ينتظران دورهما، وزيلينين ينتظرهما. فان دوره سيأتي غدا. ومن خلال الباب الزجاجي لمختبر فسلجة الامراض كانت ترى اشباح ساكنة في مريولات وطاقيات بيض. ان هذا اليوم بالنسبة للذين وراء الباب لا يبدو غير اعتيادي. انه، بالنسبة لهم مجرد يوم خميس ٢٩ مارس. ولكنه ليس لجميعهم.

ويسأل ماكسيموف بقلق مكبوت:

- حقا يا فلادكا، ما العمل؟

وكاربوف اليوم عبوس. فهو يقول على عجل:

- لن اوقع.

- هل فقدت عقلك؟ - ويدير ماكسيموف اصبعه على صدغه. - لن يعطوك الدبلوم.

- افهم، يا ماكس، كيف اغادر الى مكان ما للشياطين بينما هي تظل هنا!

- هي؟ - وينظر ماكسيموف الى صديقه في دهشة. - أمن المعقول أنك حتى الآن... - ويتلفت ويرتعش ويهمس: - ها هي آتية بالذات وكأنها سمعت حديثنا.

كانت فتاة فارعة الطول مقبلة تطرق أرض الممر بكعبي حذائها. وتبتسم وتتألق، وتسير في تحد بعض الشيء. ربما لأنها تحاول ان لا تفقد ضبط النفس تحت عشرات العيون المصوبة اليها. وتفتح باب المختبر، وتتوقف حين ترى الاصدقاء فجأة.

- لا تلتفت! - يقول ماكسيموف بسرعة، ويسحب جريدة ويستغرق في القراءة.

وتقترب الفتاة من الاريكة ببطء وكأنما تجذب بحبـــل.

– سلام، ايها الاولاد، – تقول بحنان. ولو سمعها الغريب لما أحسّ بصوتها اقل نغمة كاذبة.

ويجيب كاربوف:

– وسلامنا لك.

ويتمتم ماكسيموف:

– هالو.

ويحيي زيلينين:

– طاب يومك يا فيرا.

وتنظر فيرا في اهمال لطيف الى فلادكا المتعالي، والى الكسي المستقل (اما زيلينين فلا تكاد تلاحظه). ولكن ما الذي يجذبها اليهم على اية حال؟ صداقة سابقة ام شيء خفي وقديم لا دواء له على ما يبدو؟ آه، كل ذلك اصدآء الطفولة! وتتلفت، وينظر اليها الطلاب المتجولون في الممر بفضول. والطلاب يتذكرون جيداً كيف قدمت فجأة استقالتها لفلادكا كاربوف، وتزوجت من فيسيلين مساعد الاستاذ في كرسي فسلجة الامراض. وكان ذلك اثارة. وتبتسم فيرا.

– لا يهمكم ان تعرفوا اين تعينت.

قلص ماكسيموف عينيه في سخرية وقال:

ـ نعرف. تطورت العملية على هذا النحو تقريبا: دخلت رشيقة طازجة كالنسمة... بكلمة واحدة كنسمة معينة. وقال العميد: «وهذه احسن طالبة عندنا، فيرا فيسيلينا». واندهش ترخانوف متسائلا: «فيسيلينا؟ أهي زوجة زميلنا المحترم؟ آه، هكذا! رائع! اظن أن كل شيء واضح فيما يتعلق بفيسيلينا. ميمون طريقك نحو العلم. ادفعيه مع المحترم...»

وتأذت فيرا. لقد حدث كل شيء على هذا النحو تقريبا. ولم تعرف ماذا تفعل: تغضب ام تعتبر كل ذلك مزاحا، ام تبكي. وينقذها من هذا الموقف من كان ينقذها دائما ـ زوجها: يخرج من المختبر ويصحبها.

يصيح بيوتر ستولبوف، وهو فتى ضليع، في دعابة:

ـ يا فلادكا. هل «اختطفوا» المحبوبة؟

ويقبل اديك امبارتسوميان، وايغور بيروغوفسكي الشاعر محبوب الفصل متعانقين. ويقول بيروغوفسكي:

ـ اصغوا، ايها الاولاد، قررت أنا واديك ان نكون جارين في الشمال. انا آلى «اويمياكون» وهو الى «اروتوكان». وقد وعد هو باستضافتي على لحم الدب المشوي قطعا صغيرة. وقلت بنفسي انني سأعود من هناك بحقيبة سفر مملوءة بالاشعار. وها هم يعينون

لي أن ادرس في صفوف الاسبيرانتورة لاحصل على درجة مرشح علوم في العلاج. ضاع الشعر ولحم الدب!.. الانسان يخمن، واللجنة توزع.

ويقول ماكسيموف:

– أظنني ساطلب اليهم ان يعينوني في ياكوتيا كذلك. على الاقل هناك امتيازات وغرابة. وزلاقات هوائية...

– زلاقات هوائية واسبيرتو معتق – ابتدر كاربوف قائلا. – صحيح يا ماكس، لنخرج الى الشياطين من هنا.

ويتقدم من الاريكة رجل كهل يرتدي معطفا سميكا قديما، وقبعة لبادية.

– ايها الاولاد، الى اين تنوون ان تذهبوا؟

فيقول كاربوف في لذع:

– الى ريو دي جانيرو.

والرجل الغريب يقول في هدوء:

– وما وجه الدعابة في هذا؟ يمكن الى ريو دي جانيرو ايضا. أنا محتاج الى اطباء يخدمون على البواخر. فهل هناك راغبون؟ تريدون شرحا؟ انا رئيس الادارة الصحية لمصلحة البلطيق للملاحة، ونحن نقبل الاطباء للعمل على البواخر. وستكون الشروط مرضية. سيعطى اثناء الرحلات راتب مضاعف مع عملة اجنبية. الغذاء

بالمجان. ولكي تتعرفوا على شؤون العمل ستعملون بضعة شهور في الميناء، ثم تخرجون في الرحلات.

ويهتف ماكسيموف:

ـ الى آين؟

ـ الرحلات متنوعة للغاية ـ الى الهند والارجنتين وهناك رحلات اقرب: الى لندن، وانفرس والهافر. فماذا تقولون؟

ـ موافق! ـ يقول ماكسيموف وكاربوف في آن واحد. ويفكر الآخرون.

ويقول زيلينين:

ـ خسران كامل للمعرفة. انه خسران كامل لكل ما تعلمناه ايها الاولاد.

فيعترض الرجل في تكدر:

ـ انت على خطأ. يجب ان يكون طبيب الباخرة عارفا باتا بالامور. من المحتمل ان تحدث مختلف الحوادث. آن احد اطبائنا اجرى عملية فتق جاد في ظروف العاصفة في الاطلسي. هل تتصورون؟ وفي الامكان القيام بعمل علمي ايضا. فلا تستغربوا. فلماذا، مثلا، لا تكون موضوع اطروحة علمية فسلجة عمل البحارة في ظروف التغير الحاد للمناطق المناخية؟ انه

عمل كبير. واشرعوا فيه بحماس وانا أعدكم باسناد كلـــي.

ويسأل بيوتر ستولبوف:

– وهل تعطون شقة؟

– في الفترة الأولى قسم داخلي، وترخيص باقامة دائمية في لينينغراد. وفي المستقبل شقة...

– واضح. انا موافق.

ويفتح الرجل الغريب مفكرة:

– ما هي اسماؤكم أيها الاولاد؟ اذن. ماكسيموف، كاربوف، ستولبوف. انا محتاج الى طبيب آخر.

– اكتب زيلينين! – يصيح ماكسيموف وهو يهز قبضته على زيلينين الصامت.

وينصرف الرجل. ويصمت الطلاب. ويصمت زيلينين نافثا الدخان، وستولبوف صامت يقدر، وماكسيموف وكاربوف صامتان ينظران الى الامام في جمود. كل شيء قد انتهى! فاين هو مصير «ايونتش»؟ اين الحياة العقيمة التخمة في قرية نائية؟ ان الرجل ذا المعطف السميك، مثل حـــاو في عرض امام الاطفال، سحب الستارة فانفتح وراءها منبسط مائي متلألئ. والتمع سراب: نخيل،

وناطحات سحاب، وقباب، واهرام. أحلمتم بحياة غير عادية، غنية المضمون، طريفة؟ أظننتم أن الاحلام لا تتحقق؟ عبثا. تسلموا بطاقات الدخول، واركضوا الى المستقبل الجذاب واليسير مثل فيلم سينمائي. الهند! الارجنتين! وراتب مضاعف! واطروحة! وظروف عاصفة!

ويهز سيوما فيشر المفكر رأسه في ريبة. انه لا يتصور لنفسه حياة خارج جدران المستشفى، دون دورات صباحية على المرضى، وخفارة ليلية، ودون تفكير معذب في تاريخ المرض. ويشعر ايغور بيروغوفسكي بالحسد. ولا يعرف امبارتسوميان أيحسد ام لا. ويبتسم غنكا بوندار «رجل المجتمعات الراقية» ابتسامة تهكمية. ويسخط كوستيا غوركوشين: انهم اناس حمق، انجرفوا نحو حب الغرابة. اناس غير جديين. وفلادكا كاربوف والكسي ماكسيموف غريبا الاطوار من اصحاب التقليعات. وستولبوف لا يفكر الا بمصلحته. ولكن لماذا يصمت ساشكا زيلينين؟

وفي آخر الامر ينطق كاربوف بعبارة منهجية:

— ايها الاولاد، لا بد ان يشق سطح المحيط شخص ما!

ريح مسائية

كان هجوم الربيع في تلك السنة ساحقا. في اواسط مارس كان كل شيء يذوب. وجاء عمل اسطول تنظيف الشوارع. كانت آلات التنظيف الميكانيكية تحك الشوارع وتكنسها من الصباح حتى المساء، وكان البوابون ينزلون الثلج من على السطوح بطريقة الجدود، ويقصفون الارصفة به. قصف مرح في لينينغراد! وفي المساء كانت الشمس الجانحة نحو سياج تؤلفه بنايات حي فاسيليفسكي اوستروف تخرق باشعتها خط الترولي باص والسيارات في شارع بولشوي في حي بتروغرادسكايا ستورونا. ثم اخذت السماء فوق الغروب تخضوضر مذكرة بالصيف، وبمخيمات الطلائع، وبالاحلام عن اقطار بعيدة وبالتجواب. وكانت تظهر في الساحات المبللة ازواج، وجماعات صاخبة معها قيثارات، وخيّم ليل ربيعي مع رنات الاوتار، وهتافات خافتة، وخشخشة، وضحكات وقبلات.

في المساء، بعد انتهاء التوزيع سار ماكسيموف وزيلينين في شارع كيروفسكي نحو النيفا. وقد اختفى

كاربوف، والظاهر انه ذهب ليبلغ الفتيات اللواتي يعرفهن عن الحادث السار.

ها هو النيفا! وفوق آلاعمدة المزينة بالزخرفة، فوق متحف الاسطول الحربي تعلق ذرور قبيل الغروب الذهبي. في كورنيش دفورتسوفايا انطلقت قطرات السيارات اللامعة وكانها في مزراب. وشاع مزاج مألوف. كانا يحبان التنزه في لينينغراد صامتين. وقد قال بعض الناس ان الصداقة هي القدرة على ان يصمت الانسان ومعه صاحب. فالكلمات في مثل هذه اللحظات كانت في غير مكانها، حين كانت المدينة تتفتح امامهما، وحين جاءت ومضة لا تكاد تلقط مقربة اياهما من بناتها وحالميها الذين ماتوا منذ زمن بعيد. وعبرا نهر النيفا، وسارا على الكورنيش. واخذ زيلينين يصفر في استغراق. ونظر الكسي الى وجهه الناحل تحت قبعة عريضة الحافة، وشعر بغيظ. وزيلينين ماض في صمته وصفيره. كانت عادته هذه تغيظ الكسي دائما. وفجأة اخذ زيلينين بالابتسام بغرابة، وصفر بنغم احمق من انغامه. وفكره في هذه الدقائق كان يجوب في طرق لا يراها ماكسيموف.

قال ماكسيموف بصوت جهير:

– على اية حال انه احسن شكل.
فسأل زيلينين جافلا:
– ماذا؟
– احسن شكل للتوزيع. وبالنسبة لك ايضا. فانا ارى انك لا تريد البتة ان تغادر لينينغراد. وهكذا فانك ستكون هنا بين رحلة واخرى. لا تنس أن تذكر الرئيس بك غدا.
– نعم، نعم – ردّ بذلك زيلينين – بالتأكيد، حتما، بالضرورة.
ففكر ماكسيموف مع نفسه برضى: «هذا هو امتحان انفسنا الذي قلت عنه».
– هل نقف قليلا؟
– هيّـا.
اتكآ على الحاجز وراحا ينظران الى النهر الذي ظهرت في اماكن كثيرة منه التماعات ارجوانية. وحرثت الماء ريح قادمة من البلطيق. وبعد وقت قصير اخذ ماكسيموف يلتفت الى الفتيات المارات.
– يا للشيطان. كم من فتيات حلوآت!
– نعم، نعم – هتف زيلينين بمرح، – احب ان ارقص معهن جميعهن!
– ليس تحقيق ذلك صعبا. لنشرب زجاجة من

البورت ماركة «٧٧٧» لكل واحد، فيخيل اليك انك ترقص مع نساء العالم كله. اضمن لك مهرجانا تاما. هل نذهب لنشرب اذن؟

فسأل زيلينين:

– نخب المحيط، ونخب الاشرعة المنفوخة في الريح؟

قال ماكسيموف ضاحكا:

– نخب المراجل والتوربينات.

– لا، نخب الاشرعة بالذات. اتعرف انني حين افكر بالبحر يخيل اليّ انني اسمع المقدمة الموسيقية لفيلم «اطفال الكابتن غرانت». موسيقى عبقرية.

قاطعه ماكسيموف:

– كفاية! لنذهب.

واستدارا فرأيا رجلين ينظران اليهما: أحدهما سمين مدور اعرج يضع عكازة في يده اليمنى، والثاني مديد القامة رث الهيئة. وكلاهما ثمل تماما.

– انتظر يا ميشا – قال الاعرج، والتفت الى الشابين: – ايها الشابان، اسمحا لي ان اقطع عليكما خلوتكما؟

قال زيلينين:

– تفضل، ماذا تود؟

نظر الاعـرج نظرة مترددة، وظهرت على وجهه ابتسامة سكران طيبة.

– اود أن القي عليكما جملة اسئلة. انتما شابان متعلمان، كما يبدو من مظهركما – من الملابس وبوجه عام. هل انتما طالبان؟ انا رجل لم ينه التعليم العالي. اعاقتني الحرب عن ذلك. ولقب عائلتـي يغوروف. سيرغي يغوروف. – ومدّ يده الى ماكسيموف بعد ان وضع العكازة تحت ابطه وهتف: – لاي شيء تعيشون ايها الشبان؟ الى اية جهة يميل عقرب بوصلتكم؟ او على نحو ادق، ما هي تطاولاتكم؟ عندما كنا في عمركم كنا نعرف ماذا نعمل، وواجهنا الموت.

– والآن تكرسان حياتكما لهذه؟ – ورفع يده الى شفتيه تمثيلا لشرب الخمرة .

دفع الاعرج رأسه الى الخلف، وثبت فيه نظرة صافية فجاة:

– نحن المحاربين القدآمى، لا زلنا نعرف مـاذا نفعل. أما انتم فالظاهر انكم لا تعرفون غير التسكع على شارع نيفسكي لا اكثر.

– أهذا نحن؟

ـ نعم، هذا انتما ومن على شاكلتكما، يا حشائش!
ـ قف عند حدك، يغوروف، تنزه! نحن لا نعرفك.
وتملك الغيظ ماكسيموف، فامسك الاعرج من كتفيه، وأخذ يديره بحذر.
ـ ارفع يدك عنه! ـ صاح الرجل الطويل بتهديد، وكان له وجه نحيف لوته تقطيبة حامضة وكأن في فمه شريحة ليمون. حضن يغوروف وهمس: سيريوجا! انظر مع من تشربكت. حقارة، صعاليك! وهما يهينان بطل حرب. تفضلوا يـــا اصدقـاء، استمتعوا، ـ قال ذلك ملتفتا الى المارة الذين توقفوا: ـ اثنان من الفتية الفارغين يهينان رجلا اقعدته الحرب.
صاح زيلينين:
ـ لسنا فارغين. ولم نهنه.
ـ ... مقعد حرب اراق دمه من اجلهما. وضحى برجله اليمنى. وفي حضوري تسف لغم رجله في عام ١٩٤١ قرب مدينة روستوف... أتذكر يا سيرغي، يـا صديقي الموجع، ذلك الخنيدق؟.. أتذكـر كيف استلقيت وفي يديك سلاح مضاد للدبابات. وأنا مع رشاشة اوتوماتيكية على بعد عشر خطوات وفي تلك اللحظة هدر الهدير، ثم ظهرت الدبابات.

قال يغوروف:

ـ لا اتذكر عندما ظهرت الدبابات.

كان الناس يحيطون بهم صامتين. وغمز ماكسيموف لزيلينين وضحك بافتعال:

ـ محاربـان يتذكران الايـام الماضية. ولكن من المحتمل ان رجله اصيبت في حادثة ترام. غفا وهو سكران على سكة الترام.

وتوقف عن الكلام. نظر اليه الرجل الطويل صامتا. وكأنما قد ابتلع، في آخر الامر، شريخة الليمون التي كانت في فمه. وظهرت على وجهه غضون هادئة كبيرة، ورأى الكسي ازدراء في عينيه فقط، أزدراء محرقا يعلق في الذاكرة ابدا. ودفع الكسي كتفه الى الامام. وفجأة امسكت يد مرفقه من الخلف فالتفت ورأى طيارا برتبة عقيد.

ـ ايها الشابان لا تستهزئـا بهمـا. لا لوم على المحاربين لو يتذكرون الايام الماضية. وأنت، ايها الصديق، عبثا ما تفعل فانت لا تعرف الناس فتسميهم بالفارغين.

ـ لسنا شابين فارغين، نحن طبيبان ـ حاول زيلينين ان يقول ذلك بوقار، ولكن صوته اهتز.

فقال ماكسيموف في حدة:

– ولماذا تقدم تبريرا؟ لنذهب.

وسارا في الكورنيش حتى هبوط الظلام، وبلغا جسر الملازم شميدت، ثم عادا ادراجهما. كانت ريح شديدة ترقّص على سطح الماء نقاط لألاء. وكانت كل واحدة ترقص رقصتها الخاصة، وتقفز على طول الشاطئ، وكأنها تخاف من ان تنط الى الظل الكثيف الى البناية القاتمة لقلعة بتروبافلوفسكايا. ورفع ماكسيموف وزيلينين ياقتيهما.

قال ماكسيموف:

– انا المذنب في هذه الحادثة بالطبع. لقد عيرت الاعرج عبثا. فان السكيرين يتأثرون تأثرا حادا بمثل هذه المواضيع.

– لماذا حسبت انهما سكيران. لعلهما كانا يحتفلان بمناسبة ما.

– العقلاء من الناس لا يتمحكون بمن لا يعرفونهم من الناس.

– أتذكر ما قال والت ويتمان؟ «واذا رأيت شخصا في حشد، وراودتك نفسك في ان تستوقفه، وتتحدث معه، فلماذا لا تستوقفه وتتحدث معه؟» اتعرف انني

اتصور بشكل واضح جدا كيف كانا مستلقيين في ذلك الخنيدق قرب روستوف. وقد كانا في مثل عمرنا الآن. وكانا يريدان ان يعيشا، ولا يريدان ان يفقدا اطرافهما. فاستلقيا يطلقان النار، ولم يفكرا في الهروب. انا لا اظن ان ثباتهما هذا مبعثه الشجاعة فقط او الخضوع للضبط العسكري. ولا بد من انهما شعرا بواجبهما ازاء جميع الاجيال من الروس، وبمسؤوليتهما ازاء الاجيال المقبلة. وجيلنا؟ اتظنه قادرا على الاتيان بالمآثر، والتضحية؟

- التضحية؟ هراء! كلمة وحشية. وهل نحن وثنيون لنقدم الضحايا؟

- فليكن واجبا اذا لم تعجبك كلمة تضحية. أتفهم ذلك؟

- تعني التزاما؟

- لا، يا اخي، واجب بالذات. واجبنا الوطني، الاحساس بخندقك.

انطفأت سيكارة ماكسيموف، ولم يستطع اشعالها في الريح مهما حاول. وكان يشتغل باعواد الثقابة، ويتحدث مصكوك الاسنان:

- أوه، كم اضجرني هذا! كل هذه الثرثرة الفارغة،

وكل هذه الالفاظ الرفيعة ينطق بها عدد كبير من المثاليين الرائعين من امثالك، وآلاف من الاوباش ايضا. ومن المحتمل ان بيريا كان يستخدمها حين كان يخدع الحزب. والآن حين اصبح معروفا لنا الشيء الكثير صارت هذه الالفاظ بهارج فارغة. فتعال ندبر أمورنا دون اللجوء الى ثرثرة فارغة. أنا احب بلادي ونظامي، ولا ابخل من اجلهما في أن اضحي بيدي او قدمي او حياتي. ولكنني مسؤول امام ضميري فقط، وليس أمام اصنام لفظية. فهي مجرد اعاقة لرؤية الحياة الحقيقية. مفهوم؟

ضرب زيلينين الجرانيت بقبضته بقوة وكأنه لم يشعر بألم.

– لست مصيبا يا اليوشا! لسنا مسؤولين امام ضميرنا فقط، بل وامام كل الناس، امام الذين انتفضوا في القرن التاسع عشر في ساحة سيناتسكايا، وامام ابطال الثورة الذين دفنوا في «مارسوفو بوليه»، وامام معاصرينا، وامام الاجيال المقبلة بوجه خاص. ثم ماذا عن الالفاظ الرفيعة؟ انها فتحت اعيننا على ما كان يعيق طريقنا الى المستقبل، وخليق بنا ان نفرح بذلك لا آن نضجر كما تفعل انت. والآن ننظر بوضوح

إلى الاشياء، ولا نسمح لاحد بأن يضارب بما هو مقدس بالنسبة لنا.

في آخر الامر مصّ ماكسيموف نفسا عميقا، وقال بشكل غامض:

– نعم، ايها الفارس، يا لحكمتك!

... يقف الاثنان وقد رفعا ياقتيهما ازاء الريح. هما الآن في مقتبل العمر، وفي بعض الاحيان يشعران كانهما صبيان تماما، وفي الاحيان الأخرى، في فوضى الفيضان الربيعي يلتفتان الى الوراء، ويقلبان بصريهما جانبا والى امام، ينظران قدّامهما باحثين عن الدرب.

الفصل الثاني

آخر عطلة دراسية

– متوحشون!

– يا عزيزي، أضرب ضربة طويلة!

– اجعل منه بهلولا، نعم اجعل منه بهلولا!.. ايه، ضربة طائشة!

ولم تنفع صيحات المشجعين. فان فريق «المتوحشين» – الكسي ماكسيموف، والكسندر زيلينين وآخرون – هزم لاعبي الكرة الطائرة لدار الراحة «ابوفتشيك» (الخاصة بعمال صناعة الاحذية) هزيمة شنعاء. مرّر ماكسيموف الكرة الى زيلينين ووثب هذا في الهواء، وكبسها بقوة في الخط الاول من الجانب الثاني. وأنهت الكبسة اللعبة. طبعا ان نظارة زيلينين قد سقطت. كانت تسقط بعد كل قفزة تقريبا. ولكنه الآن تخيل ان هذا ما يجب ان يكون بعد تلك الكبسة اللامعة. وان الوجوه مغبشة، ورؤوس اشجار الزيزفون مائلة قليلا. ربّت ماكسيموف على ظهره:

– شاطر، يا ساشا.

فتمتم زيلينين:

– اين، اين، اين؟

– تلك الشقراء؟

– نعم، اين هي؟

– خذ منظارك المكبر وسترى.

كانت فتاة ممشوقة القوام، ترتدي بنطلونا رماديا ضيقا تقف تحت شجرة شوح. قهقهت حين رأت

نظرة الكسندر الذاهلة وانصرفت، وهي تقود الى جانبها دراجة سباق. وترنم ماكسيموف في أسى:

– تصادف وسط اللعب الصاخب...

صاح الكسندر:

– بالضبط! لقد حزرت مزاجي. انها هي، هي!

فغمغم ماكسيموف:

– ولكنك، مع الاسف، لست في بدلة السهرة، وقذر قليلا. لنذهب ونسبح.

كان البلاج فارغا. وحتى اكثر الغطاسين حماسا تفرقوا الى بيوتهم. سار الصديقان حتى طرف الرصيف، ووقفا هناك غير قادرين ان يصرفا بصريهما عن الغروب. كانت الشمس مثل قبة قصر اسطوري ترتفع فوق الافق اللامع وكان ثمة شريط أحمر مرتعش يقطع البحر كله وكأنه اثر ضربة بسوط.

قال ماكسيموف:

– الغروب منظر مؤذ.

– منظر رائع حسب رأيي.

– وحسب رأيي، مؤذ. يوحي بضياع الثقة. هذا هو السبب. يخيل اليك ان وراء الافق تنبسط بلاد

رائعة مجهولة، يتحدث الناس فيها بلهجات رفيعة، وهم منفعلون وسعداء جدا. ولكن لا وجود لها في حقيقة الامر.

– دعنا نسبح ونتأكد!

وقفزا الى الماء دفعة واحدة، وسبحا زحفا على الشريط الشمسي. وبدا رشاش الماء المتطاير من ايديهما مثل قطرات شراب الكرز. تلفت ماكسيموف، واجال بصره في قوس اشجار الصنوبر لبرزخ كاريلسكي المحفوف في الاسفل بشريط من الرمل الاصفر. كان ساحلا دافئا. وفي تلك الساعة كان الوف من الناس تطبخ عشاءها فيه.

– أوه!.. يا لفرح العيش! – قال الكسي ذلك.

وعلى مقربة منه طلع الكسندر من غوصته مبحلق العينين، فاغر الفم. قال وهو يضرب الماء براحة يده:

– ياقوت من بلاد اسطورية!

وعادا الى الرصيف. وجلسا على سلم حديدي.

قال الكسي:

– بعد يومين سنذهب الى العمل. وفلادكا لم يعد حتى الآن.

تنهد الكسندر:

– وانا بعد غد، سأسافر الى كروغلوغوريه. وداعا يا آخر اجازة دراسية. شيء محزن!

– ولكن لا تذهب الى هناك.

– وكيف ذاك؟

– هكذا يرتدي بابا زيلينين بدلة مسائية سوداء ويذهب الى دائرة الصحة العامة للمدينة. يذهب ويتلفن وتنتهي المسألة. تتعذب ضمائر العائلة النبيلة الاهداف اسبوعا، ثم تأخذ الحياة مجراها. هذا كل ما في الامر.

– لا تتفوه هراء يا الكسي.

– هل انت راغب جدا في السفر؟

– لا! – نفى زيلينين في غضب.

– بالطبع! فانت ابن مدينة حتى النخاع، وسليل مثقفين. اما كوستيا غوركوشين فسيكون راضيا في كل مكان.

– حلم كوستيا بفولغاه، ورحل الى ياكوتيا.

– لأنهم في ياكوتيا يعطون راتبا مضاعفا وزيادة.

قال زيلينين بصلابة:

– لا، ليس لهذا السبب.

تحول ماكسيموف الى صديقه. وكان هذا جالسا

على درجة حديدية، وقد غطس في الماء حتى وسطه، كان ابيض ضاويا ملهما.

- ايها الطفل، عد الى الارض. نعم، نعم، فان على الارض رواتب اعتيادية ومضاعفة، وترخيص بالاقامة أيضا. على الاقل ان الذاهبين الى ياكوتيا تحفظ لهم اقامتهم. وانت تقول ان مكان طبيب الباخرة قد اعطي لشخص آخر. الا ان الوظيفة في ياكوتيا ما زالت باقية!

- ترخيص اقامة! لماذا يجب ان احرص على ترخيص الاقامة؟ ان ذلك اهانة لي.

- حسنا. انت تعرف انني لا اقصد هذا فقط. انك ستكون في مغارة الدب، في اقصى الارض، ولو كنت غير بعيد عن لينينغراد. فان ياكوتيا أرض غريبة على الاقل. فضاء!

- اقول لك الحقيقة. لم يعط مكاني لأحد. مجرد انني سمعت عند التعيين أن في تلك الحاضرة لم يكن هناك طبيب منذ سنتين، فطلبت ان اعين هناك.

هتف ماكسيموف:

- أحسنت! سيكتب اسمك بالذهب في تواريخ...

— سافر يوما واحدا من لينينغراد ولن تجد طبيبا. يا للعار! ان السفر الى هناك واجبي كمواطن.

ولم يفهم ماكسيموف لماذا بدأ مثل هذا الحديث في آخر الامر. ولكن شيئا ما دفعه الى معارضة الكسندر. قال:

— اذهب الى الشيطان. من المقرف الاستماع اليك! وقعت على متصلب!

— لا تسخر يا الكسي. أتذكر اننا تحادثنا عن قيمة الالفاظ الرفيعة؟ فكرت بذلك كثيرا و...

— وأنا ايضا فكرت وادركت ان كل ذلك هراء. هناك حياة مكونة من صخور لفظية مصقولة وهناك حياة حقيقية حيث الابطال يتشاجرون في الشارع وحيث الفتيات ذوات الخلق الرومانتيكي يضطجعن على الاسرة مع سادة مرفهين، وكم يوجد من المخاتلين والمحتالين؟ انهم سيضحكون وراء ظهرك، ويسيرون أمورهم. ودستوري هو التمسك بالامانة، ولكن لا تدع الآخرين يخدعونك ولا تسقط فريسة للمثالية.

— مرّ زمن، يا اليوشا، كنت تحلم فيه بالحياة الحقيقية وبالكفاح.

— هذا هو الكفاح. الكفاح من اجل مكان تحت الشمس.

— ولا تفكر بالآخرين؟

— مرة اخرى تعود الى موضوعك؟ مرة اخرى عن الاسلاف والاحفاد؟

— نعم، عنهم.

— وماذا بوسعي، انا الكسي ماكسيموف، ان افعل لهـم؟

— تابع قضية الاسلاف من اجل الاحفاد. نحن جميعا حلقات في سلسلة واحدة.

— والآن، هل لا يجب عليّ ان اعيش؟ ولكني لا اعرف، على العموم، ماذا سيحدث بعد موتي. أربما لا شيء قط؟ اربما هذا العالم مجرد حلم لي؟

— احمق! متصنع! — صاح زيلينين في قنوط. — ان فلسفتك الانانية لا تساوي فلسا واحدا.

في تلك اللحظة بدا لهما ان نيزكا سقط في البحر، على بعد متر منهما. انهار عمود من المـاء وحين تلاشت الدوائر رأيا جسما يلتوي في الاعماق.

قال ماكسيموف:

– يستحق جرّ بوزه على مثل هذه الالاعيب.

وظهرت طاقية حمراء، ووجه وكتفان برونزيتان.

هتف الشابان:

– فلادكا!

سبح فلادكا كاربوف، وصعد الى الرصيف. كان كاربوف جميلا وهو جنوبي داكن السمرة. وكانت عضلاته تتحرك تحت جلد متلألئ مثل الاسماك. وقد شعت من ابتسامته المزغللة للعيون طراوة الملصقات.

صاح ماكسيموف:

– الرياضة والمربى مفيدتان للجميع!

قال فلادكا وهو يلهث:

– فوف، ايها الزميلان، انكما على شكلكما الاعتيادي!

– كيف استرحت؟

– بشكل جيد. وانتما؟

– لا بأس.

– لماذا انت شاحب يا ساشا؟

– هل نسيت؟ ان ساشا دائما شاحب بيننا. روح ثائرة واندفاعات نبيلة! ثم ان الحب هزه في عشية اتيانه بمأثرة وطنية.

صاح كاربوف:

– حب؟ آه، ايها الاخوان. اي لقاء كان لي في اوديسا مع ممثلة!

شهق ماكسيموف، وطرح يديه في ونى. لا يجوز أن يبدأ من البداية حالا! ان تلك الحكايات عن «لقاءات» فلادكا قد أتخمت الكسي ماكسيموف كليا! قال كاربوف: «اسكت'!» وطلب الى زيلينين ان يقص عليه حكاية «لقائه». ولكن الكسندر زيلينين بحث عن نظارته في كومة ملابسه مدمدما. وحرك ماكسيموف يده حالما.

– كان اللقاء عابرا كالنفحة... حم... أنا دائما اصاب بمثل هذه النفحات.

فتمتم زيلينين:

– مثل نفحة ريح صيفية.

– بالضبط. انها مقارنة طازجة جدا. جاءت على دراجة سباق لتتفرج على لقائنا الهرقلي مع فريق «أوبوفتشيك». ثم انصرفت. لا تحزن، يا فارس، سنراها اليوم في المرقص.

– هي في المرقص؟ انت احمق!

– نتراهن؟

– لأكون انا الحكم – صاح فلادكا.

ويسيرون في الغسق في الطريق المعبد. في خطى عسكرية متساوية كما هو شأنهم دائما. ومكبرات الصوت في منطقة المصيف تحمل صوتا هادرا، ودندنة سريعة لقيثار. في ذلك الصيف شاعت اغنية «ميشكا اين ابتسامتك؟» منتصرة في الساحل كله متفشية كالوباء.

هتف ماكسيموف:

– سافقد عقلي!.. ليتني أرى مؤلف الاغنية، ليتني أراه!

فأوعز كاربوف:

– اسرع في الخطى!.. لا تتكلم في الصف!

فكر ماكسيموف: «كل شيء بانتظام. نحن نمزح. ونحن ذاهبون سوية الى الرقص. وعمرنا تسعة عشر ربيعا. أوه! ليس بالضبط. كل واحد عمره اربعة وعشرون. وهذه آخر مرة سنكون فيها سوية...»

كانت اضواء البيوت الريفية تلمع من الجانبين حيث كانت الغابة غير كثيفة. والثلاثة سائرون كما هم دائما، وكما هم من قبل، تاركين وراءهم مناظر حياة الاخرين الهادئة. وكانت حركاتهم تشف عن حزم. فما هو مبعث

هذا الحزم؟ لا، لا شيء سوى انهم ذاهبون الى الرقص، سوى ان مزاجهم رائق، سوى ان عمر كل واحد منهم اربعة وعشرون عاما.

كانت أربعة مصابيح تضيء وسط ساحة الرقص جاعلة اياها مثل حلبة الملاكمة. وتوقف الشبان في زاوية، قرب المدخل. وفجأة صدر صوت محرك على مسافة قريبة الى الخلف. اقتربت سيارة من طراز «بوبيدا» من الساحة تماما، وخرج منها غنكا بوندار، وتلك الشقراء «الطيف العابر». وصعدا الى الساحة.

قال ماكسيموف في تعجب:

– أوه يا الهي. هذه نفحتك قد جاءت.

ضحك «رجل المجتمعات الراقية» وهزّ يده:

– المعذرة على عدم اللياقة. مرحبا ايها الفرسان! السلام على زيلينين!

قال ماكسيموف لزيلينين:

– ها هي اوهامك.

همس زيلينين:

– نعم، نعم. ماذا...

وهمس كاربوف:

ــ حالما تعزف الموسيقى رقصة الفالس ادعها للرقص. فان غنكا لا يرقص الفالس مبدئيا.
ــ لا، لا اريد ــ تمتم ساشــا ونزل من الساحة وجلس في الظل على مقربة. وأخذ ينظر الى النجوم ويدخن. وفكر: «جاء «الطيف العابر» مع غنكا. بالطبع، عنده سيارة وهي تعني الشيء الكثير. وفلادكا وسيم، والكسي ليس بالقبيح أيضـا. وأنـا؟ فارس الحزن. ولكنها، عند اللعب، نظرت اليّ وكأنهـا متقصدة. لا تنجرف مع الوهم. اخرق للغاية. بنظارة».
وحين عاد كان كل شيء كما تصوره. كان كاربوف يدور مع فتاة في رقصة فالس، وماكسيموف يقف قرب الدرابزين يسخر من غنكا بوندار المتجهم.
ــ كل شيء امامك يا ولد. أرفع رأسك. وسيارة مرسيدس تنتظرك عند مدخل البيت.
سكتت الموسيقى. وكانت تقترب منهم فتاة ضاحكة وكاربوف يخترقان الحشد. كانت الفتاة ترتدي فستانا فاتح اللون ضيقـا عند الخصر، ومقبب في الاسفل كالجرس. وكان زيلينين يرى مثل هذا الفستان لاول مــرة.
ــ تعرفي على اصدقائي يا أينا.

هذا هو الفتى حقا! عرف اسمها بسرعة، وخاطبها بلا رسميات. بل وبشكل غير لطيف. اذ انه لا يحب الا فيرا فيسيلينا.

– الكسي ماكسيموف.

– الكسندر زيلينين.

فقال بوندار:

– واسمي يفغيني.

– ما هذا؟ هل انتما غير متعارفين؟ ألم تبنيا في الطفولة ابراج الرمال؟

قالت اينا:

– لا. سوى أن يفغيني عرض عليّ ان يوصلني بسيارته.

– رائع! – قهقه ماكسيموف – بوندار في طريق الصلاح. والثقة هي كل شيء.

قالت اينا باسمة:

– أحقا أنني قد جازفت؟

طنّ شيء في مكبر الصوت، وانفجر، وتساقط اللحن المهشم لرقصة «الكامبرسيتا».

– هل نذهب للرقص؟ – قال بوندار في عدم اكتراث أسيف.

ابتسم فلادكا ابتسامة ذات معان. وطق ماكسيموف كعبي حذائه.

— لا، اعذروني — قال زيلينين، وأمسك الفتاة من مرفقها بحزم. فرفعت اليه عينين مندهشتين وسارت الى الامام، في زحمة الراقصين. وفكر زيلينين: «ماذا بي؟ ماذا يجري لي؟» نظرت اليه العينان الزرقاوان الداكنتان مثل الفسق الربيعي متسائلتين ومشجعتين. نظرتا بلطف. وأخذ يتحدث دون انقطاع وكأنما يخاف من ان يفزع الصمت الفتاة. ودارا، وتحركا بين الحشد، ونظر احدهما الى الآخر. وبين الفينة والاخرى فقط كان بصراهما يقعان على رؤوس اشجار الصنوبر الهائلة المغروزة في السماء ذات النجوم، وبين الحين والآخر فقط كانت تهب عليهما ريح غامضة من الخليج عبر انفاس الحشد المعطرة، وبين الآونة والاخرى فقط كانا يفهمان الاهمية الخاصة لهذه الدقائق. رقصا رقصة بعد أخرى، ثم نزلا من ساحة الرقص واختفيا.

— امور ساشا ماشية بانتظام. ظهر انه فارس حقا! — قال الكسي ذلك برضى.

كان هو وفلادكا جالسين على درابزين ساحة الرقص.

وكان ماكسيموف يتسلى بان يتصور لنفسه زيلينين في تلك اللحظة.

سأل فلادكا:

– هل ما زال بيروغوفسكي في كوماروفو؟

– نعم. وقد سافرنا اليه عدة مرات.

– كيف حاله؟ – سأل كاربوف في لهفة.

– ماذا به؟ لعبنا كرة المنضدة.

مسكين فلادكا. لا الجنوب ولا «اللقاء» مع الممثلة استطاعا ان ينسيا فيرا. والآن يعمد الى المناورات المثيرة للرثاء. يريد ان يسأل فلا تطاوعه نفسه.

– نعم. وكانت هناك فيرا. مع زوجها، بالطبع... لا، لم اهذر. خلّصني من التحدث عنها!

فقال فلادكا في جفاف:

– وماذا يعنيك من هذا؟

حقا، ماذا يعنيه؟ ما شأنه، هو ماكسيموف لو خرجت فيرا من حياة فلادكا؟ ان ماكسيموف غير مكترث لها. فهناك فتيات أجمل وأكثر اخلاصا. فماذا يعنيه من هذا كله؟

سأل فلادكا في شوق:

– هل تظن انها تزوجت من اجل الوظيفة فقط؟

ـ لا اظن.

ـ ربما تظن انها تحب ذلك الرجل؟

ـ كل شيء محتمل. او ربما جذبتها فكرة التعاون العلمي. ماريا سكلودوفسكايا وبيير كوري... ان فيرا قادرة على مثل هذه المقارنات. وانت في هذا المجال فتى لا يبشر بمستقبل.

صاح كاربوف:

ـ هذا ما تظنه انت؟

ـ هذا ما تظنه هي. او بالاصح انا اظن انها تظن ذلك.

ـ أوه، يا لفلسفتك!

في الساعة الثانية عشرة ونيف ليلا كانا مضطجعين في الظلام في بيت ريفي، يدخنان حين صرّ الدرج تحت النافذة في تلصص، وعلى رقة السماء العميقة الشفافة لاح شبح زيلينين. وكان ضوء النجوم يتلألأ على نظارته.

تمتم ماكسيموف:

ـ جاء دون جوان!

ـ اية فتاة هي! آه، اية فتاة! ـ قال زيلينين وهو لم ينزل بعد من طوار النافذة.

– استلق للنوم.
– هل تبادلتما القبلات؟ – سأل فلادكا محاولا اخفاء حسده.
– فقدت عقلك! من أول يوم؟ لقد تحدثنا عن الكثير، عن كل شيء، ولكن، وآسفاه، انها موسكوفية تدرس في جامعة موسكو. وأنا مسافر الى كروغلوغوريه. وآسفاه.

الوداع

وقف والدا زيلينين قرب ابنهما. وكانا بأدبهما الجم، وبعض اتزانهما يلوحان في غير مكانهما هنا على المرسى النهري في الحشد الصاخب.
قال الاب:
– تذكر يا ولدي...
– نعم...
– ابلغنا في الحال يا بني كيف تنظم معيشتك هناك. فان المعيشة على اية حال مهمة جدا – قالت الام في ثقة بالنفس تخفي اضطرابها.
وكانا صديقاه واقفين على مسافة صامتين مكتئبين.
وظهرت اينا حين صعد على ظهر الباخرة.

وكان زيلينين ينظر باهتمام غير واع كيف تشق طريقها في الحشد فتاة هيفاء ترتدي سويترا ازرق. وفجأة تراقصت في عيني الفتاة ومضات الفرح، واندفعت نحو ساشا، ووقفت مرتبكة عند مرأى والديه. وأسرع فلادكا والكسي لنجدتها.

قال فلادكا:

– سيأتي الآن ساشا. انه سيستمع فقط لآخر التوجيهات.

قال ماكسيموف:

– ويتسلم قارورة من البلسم.

فابتدرت اينا تقول:

– ومقدارا معنا من مصرف الجيب.

وضحك الفتيان في غير مرح. شعرت اينـــا بالهما قبلاها في شلتهما. وقد راق لها هذان الفتيان وفهمت دعابتهما وكآبتهما بشكل ممتاز. لكنهما الآن حزينان، وهي فرحة. وكان الوداع بالنسبة لها ليس الا بداية قصتها مع الفتى ساشا المضحك.

قال زيلينين وهو يقترب:

– كما ترون ايها الفتيان أنا أول الخارجين الى السفر.

قال كاربوف:

– سنأتي اليك لنتزحلق بالاسكي. يقولون ان هناك اماكن رائعة للتزحلق.

– أوي، حقا! – فرحت اينا – تعالا نذهب الى هناك في الاجازة المدرسية!

قال ماكسيموف:

– لن تكون لنا اجازة مدرسية بعد الآن. في ذلك الوقت سنكون في ظروف عاصفة نكتب اطروحة.

قال زيلينين متوجها الى اينا:

– سأتلفن اليك في موسكو.

وصفرت الباخرة صفرتها الأولى.

وتمايل المرسى النهري، وبدا للواقفين عليه انهم سينطلقون ايضا في أثر الباخرة.

وصاحت الأم:

– يا ساشا، تناول طعامك كما ينبغي. اتوسل اليك، تناول طعامك كما ينبغي.

وأجهشت باكية. فمسّ الأب كتفها مرتبكا:

– أتذكرين المثل القائل: خلق الولد ليرحل والأم لتنتظر.

نظرت اينا بكل عينيها، وغنى الفتيان نشيد المعهد.

غنيا واثقين من ان زيلينين يغني وهو على ظهر الباخرة الآن، نفس النشيد.

غنى زيلينين على ظهر الباخرة وفكر: «على أية حال جاءت الى المرسى رغم انها قد وعدت بذلك عرضا. وداعا يا اولاد. وداعا! ما اطيبكم يا اولاد! يا ماما، اعدك بان اتناول طعامي كما يجب. نعم. يا بابا، نعم...»

وقفت الباخرة قليلا في وسط النهر، وقد بدت وكأنها نحتت من مرمر ابيض، ثم اتجهت سريعا نحو الشرق، في الغسق.

سمعت اينا سعالا مرتبكا وراءها.

وقال زيلينين الأب:

— عفوا، نود آن نتعرف عليك.

في ذلك المساء ذاته حصل وداع آخر. سافر من محطة موسكو فريق «ياكوتيا». وقف قرب عربة القطار كلارا، وكوستيا غوركوشين، وامبرتسوميان، وسيوما فيشر وغيرهم، وجميعهم قد ارتدوا الستر المضلعة بالمطاط، والاحذية الثقيلة، اعضاء القسم السياحي فكانوا لا يشبهون الاطباء في كثير. غنوا نشيد

المعهد، وفكروا في الطريق، وماذا ينتظرهم في المكان الذي ينتهي اليه طريقهم. وصاحوا على المودعين:

– هل تروننا جميعا؟ هل أنا في مدى البصر؟

قال ماكسيموف:

– مضحك. اننا نودع الكل، نحن المسافرين أبعد من الكل.

واندلقت على نهر فونتانكا نقاط ضوئية زيتية. وكان الضجيج يأتي من شارع نيفسكي تارة بهدير مستمر متنام، واخرى في تقطيعات متجزئة سخيفة. وبصق كاربوف في النهر وقال متنهداً:

– آه، انا اشفق على ساشا.

صاح ماكسيموف:

– اي، يا عجوز، كفَّ عن تأبينك! ما وجه العجب في ان يسافر رجل الى وظيفته! سيعود سريعا، ويزداد عقلا، هذا الشيطان الطويل القامة.

– ونحن؟

– ماذا بنا؟ الى وظيفتينا ايضا. ولكن الحظ قد ساعدنا. وهذا كل ما في الامر.

– هل انت واثق من اننا لم نجبن؟

– أوه، دع عنك المبالغات يا فلادكا.

كان كاربوف جادا. قال:

– هل تفهم... في الظاهر يبدو كل شيء على ما يرام، ضميرا ومنطقا. ولكنه يخيل اليّ أحيانا انني قد دخلت السينما ببطاقة لاغية. ان كل شيء عندنا يجري بشكل باهر لا يصدق.

قال ماكسيموف:

– انظر، ايةّ فتيات هن.

– أين؟ – انتفض فلادكا – أهوه! هذه والا فلا! لمعان! مرحبا يا آنسات. الى اين وجهتكن؟ ونحن الى هناك ايضا. تعال يا ماكس.

المزامير صمتت

اول يوم في العمل. اول يوم للنشاط العملي. اول يوم لحياة كسب الرزق. يوم حار اعتيادي من ايام آب. صمتت المزامير في الاعلى، وحتى الاشجار التعبة الكثيفة لم تصطفق اوراقا. وقد بدأ هذا اليوم بلقاء مع الرئيس.

كان ماكسيموف وكاربوف وبيوتر ستولبوف جالسين على اريكة. وكان المكتب بأثاثه المنجد بالمشمع

الاسود يضايقهم بعض الشيء. كان الرئيس ينظر من وراء مكتبه غير نظرته عندما جاء يوم التعيين. كان متشددا وجافا بعض الشيء.

قال:

– ستصادفكم صعوبات حتما. وانا اقول ذلك حتى لا توطنوا اذهانكم على حياة سهلة، وحتى لا تتذمروا فيما بعد وتفكروا بالاعتزال. نحن بحاجة الى كادر قوي عملي لا الى موظفين طارئين.

قطع الرئيس ورقة من دفتر للجيب وكتب شيئا:

– اعين لكم، مؤقتا، وظيفة في القسم الصحي الكرنتيني*. عندي هناك اخصائيون ذوو خبرة، وسيعرفونكم على المعدات الصحية في البواخر وعلى النظام الصحي. ماذا؟ تريد ان تشتغل بالجراحة؟ لا جمع بين عملين مطلقا! هذا لا يعجبني يا رفيق كاربوف. لا تقللوا من كفاءتكم كاطباء معالجين. وبوسعكم ان ترفعوها بانتظام في مستشفانا العيادي. ولكن الشيء الرئيسي في الطب البحري هو الو – قا – ية. واضح؟ حسنا. والآن اذهبوا الى قسم الملاكات، واملأوا

* الكرنتينه هو الحجر الصحي.

وثائق السفر. ارجوكم ان تكتبوا الاستمارات بوضوح: الأب وآلأم والخ.. والآن لا حاجة الى ذكر الجدات. وستعيشون في الميناء. في دائرة الكرانتينه. اذهبوا ايها الاصدقاء، وابدأوا العمل.

وانتهى يوم العمل بملء الاستمارات، وتواريخ الحياة، والشهادات ووثائق التقدير والحديث في قسم الحسابات، والتحدث بالتلفون، والتعارف، والمصافحات. وها هم ماكسيموف وكاربوف وبيوتر ستولبوف ذاهبون الى الميناء. والجو حار. ان الجو في اواسط اغسطس حار دائما.

الميناء

بالقرب من البوابة الرئيسية وصف لهم المحارب الحارس الطريق قائلا:

– سيروا، يا اولادي، الى الامام حتى تصلوا الى الثلاجة. فانعطفوا الى اليسار الى مرفأ ليسنايا حتى تصلوا الى رأس تشاستايا بيلا، ثم سيروا بمحاذاته حتى تبلغوا بيتا اصفر. انها «الكرنتينه». مسافة بعيدة؟ حوالي نيف وخمسة كيلومترات.

هتف ستولبوف:

- سفرة ممتعة لنا!.. هيّا.

قهقه المحارب العجوز:

- اذهبوا، يا اولادي، اذهبوا. تحركوا تحركا مناسبا، وستكون لكم شهية ممتازة، ولو لا يوجد ما يؤكل هناك.

- لا تتخابث يا بابا تسربر - ربّت ماكسيموف على كتفه - أور فوار!

- غود باي! - رد العجوز بشكل غير متوقع.

تبادل ماكسيموف وكاربوف النظرات. لقد بدت هذه الكلمة الاجنبية التي نطق بها الحارس ذو الشارب وكأنها اعلان بانهم في تلك اللحظة سيطأون منطقة من الارض مباحة لاصوات الاقطار البعيدة الخيالية، وأنهم يسيرون الآن في آخر ارصفة اليابسة الاسمنتية، يسيرون في ارض الميناء التي ترفرف عليها اعلام مختلف الأمم، وتتردد، عن جد، كلمات قرأوها في كتب للاطفال: «انزل الحبل! قلل السرعة! ارفعوا! انزلوا! كرامبا! دنر فيتير!»

مروا بأناس يرتدون سترا بحرية، وبدلات عمل وسترا مدنيـة. فهل بينهم أنـاس يلبسون احذيـة

الفروسية الطويلة العنق، ولهم خناجر، والمسدسات تحت حزامهم؟ لا. بل أنهم أناس عمل اعتياديون يمرون بابنية المخازن الرمادية، وفجأة تبرز من فوق السقوف صواري سفينة شرآعية وتبين ان مراسي البواخر تختفي وراء المخازن. وبعدها تتدلى السماء على قواعد ابراج الرافعات وعلى الصواري. وتزخر حياة الميناء اكثر فاكثر. هنا لا توجد انوار لتنظيم المرور. فانظر فيما حولك! وعلى بعد متر واحد منهم مرّ قطار على سكة حديد في قرقعة حادة. «هاي... افسحوا الطريق يا هذا وذاك!» وتدحرجت سيارات صغيرة محملة بذاتها آليًا رائحة غادية، وهرول رجال في ستر بحرية وسار عمال الشحن لا في عجالة، ولكن في تقحم كالقاطرات. ووجد ماكسيموف وكاربوف وستولبوف انفسهم في مركز اعمال الشحن. ومن وراء الثلاجة طلع جسم هائل ابيض وتعاظم جرمه.

— ما هذه الباخرة؟ — سأل ماكسيموف عامل شحن عابرا.

— باخرة! — وكشّر العامل — انها سفينة الديزل «البلطيق» الكهربائية ايها الشاب، سفينة بحرية تعمل بانتظام بين لينينغراد ولندن.

وتمر «البلطيق» بهم متلألئة بزجاجها الصقيل، مرسلة دخانا خفيفا من مدخنتها المخروطية، تدوي بصوت راديو غير واضح من بعد. وعلى سطحها وقف اجانب يرتدون نظارات سوداء ويلوحون بايديهم. لقد جاؤوا من لندن مباشرة، من لندن الضبابية.

لقد سمي رأس «تشاستايا بيلا» (منشار كثير الاسنان) بهذا الاسم لأنه مقطع في كل الجانبين بخزانات مياه الاطفاء المستقيمة بشكل هندسي. هنا رحابة وطراوة. وتسري في الهواء موجات من روائح لطيفة. تفوح رائحة خشب صنوبر من اكوام الالواح تارة، ورائحة العفونة من الرمل المغطى بطحلب البحر الاخضر تارة اخرى. وتنداح رقعة عريضة متغضنة داكنة الزرقة هي حوض «مالي برجيفي». وتضج طيور النورس في زعيق فوق الارماث.

في نهاية الرأس تقف بناية صفراء من ثلاثة طوابق وبرج. انها «الكرنتينه». وتستخدم هذه البناية في بعض الفترات كفندق للعائدين الى الوطن، وملاحي البواخر الواقفة في محطة التطهير، ولكن سكانها الدائمين في معظم اوقات السنة هم الحمام في غرفة السطح، والتيارات الهوائية والخشخشات في الطوابق الثلاثة

كلها. وتحتل خفارة الحجر الصحي غرف البرج الاربعة. وفي الليل تصبح البناية مهجورة موحشة تمر اضواء الميناء على نوافذها المظلمة، ويصوّت سقفها الهرم تحت ضربات الريح بشكل مفزع.

احتل ماكسيموف وكاربوف حجرة في طرف تطل نافذة هائلة من نوافذها على الغرب ونافذتان اخريان على الجنوب. ولا يفصل بين زجاج النافذة والاخرى غير حاجز ضيق. وكان في الامكان مراقبة عمل الرافعات على السد الغربي وعلى الحاجز الآجري وحركة البواخر في الميناء دون النزول من السرير. اما ستولبوف فقد اعلن باحتقار ان هذه ليست غرفة بل زجاجة بلا غطاء ايضا.

– هنا تسمع خطوات الريح. سأضحك حين اسمع عظامكما تطقطق.

قال كاربوف:

– نضحي بانفسنا يا بيوتر من اجل الحنين الطبيعي الى رحاب الماء.

واضاف ماكسيموف:

– اذا كنت يا ستولبوف مع الهيدروجين المكبرت فنحن مع الآزون.

لعن ستولبوف، وذهب يبحث له عن غرفة دافئة.
ان قليلا من الناس في المعهد فهموا هذا الفتى بيوتر ستولبـوف. كان مقتصدا يقرض النـاس الفلـوس، ويستردهـا بدقة في الموعد المتفق عليـه، ويكتب ملخصات لكل المحاضرات بشكل متقن، وكان يؤدي الامتحانات بصورة جيدة، ويتجشأ بعد الغداء بافتخار، ويشخر في نومه بشكل جارح، ويعاقر الخمرة بين الحين والآخر ويغازل البنات بغلظة.

وكان ماكسيموف يسأل في مثل هذه اللحظات:

ـ ما حاجتك الى جهاز عصبي اعلى يا ستولبوف؟ انت بحاجة الى مخالب اطول، وشعر اكثر، وتنطلق في الغابات مرتاحا دون ان تعاني من الحاجة الى تعليم عـال.

وكان ستولبوف يرد بتكاسل.

ذهب ماكسيموف الى المخزن ليجلب ابريق الشاي. كانت مأمورة المخزن جالسة الى طاولة. وكان كاربوف ينحني على اذنها في آغراء تمثيلي. هزّ كاربوف رأسه لماكسيموف بلا اهتمام.

ـ خذ معدات للغرفة يا ماكس.

وهكذا بدت «الزجاجة» مأهولة. منضدتان للكتابة مفروشتان بطبقة من الخشب المصقول وجهاز الراديو من نوع «نيفا» يضفي عليها طابعا مريحا، وبطانية فلادكا المترفة، ومصباح الطاولة يجعلانها وثيرة. ولوحة «الدببة في الغابة» تخلق في جو الحياة شعورا مهدئا بتغيرات قريبة.

وفي الليل كانت تدخل الغرفة رقع من النور. كان القمر والمصابيح الكشافة، وانوار الاشارات في البواخر، وومضات اللحام الكهربائي، والضوء الاحمر في اعلى المصنع تتقاطع اشعتها وتخلق اشكالا غامضة لليل الميناء. وكان هواء الميناء الارج يدخل من النافذة بدفقات كثيفة. وكانت الخلفية الصوتية لليل هي الطنين البعيد الموزون، والصفير المنقطع، وتكسر الامواج. وكان الكسي ماكسيموف في العادة يستلقي على ظهره وقتا طويلا متطلعا الى النجوم. انه الآن ينظر بسخرية تقريبا الى رعبه السابق امام هذا المنظر، حين كان رأسه يدوخ ويفقد شعوره بـ «انا». قد بدأ هذا منذ أمد بعيد، في الطفولة. آنذاك حين كان يستلقي على سطح البيت او على العشب، ووجهه الى النجوم يحس برجفة مفاجئة من الشعور بانه في

اللحظة التالية سيتحول الى ذرة، ويذوب في دنيا النجوم المذهلة، ويمحى من الوجود. في ذلك الحين عثر على مخرج من هذا ـ ان يهز رأسه، ويتذكر شيئا بسيطا (مسائل الحساب أو الولد الاحمر في البيت المجاور). وفطن بشكل غامض الى ان في هذا تكمن مروءة الانسان العالية. والآن؟ لم يراوده خوف الآن. والواضح ان ليس كل شيء سيجري على ما يرام. ولكنه تبسّم في الليل، وهو ينظر الى النجوم، وخيل اليه ان سريره يتمايل بوداعة، ويطير في ابعاد دافئة مبدعة للحياة.

صباحا. نهيق الزوارق البخارية المسماة بـ«القانورآت» التي تسحب الطمي الذي استخرجته الكراكات من القعر. وطنين المضخات الماصة وصريرها. نشيد رائع! قفز ماكسيموف وكاربوف من سريريهما. واخذا يمارسان الالعاب الرياضية. واهتزت ارضية الغرفة تحت قفزتهما. ودارت في الهواء دمبلات الحديد، والمكاوى. وصعد الصديقان الى مكان عملهما حليقين طازجين. وفي الحال ذهب كاربوف الى الشرفة مع منظاره المكبر.

وصاح على عاملة التلفون:

ـ من في المرفأ اليوم يا تمارا؟

— في المرفأ، الباخرة السويدية «هابارآندا» والبولندية «غليفتسا» وواحدة انجليزية اسمها صعب جدا، واثنتان من بواخرنا «بيلوستوك» والباخرة القاطرة «كاتيلشيك» مع الصندل «دفينا» — اجابت تمارا بسرعة الوقائع اليومية دون ان تفترض بالموسيقى التي تولدها هذه الكلمات في اسماع الشابين. ان كل شيء هنا يروق لكاربوف: المنظر العام للميناء، وطيور النورس تشق الهواء، والهواء ذاته الفواح باعشاب البحر والفحم، وخشب الصنوبر والحديد. لقد ترعرع فلادكا في حاضرة صيادين السمك على ساحل البحر. والآن يعتمل في جوانحه شعور منسي بسعادة عفوية. وماكسيموف أيضا يروق له العيش هنا. زورق بخاري يمرق خارقا لألاء شمسيا باهرا للابصار، وكأنه يسعى الى ان يتلاشى، شاقا طريقه عند اقدام البواخر الجبارة الآتية من البحار البعيدة التي سيبحران عليها!

العمل. تفقد البواخر، وفحص مطابخها، والمذكرات الصحية، وتحرير الوثائق — اجراء مضجر. ولكن مقابل ذلك ركوب الزورق البخاري مرة اخرى.

نساء يركضن نحو الرصيف. يركضن صامتات في خطوات متساوية، مثل جماعة من الجنود تتدرب. يركضن ليستقبلن الباخرة التي غابت عن الوطن نصف عام. والآن تقترب الباخرة من الميناء، والنساء واقفات على الرصيف، عمّات بدينات، وشابات انيقات، نساء متنوعات مرتبطات بنصيب واحد: كونهن زوجات لبحارة. والازواج على ظهر الباخرة يبتسمون بصمت وغرابة. يبدو انهم لا يصدقون أن تلك حقيقة، وأن هناك على بعد عشرين مترا تقريبا النساء اللواتي انجبن لهم اطفالا، واهدين لهم الحب. انها لحظات لا مناص منها من التحليل الغامض للمشاعر المتدفقة. ثم يبدأ الصياح والضحك، والهرولة على المعبر، والقبل.

في خمسة ايام افرغت حمولة الباخرة وحملت من جديد، وفي المساء ابحرت الى الهند. راقب ماكسيموف جرمها الداكن يتلاشى في الظلمة فتخيل النساء على الرصيف يحملن المناديل بالقرب من عيونهن الحزينة التي يغشيها خمار البارحة.

قال ماكسيموف لفلادكا:

– انه دواء ناجح ضد الاشباع. هكذا يجب ان يكون الزواج لتكون مشاعرك مشدودة كالوتر، ولكي

تحلم في اللقاء طوال نصف عام، ولكي تفكر بزوجتك وكأنها محبوبة جميلة.

قال كاربوف بصوت خافت:

— اما رأيي فان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يمكن ان ينفر من البحر. فلو كنت انا... لو كنت انا وهي... هل تظنني سأكون هنا؟

نظر ماكسيموف في عينيه بثبات وصمت. لقد ادرك مرة اخرى ان صورة فيرا ارتبطت في نفس فلادكا بالمفهوم العاطفي «للحب الحقيقي». وذلك شيء يثير الدهشة من فلادكا الخفيف الحركة المرح الوسيم والرياضي. الفتى يبدو مندفعا في حياته، مقهقها بهجة. وهو كذلك في واقع الامر. ربما كان الناس من قبل يسترخون من خداع في الحب، ولكن فلادكا بقي كسابق عهده، ينمي عضلاته ويلبس اربطة عنق زاهية، ويقبل الفتيات. وقل من كان يعامله عن جد، وقل من كان يعرف ولعه بفيرا وبالجراحة. وقد حلم فلادكا منذ زمن بعيد في الجراحة الكبيرة، وبالعمل في مستوصف تذيع شهرته في العالم كله. وقد انتهى كل ذلك بفشل ذريع. واضاع كل شيء دفعة واحدة.

هزّ ماكسيموف رأسه. لم يطب له أن يتذكر التفاصيل، لأن فلادكا صديقه. لا بأس. ما كان فات. والآن يبدو أن الرحلات البحرية ستعوض عن الجراحة. ولكن فيرا... ان الزمن سيشفيه منها. ان الزمن يأسو كل شيء. افهمت يا ماكسيموف؟

وقفا قرب نافذة في ممشى «الكرنتينه». ولم يكن طيبا بعض الشيء الشعور بان وراء ظهريهما فراغ دار كبيرة. وفجأة تردد وقع اقدام على الدرج، وظهر في الممشى رجل ربع القامة يرتدي ممطارا ازرق، وطاقية بحرية، ويحمل حقيبة.

قال:

– هالوا! أين المقصورة الفارغة هنا يا اولاد؟

اجاب كاربوف بأدب:

– كل الباخرة تحت تصرفك.

واقترب الرجل.

– لنتعارف. فينيامين كابلكين. الهولندي الطائر.

وفاحت الفودكا منه بشكل صارخ. كان الرجل مستدير الوجه، متين البنيان. ابتسم في دعابة، وكان جذابا بشكل خاص. ذهب مع الشابين الى «الزجاجة» واخرج من الحقيبة كونياكا فرنسيا من ماركة

«مارتيل» وصبه في القدحين الوحيدين لهما، وفي طاسة الحلاقة. وقال:

– نخب صحتنا التي تتمناها ماماتنا.

مشروب رقيق معد للتلذذ والتلمظ. شربه جرعات طويلة على الطريقة الروسية، وتمزز بـ«قطعة قماش» يعني تشمم ردن معطفه. ثم انطلق يبربر. وتعنى ماكسيموف وكاربوف في التقاط كل كلمة من كلماته. كان كابلكين يعظ، ويشاطرهما حكمته الدنيوية، ثم تحدث عن النساء والبواخر، والمشروبات الكحولية، والابسطة، وقطع القماش، وعن هامبورغ ولندن وبومباي وشتم بالفاظ نابية مساعد الربان الأول من الباخرة التي ابحر عليها في آخر مرة.

– انه رجل معتم، ايها الصبيان، معتم مثل سروال رجل المطافئ. لم يكن قادرا على فهم تحليق روحي العالي.

واستأنس ماكسيموف وكاربوف بكابلكين. وطاب لهما أن يكون جارهما هذا الفتى الحُلو المعاشرة الطبيب البحار الذي أخرج من الباخرة لانه أخذ يرتقي الى معارج غير مسموح بها اثناء «تحليقات الروح» التي اصبحت تحدث غالبا.

كان آب يقرب من نهايته. ولكن الشمس ظلت تستوي على الخليج الفنلندي من بحر البلطيق دون منازع. الا ان النسيم كان يهب في كل يوم ليلا كان يومى ً الى ان جحافل الخريف الامامية تتقدم في اعقابه. وكتب ماكسيموف رسالة الى زيلينين يقول فيها:

«... احيانا اهب من نومي وفي نفسي شعور بأن دفقة هائلة من الطاقة تمر بي. وارفع نفسي على مرفقي، وأرى باخرة محملة كثيرا تمر في الظلام تحت نوافذنا تماما. وعليها ضوآن او ثلاثة، وفوق سطحها يتمشى شبح. وتستدير الباخرة من مؤخرتها، ويشعل شخص عود ثقاب، ويلقي آخر عقب سيكارة في الماء. وداعا، ايتها الارض، الى لقاء جديد! انني سأظل اعتبرك احمق يا عزيزي ساشا دائما. لماذا لا تكتب لنا عن مآثرك في الريف؟ هل انت مشغول في بذر ما هو معقول وطيب وخالد؟ فابذر يا عزيزي، وازرع بطريقة الزراعة المكثفة! حقا، يا للشيطان، اكتب لنا. اننا نفتقدك».

الفصل الثالث

ساشا زيلينين وهنري الرابع

خرجت سيارة «الموسكفيتش» التابعة لدائرة الصحة الى الطريق، ولمعت اضواؤها الحمراء عدة مرات، وكأنها ترسل اشارآت الوداع، وزادت من سرعتها، وفي الحال اختفت في المنعطف. اغلب الظن ان جو الغابة كان معتما جدا، حتى اضاء السائق المصباحين، وطافت سحابة الضوء المضببة على اشجار الشوح. ثم اختفت هي ايضا. نظر زيلينين بعض الوقت الى الطريق. كان يمتد في الغسق الكثيف، ويبدو مستويا ومريحا. ولكن زيلينين قد جرّب نوعيته، والآن فكر في أسى أن هذا الدرب الوعر في الشتاء سيصبح الشريان الوحيد الذي يربط كروغلوغوريه بالعالم الخارجي، وبمحطة سكة الحديد، وبمركز الناحية، وبلينينغراد. فيا له من طريق بديع — في الشتاء يكتسي ثلجا، وفي الربيع يفيض ماء، وفي الصيف فقط يمكن ان تهشم ضلوعك بنجاح.

كانت الانوار الكهربائية على سطح البحيرة تشيع حياة في الظلمة: أضواء شاحبة على الصنادل، ومصابيح كشافة على القاطرات، ومصابيح الاشارات لمراكب صيد الاسماك. وكانت السفن تسرع في الخروج من البحيرة الى القناة في الشمال. وكانت بيوت كروغلوغوريه الصغيرة الداكنة بالنسبة لها ليست الا منظرا عابرا، وصورة وامضـة لشريط سينمـائي على طريق من لينينغراد الى البحر الابيض. نزل زيلينين من المدخل، وعبر فناء المستشفى الى الجناح الذي اتخذه الطبيب مسكنا له. كانت الشقة كبيرة بشكل مفرط وفارغة. سكنها اعواما طويلة قبل الثورة طبيب ريفي كان له عدد كبير من الاولاد والعيال. وكان هذا الطبيب، كما علم زيلينين، على اتصال دائم بالمنظمات الثورية في بطرسبورغ، وقد قتله البيض رميا بالرصاص في الحرب الاهلية سوية مع اعضـاء السوفييت الريفي الآخرين. وفي العامين الأخيرين فرغت الحجرات. وقبيل وصول زيلينين حاول بعض الناس اعطاءها طابع بيت مأهول فعلق على نوافذ غرفة الطعام ستائر بيضاء قطنية. وكان هذا مؤثرا.

نظر زيلينين الى الالواح البلوطية في اسفل حيطان

غرفة الطعام وحاول ان يتصور اصحاب الشقة السالفين. أغلب الظن انهم كانوا يجتمعون حول تلك المنضدة الضخمة لاحتساء الشاي، ويقرؤون قصص كورولنكو بصوت مسموع، ويتجادلون حول مستقبل روسيا. وكان يجيء من بطرسبورغ متآمرون متحمسون ذوو لحى، وينقلون المنشورات من عنق حذاء الى آخر. وتنهد زيلينين، وفتح حقيبته، والقى على الطاولة سجقا مقددا اشبه بالهراوة، ورغيف خبز وسكينا وهو يحس بانه ينتهك حرمة شيء مقدس. وأكل وهو ينظر الى الجدار امامه، ولكنه كان يعرف ان وراء ظهره بابا يؤدي الى غرفة واسعة كهذه، هناك باب آخر، وغرفة أخرى ايضا فارغة كالغرفتين السابقتين. انه لم يفكر قط انه سيكون غير مرتاح من رحابة المسكن الزائدة. ماذا سيفعل هنا وهو وحيد؟ ليس من أمل في ان تزداد عائلته: اينا في موسكو. ما من شك في انها لن تأتي الى هنا. من موسكو الى هنا؟ من موسكو التي يكثر فيها الشبان الممتعون، والفنانون، والرسامون، والشعراء، من موسكو التي سيعقد فيها الصيف القادم مهرجان عالمي؟ لا، ايها الاخ زيلينين، ابحث لنفسك عن جميلة من الشمال.

اليوم حين نزل من السيارة التابعة لدائرة الصحة خرجت الى مدخل المستشفى فتاة شابة جدا ذات شعر عجيب كتاني. انها الممرضة داشا غوريانوفا.

فكر زيلينين الميال الى المقارنة: «انها تشبه ليوبافا. كانت مثل هؤلاء النساء يموّنّ، في القديم، الزوارق الطويلة لاهالي نوفغورود، وينسجن الكتان، ويغنين الاغاني الحزينة، وفي الشدة، يحملن على الابراج الحجارة والقطران الفائر».

وفي المساء حين فرغت داشا من خفارتها، وخلعت مريولها الابيض لاحظ زيلينين على صدرها زهرة من المشمع الاسود من تلك الزهور التي كانت موضة في لينينغراد قبل عدة سنوات.

«في بعض الاحيان تتخذ الحضارة اشكالا بغيضة» — فكر زيلينين الآن، ولكنه ابتسم، وجمع فتات الخبز من المائدة، ونهض، ومشى على الارضية الصارة، ونظر من الشباك. لا بد يا للشيطان، من ان يلوح شيء ما! وعمد الى مفتاح النور فاداره. والآن برز الشباك من الظلمة كمربع رمادي. ثم سمع ساشا هسهسة خافتة وراءه، وجفل وصاح بصوت متحد:

كان ملك اسمه هنري الرابع...

كان ذلك طيبا دائما في الليل وهو في شقته في لينينغراد: كان يسمع صرير قلم أبيه من خلال الجدار، وعلى الارض ترتمي انوار الشارع. اما هنا.. لماذا تتراكم الظلمة هناك في تلك الزاوية على هذا النحو المريب؟ هل خرج احد من تلك الحجرة؟ شخص لا يشبه الجميع مطلقا. ها - ها! يا فارس، يبدو انك أخذت تخاف من الظلمة. ها؟

ضمّ زيلينين جمعي يديه، وانشد بصوت أعلى:

كان يحب النساء ايضا
محرزا عندهن نجاحات
متوجا بانتصارات
وكان اسعد الناس طراه
لاي لاي لاي... بم - بم
لاي لاي لاي... بم - بم...

بم! بم!.. تردد صدى الترنيمة تحت السقف. والمرء حين يتذكر النساء ينقشع عنده الخوف في الحال من كل الاشياء!

لم يفتح الضوء حتى فرغ من الاغنية كلها عن ملك فرنسا المرح، ثم ذهب آلى غرفة آلنوم وهو يقرع الارض بكعبيه قرعاً عاليا.

استلقى ساشا في الظلمة وقتا طويلاً مفتوح العينين، وبدا له انه يفكر بشيء تفكيرا مركزا. فباي شيء؟ لقد تتابعت امام عينيه، في واقع الامر، صور اليومين الماضيين بشكل متقطع جدا. الرصيف النهري، وسيارة دائرة الصحة «الموسكفيتش» على القاعدة المرتفعة، والانوار على الشاطىء، وهو نفسه واقفا وحده على ظهر الباخرة الطويل، والأم والأب في «جلد» يمزق القلب. والاصدقاء – يغنون يا للشيطان! – وداشا. وآينا تبتسم وتعدل شعرها. وداشا تبتسم، وتعدل الزهرة السوداء على صدرها. وماكسيموف واقف على الحاجز احمر كهندي احمر يفيض في الكلام عن بلاد مجهولة وهو لا يرى فيما حوله تلك البلاد. اما هو، زيلينين؟ فقد جاء الى هنا. رغم انه كان بوسعه... لا، لن يصبح «ايونتش» أبدا. واجب وطني... أهذا مضحك؟.. هل ستضحكين انت ايضا يا اينا؟ يا للفتيات الرائعات يسرن في الارض! وداشا لا بأس بها ايضا. ليوبافا.

كتان. زوارق طويلة، زهور. سحقا للزهور السوداء!
الشبابيك تبدو سوداء. سحقا لها. «غدا سأبدأ بتواريخ
المرض!» - فكر بذلك في وضوح. وغفا.

أول مريض

عزم زيلينين ان يحتفظ بعاداته كرجل من المدينة
في الصباح فتح جميع النوافذ، وشرع يؤدي تمارين
الصباح. وبينما كان «يقفز على البقعة» تردد فجأة
وقع خطوات سريعة خفيفة وفتح البـاب، وظهرت
داشا على العتبة.
- أوي! - صرخت الفتاة حين رأت الطبيب جامدا
في وضعية سخيفة.
مرت ثانية وأحدهما ينظر الى الآخر في بحلقة. ثم
اخذ زيلينين يقوم بحركات مضطربة حمقاء. وركضت
داشا لتختفي وراء الباب. وشعر ساشا بخجل حزين
بعد ان رأى نفسه في عيني داشا واقفا وقفة الغرنوق
نحيفا طويل القامة في نظارة وبنطلون طويل ليس
للرياضة. فما اتعس الحظ! اليوم لم يرتد سروالا
ازرق للعبة الكرة الطائرة. وصاح وهو يحاول ان
يوقف الرجفة في ركبتيه:

– ما الخبر؟

– جاؤوا بمريض يا دكتور – تردد الجواب الخافت من خلف الباب.

– سآتي في الحال.

كان يلبس بنطلونه على عجل، وينظر من النافذة. كانت داشا تركض في الفناء وقد وضعت كفها على فمها لتكبح ضحكة.

كان المريض، او بالاحرى الجريح، مستلقيا في غرفة الانتظار. كان وجهه الابيض مثل قطعة من الورق مغطى بقطرات العرق. وكانت كفه المعقدة الثقيلة تتدلى على الارض. جس زيلينين النبض. كان ضعيفا جداً! ورفع جفنه: الحدقتان تتأثران من الضوء بشكل ضعيف، ورفع قامته، وهناك فقط لاحظ ضمادة كبيرة مشبعة بالدم على فخذه اليمنى. انها صدمة.

– ما الذي حدث له؟

– اصطدم بمنشار كهربائي. انه يدعى بيتيا ايشانين من مصنع الخشب.

– كافور وكافائين! ثم هيئي جهاز نقل الدم. وسنبدأ الآن بمعالجة الجرح.

وحين غسل زيلينين يديه، ودخل غرفة العمليات كانت الضمادة قد نزعت من ساق المصاب. وكان على الفخذ جرح بليغ ينزف دما. وفي احد اطرافه يتدلى جلد اشعث قطعه المنشار قطعا دقيقا. ناولت داشا الحقنة للطبيب وهي مزمومة الشفتين مركزة الانتباه. فسأل زيلينين همسا:

– هل تستطيعين ان تحددي المجموعة التي ينتمي اليها دم المريض؟

أجابت بهمس ايضا:

– نعم، لقد علمونا ذلك.

– حلليه وأريني وسأحاول الآن وقف النزيف.

حقن زيلينين الجرح بالنوفوكائين بعجلة، وأخذ يسده بالمشابك. وتابع من طرف عينيه حركات الممرضة الدقيقة. وتبين أن الدم من المجموعة الثالثة. قرّبت داشا جهاز نقل الدم من الطاولة، وقدمت الابرة لزيلينين. فغرزها في الوريد، ونظر الى وجه المريض. كانت عيناه مفتوحتين تحدقان في السقف.

– كيف الحال أيها الاخ؟ – سأل زيلينين بلهجة الطبيب الحية.

– على ما يرام – اجاب الشاب بصوت خافت.

بدأ زيلينين يقطع بالمبضع حوافي الجرح وقد هدأ تماما. في الواقع انه لم يضطرب، اذ لم تكن له ثانية واحدة ليضطرب فيها. ولكنه الآن حين افاق المريض من الصدمة، وسارت معالجة الجرح بنجاح خامره شعور وكأنه آلة تناقص عدد دوراتها. بل واخذ يصفر نغمة ما في نفسه، وخاط آخر خيط في شجاعة متباهيا امام داشا بعض الشيء، وانتصب وتنفس نفسا عميقا. الآن فقط ادرك انه عمل في دقة آلية تقريبا، دون ان يشك ثانية واحدة بمقدرته. ان المعهد على اية حال غرز فيهم مهارات الطبيب وسلائقه.

قال زيلينين للممرضة:

— سأعود بعد عشرين دقيقة.

خرج الى مدخل المستشفى يملأ نفسه شعور الفرح، وأرتجف وكأن ذلك بفعل تيار كهربائي. الحقنة المضادة بالكزاز! كان يجب ان يحقن بها المريض في الوهلة الأولى! كم من مرة كرروها عليهم واعادوا في محاضرات معالجة الجروح. واندفع عائدا وفتح باب حجرة الخفارة، وحدق في عيني داشا الهادئتين.

— هل... هل... هل قلت لك أن تحقنيه ضد

الكزاز؟ ـ قال النصف الأول من هذه الجملة في وهن، ونهايتها في صرامة. وفي الحال شعر باشمئزاز من نفسه: «ايها الوغد، أتريد ان تلقي اللوم على هذه الفتاة؟» كان يفتح فمه بقول...

قالت داشا:

ـ نعم، يا الكسندر دميتريفتش، لقد حقنته، وكتبت رقم الحقنة.

اتكأ زيلينين على قائمة كتف الباب. وابتسم أحدهما للآخر ابتسامة ذات معنى، وفهم انها لن تقول لاحد باية هيئة مضحكة وجدته في صباح اليوم. وعلى العموم يمكن الاعتماد عليها.

بدأ زيلينين يضطرب عند دورته على المرضى. فقد كانت هناك عدة امراض معقدة للغاية. ليس من الممكن التشخيص دون التحليلات المختبرية. ولكن المختبر لا يعمل لانه يفتقر الى عامل مختبر. يعني ينبغي ان يتقن بنفسه فن المختبر، ولكنه نسي حتى كيف يعد الخلايا البيضاء. فكم يجب ان يقرأ! ومع من يتبادل الرأي؟ مع مساعد الطبيب؟ لا، بالطبع!

وتملك الرعب زيلينين. كيف سيعالج هؤلاء الناس؟ وفي محاولة لكبت قلقه اخذ يلجأ الى الحصار

بالنوفوكائين. وكان هادئا دائما عند العمل بحقنة او بمبضع. فتحت يده شيء يمكن أن يمسك به، ويمكن معرفة النتائج حالا. ولكن العلاج بلا تحاليل... لقد قال البروفيسور غوتشين للطلاب في السنة الثالثة:
«Chirurgia est obscura, terapia–obscurissima »*.

آنذاك ادهشتهم كلمات هذا الطبيب الكبير السن الساخر قليلا. لقد كانوا مزودين باجهزة التوموغرافيا والالكتروكارديوغرافيا، واجهزة فحص التحول الاساسي واعقد واحدث الاجهزة. وقد بدا لهم ان مجرد اتقان هذه الاجهزة الباهرة سيكون كافيا لان تتكشف كل الاسرار. ولكن زيلينين الآن يشعر وكأنه ملاح قديم مرّ من توه باعمدة هرقلية، وتماوج امامه محيط مجهول بلا ساحل. وكان عليه ان يعبره. هنا، في كروغلوغوريه، بدا وكأنه قد انتقل الى الماضي، وعاد بضع عشرات من السنين الى وراء.

ان مساعد الطبيب ماكار ايفانوفتش كان يدبّر اموره بسلام اكثر من ثلاثة اعوام دون ان يكون له جهاز اشعة آكس، ومختبر. وكان المرضى يتوافدون

* الجراحة غامضة والعلاج بالادوية اغمض.

عليه من بعثات الغابات البعيدة، ومن مصنع الاخشاب، ومن القرى، ويجيء بحارة من بواخر عابرة. وكان يطبب ماكار ايفانوفتش بلا خوف او ارتياب. واشتهر في دائرة الصحة للناحية بجرأته في التشخيص. اما زيلينين فكان بين الحين والآخر يصادف مثل هذه الجواهر وهو يتصفح تواريخ المرض: «رجة عامة في الجسم نتيجة لوقوعه من عربة».

... في نهاية الاسبوع عقد زيلينين اجتماعا عاما لمستخدمي المستشفى. وحضر الجميع: خمس ممرضات، ومساعد الطبيب، وعاملات للتنظيف، والمحاسب، والمسؤول عن اموال المستشفى، وسائق العربة فيليمون. كل هؤلاء الناس المرتبطين بروابط قرابة وصداقة نظروا بسخرية مقنّعة، وفضول وارتياب الى الشاب الغريب النحيف القلق الذي اصبح الآن رئيسهم. وكان المستخدمون قد تعودوا على السكون والهدوء خلال السنتين اللتين اعقبتا موت كلافديا نيكيتشنا آخر طبيبة عملت في كروغلوغوريه عدة سنين. وكان المرضى قليلين لان جميع الحالات الخطيرة بعض الشيء ترسل الى مركز الناحية على بعد اربعين

كيلومترا. ولكي ينجز ماكار ايفانوفتش الخطة المعينة كان يدخل الى المستشفى عجائز يعرفهن، ويتمرن عليهن في تشخيصه. وحين عادت داشا غوريانوفا وزينا بيتوخوفا من دوراتهما للممرضات في الربيع ارسلتا رسالة الى دائرة الصحة للناحية قالتا فيها: «اما ان تعطونا طبيبا، او تغلقوا المستشفى. اما العمل على هذا النحو فانه لا يرضي الضمير».

وقد عرف زيلينين بأمور المستشفى من القصص التي سمعها في دائرة الصحة للناحية، وعرف ان اعتماده يجب ان ينصب على الممرضات الاعضاء في الكومسومول فقط، وأن سائر المستخدمين «تبن!» ومع ذلك فالآن حين كان جالسا وراء مكتبه بعد اسبوع من وصوله، ينظر الى المتجمعين في الحجرة المزدحمة فكر بأن كل ذلك يمكن أن يكون غير صحيح تماما. وفكر بأن ذلك العجوز ماكار ايفانوفتش كان بحاجة فقط الى تحريك خفيف، ومسّ العصب الحيّ من نفسه، وأن وجه سائق العربة فيليمون المحمرّ المحمص من السكر يصير رقيقا ومستغرقا حين يحك كفل حصان المستشفى بالمحكة، وان عظمة المحاسب المزهوة المريبة مبعثها خوفه من انهم لا يعترفون به كشخص

مثقف، وأن وجوه الفتيات صبوحة لطيفة، وان وجه داشا جميل للغاية ... لا، لا يجوز التفكير بهذا في اجتماع عام. نقر بقلم الحبر على المكتب وقال بصوت كثيف بشكل غير منتظر:

– هدوء ايها الرفاق! وفكر: «ر... ر... رئيس» وتصور ماذا كان صديقاه يعلقان على هذا المنظر لو انهما رأياه. اصبح مزاجه مرحا تماما. – ايها الرفاق! ان مستشفانا هو اكبر مؤسسة علاجية في جميع انحاء حاضرة كروغلوغوريه. حاضرة كروغلوغوريه والمرفأ، ومصنع الاخشاب، وخمسة كولخوزات، وبعثات الغابة. كل ذلك واقع في منطقة عملنا. وبالاضافة الى ذلك ستبدأ، كما نما الي، اعمال تكنيكية مائية كبيرة على بعد ستة كيلومترات منا، في رأس ستكلياني ونحن مكلفون بأن نقدم الخدمة لموقع البناء هذا حتى يبنى مستشفى هناك، ويأتي الاطباء. وهكذا فان المهام الموضوعة امامنا كبيرة كما ترون، ونحن باعتبارنا المؤسسة العلاجية الوحيدة التي تضم خمسة وعشرين سريرا يجب ان نكون اهلا لهذا. وفي اللحظة الراهنة لسنا اهلا ايها الرفاق («ما اسرع ما يتعلم المرء هذه الكلمات!») واكثر من ذلك فانا لا اقصد

الاساءة الى احد حين أقول اننا نجعل من انفسنا معرضا لا يصدق للقرن الماضي («على رسلك، يا سير، على رسلك!») في قرننا قرن التلفزيون والكترونيك نحن نعمل في الظلام دون مختبر، دون اشعة اكس. ومع ذلك فعندنا جهاز لاشعة اكس، ومعدات مختبرية. وقد فحصتها فاذا كلها محطمة وقذرة. فما سبب ذلك؟ لا يوجد من يشتغل بذلك؟ لا، ايها الرفاق، السبب هو في عدم المبالاة والتواني. مثلا انت يا ماكار ايفانوفتش...

ارتعش ماكار ايفانوفتش قليلا، وحرّك اصابعه المرتمية على كرشه. قبل نصف ساعة كان قد تناول غداءه، والآن يحس باقدام صغيرة تركض في رأسه هي بشائر نوم رقيق. ان ملاحظات الطبيب الشاب المضطربة تطايرت في أزيز مثل الالعاب النارية المنطلقة من مسافة بعيدة. وبهت كل شيء امام بصره الجامد.

وفكر زيلينين: «هف! لم اكن موفقا. والعجوز قد يتكدر». ولكن اوان التراجع قد فات.

— اخبرنا يا ماكار ايفانوفتش، كيف تعالج، وماذا تصف للمرضى عند عيادتك؟

— كيف ماذا؟

— نعم، ماذا على سبيل المثال؟

— يتوقف على رد الفعل للجسم — اجاب ماكار ايفانوفتش وانتفخ عظمة كالعادة — أعطي لصداع الرأس بيريميدون، ولوجع المعدة بيسالول...

— وكثيرا ما يصف ماكار ايفانوفتش حقنة ايضا، — قالت داشا وابتسمت في خبث.

صاح زيلينين:

— يا ماكار ايفانوفتش. هذا غير مسموح به. فمثل هذه الطريقة في العلاج لم تستخدم حتى في عهد تشيخوف على ما اظن. «لصداع الرأس، لوجع المعدة...» هل تصفحت هذا الكتاب في المدة الاخيرة؟

ومدّ اليه مجلدا ضخما بعنوان «المرجع لمساعدي الاطباء في الريف». كان كتابا رائعا لبروفيسور شهير قديم وانساني عظيم. وكانوا قد نصحوا زيلينين في لينينغراد بالحاح بان يكون تحت متناول يده دائما كمرجع تطبيقي لا يستغنى عنه، وفي نفس الوقت كدواء ضد تطبيب «انصاف الاطباء».

ونظف ماكار ايفانوفتش نظارته، ووضع الكتاب على بعد ذراع مبسوطة، وقرأ عنوانه.

– ايها الشاب – قال بعد هذا بصوت مرتجف – لقد عملت هنا ثلاثين سنة. انا... انا – ونهض وأخذ يخلع مريوله في ارتباك – انا كنت في الجبهة. تعرف... يجب ان تخجل من نفسك...»

وخرج من الغرفة مقدّماً كتفه وهو ضخم ثقيل الحركة. وبعد دقيقة شعر زيلينين بشفقة حادة موجعة حين رأى من النافذة وتابع ببصره قامته المضحكة الشبيهة بالبرميل في بدلة نصف عسكرية وساقيه النحيلتين في حذاء طويل من الجلد الرقيق.

وادار زيلينين بصره في الحاضرين بتهيب غير قادر على ان يعرف موقفهم مما حدث. كانت داشا وحدها تبدو مرحة مشجعة. ففكر زيلينين بأنها غير شفيقة. ثم ادرك في الحال أن هذه الفكرة قد جاءت من اعتبارات الحيطة، – فان الفتاة جذابة للغاية. لها عينان لامعتان للغاية، وخط الجيد المنسق للغاية. والتفت وطافت امام عينيه صورة اينا الجميلة ولكنها بدت وكأنها مرسومة بقلم رصاص بعجالة. ماذا يقول الآن؟ كان يحس بالشفقة على ماكار

ايفانوفتش، ويود ان يبرر فعلته امام الحاضرين، ولكنه خاف من «الاساءة لسمعته». فتابع كلامه، وكأن شيئا لم يحدث:

– وهكذا ايها الرفاق، يجب ان نحسن العمل بأيدينا نحن، وعلينا ان نبدأ من حجرة اشعة اكس والمختبر. حقا نحن مجبرون على ان نستدعي ميكانيكيا من مركز الناحية لتصليح الجهاز. هل في مقدورنا ان ندفع ثمن الاتعاب يا غريغوري سافيليفتش؟

– سنجد المال.

– ثم نبعث احدى الممرضات الى دورة لتشغيل جهاز اشعة اكس (وفكر هو: فقط ان لا تكون داشا). وسنقوم بأخذ صور الاشعة ايها الرفاق. اما في المختبر فسأشتغل انا مع داريا ايفانوفنا. هل توافقين يا داريا ايفانوفنا؟

«الدكتور زيلينين!»

في اليوم التالي، عند الغداء، جلس زيلينين في المشرب، وراح ينظر الى منبسط البحيرة اللانهائي. كان الجو ريّحا كئيبا، وكان الافق يمتد متماوجا

اشعث رماديا داكنا. وكانت طيور النورس تختفي مرتعبة على الساحل وراء القوارب المقلوبة.

وفكر ساشا: «عاصفة بحرية حقيقية». وفي غضون ذلك تخللت المنظر المكشوف من النافذة دفقات خفيفة مائلة من المطر، اقبلت بسرعة ودون ضوضاء.

وصاحت نادلة المشرب:

– الكسندر دميتريفتش، لقد بدأ المطر ينزل. اجلس نصف ساعة. ربما ينقطع.

وحملت الى طاولته قدح بيرة متوجا بطبقة سميكة من الزبد الطافح مثل شعر مستعار.

– هل انت مستوحش معنا يا الكسندر دميتريفتش؟ بعد لينينغراد؟ لو كنت في مكانك لمرضت، ربما.

– ليس عندي الوقت لاستوحش يا عمة ليوبا، فالعمل كثير.

– ولماذا انت حزين اذن ووجهك ناحل؟

رفع بصره عن قدح البيرة، واجال بصره في هيكل النادلة المدور.

– نفسي غير مرتاحة يا عمة ليوبا.

– غير مرتاحة؟ ان دم الشباب يجري في شرايينك. انه احسن من الضجر.

كان زيلينين لا يتناول غداءه في المشرب فقط بل ويتردد عليه كل مساء تقريبا. وكان يفسر ذلك لنفسه بـ«الرغبة في التعرف على الاشياء». ولكنه كان يدرك ان شيئا آخر يجذبه الى المشرب في الامسيات. ان تلك الدار الصغيرة التي لم تكن لتتميز بشيء تقريبا عن بقية الدور في كروغلوغوريه كانت تبقى مضاءة حتى منتصف الليل. كان دخان السكائر يتصاعد ويتلوى. وكان الباب يصفق بلا انقطاع، وترتفع الاصوات، وتتعالى الضحكات القوية، ويصرخ الاكورديون. وهناك كانت تجري الاحاديث الرصينة، وتنطلق النكات، ويحدث الشجار. ولكن الشيء الرئيسي هو ان السواقين، وهم اناس مرحون كانوا يجتمعون هنا. بالامس كانوا في مدينة بتروزافودسك، وغدا يذهبون الى فولوغدا وارخنغلسك، ولينينغراد، وبيلومورسك. وكان زيلينين يطيل المكوث قرب السيارات الملطخة بالطين، ويدخل المشرب، ويجلس على مقربة من السواقين، ويستمع بشغف الى قصصهم عن المدن وكأنه يريد ان يوقن بان هناك، بالاضافة

الى كروغلوغوريه، مدنا أخرى ماهولة في العالم. ولكنه لم يستطع ان يعترف لنفسه بـــان المطعم الرخيص الصاخب اصبح نافذته على العالم.

«تدحرجت قطرات المطر الرمادية على زجاج النوافذ، مدلهمة السخنة...» والبيرة غير سائغة الطعم، مائية، أمن الممكن أن تخلطها العمة ليوبا بالماء؟ لا. لا ريب في انهم المزودون حتما. اليوم لم يخرج ماكار ايفانوفتش الى العمل. قال فيليمون ان العجوز مستلق على صندوق، والفوطة على جبينه غارقا في صمت. فاي خنزير أنا. يجب ان اذهب اليه واحاول التحدث حديث القلب للقلب. لا. يجب ان أكون حازما. وهل هذا مهم اذا كان عجوزا؟ لئن تعمل فاعمل بضمير حي. آه، ما اصلب قناتك ايها الفارس. تطلب من الآخرين صفاء البلور، وانت نفسك تولول في الليل كمن لا ارادة له. او خذ موقفك من اينا مثلا. لماذا لا اتلفن لها حتى الآن في موسكو؟ وجل ام ماذا؟ لعلها ترد عليّ بغتة: «ساشا؟ أرجو المعذرة. اي ساشا هذا؟ ها!.. سا ـ شا!» موسكو، موسكو! كروغلوغوريه تتكلم. مضحك!.. ترى هل سأظل هنا طويلا؟ يبدو ان هذا اكثر ارعابا مما تصورت. مهما ملأت يومك، ومهما

انشغلت لا بد من أن تأتي ساعة تبقى فيها وحيدا تماما. وانت والعيون السود - النوافذ فقط. غدا وبعد غد وبعد بعد غد... حقا لو لم تحصل لعبة الكرة الطائرة تلك مع فريق «ابوفتشيك» ولو لم يكن ذلك المساء، وذلك الرقص لكنت الآن اقل حنينا، ولاستغرقت امسياتي داشا وافكاري الفياضة عنهـا. أمن المعقول انني آسف للقائي باينا؟ ان ذلك لشيء مقيت حقا».

وشعر، والذعر يتقمصه، بانه غير قادر على ان يتذكر وجه اينا. وأن صورة الفتاة التي ومضت مثل طائرة طارت على حدود حياته الماضية اصبحت الآن باهتة وبعيدة، مثل صورة شخصية من كتاب محبوب قرأه مرء منذ زمن بعيد. ولا يقدر زيلينين على ان يتذكر وجوه اصدقائه. رقصة «الكامباراسيتا»... ترام - با - با - با... ما ان دندن ببضعة سطور من رقصة التانغو الغريبة حتى تراءت في ذاكرته بوضوح تانك العينـان الزرقاوان كالغسق الربيعي والشفتـان المفتوحتان قليلا وكانهما مهيئتان للثم، وذلك الشعر الاشقر الاشعث قليلا. ولكن كيف الاحتفاظ بصورة تومض في المخيلة؟ انه لا يملك حتى صورتهـا

الفوتوغرافية. اما داشا فهي آلى جانبه كل يوم، وهو يحس الانجذاب اليها، ويشعر بانها هي ايضا منجذبة نحوه. فهل يتسلى بشبح الفتاة التي قد نسته بالتأكيد؟ ما الذي يعيقه عن الانغمار بموجة التعاطف هذه؟ انه من الصعب عليه أن يحدق وحيدا في عيون الليل العمياء!..

وزفر زيلينين، ونظر في ساعته، ما زال هناك اربعون دقيقة. ولم يرد الخروج في المطر. وقرر ان يكتب رسالة الى ماكسيموف.

كانت العاصفة تهب على البحيرة بأوج احتدامها. ولكن كانت لا تصل الى هنا، في الحاضرة، الا اشد وأقوى عصفات الريح من وراء رأس ستكليياني. وبين فترات متساوية كانت الصفيحة الحديدية المنفصلة عن سقف المشرب تصطك في وحشة. ومن النافذة كان لا يرى اي شيء تقريبا.

«... في اليوم الأول اقترحوا عليّ فخر المطبخ هنا طبق «مرقة الكلاوي». وبالرغم من حبي للغرابة كما تعلم رفضت الاقتراح في حذر، وطلبت كفتة شريفة. وتبين ان الكفتة شريفة حقا. فقد كان اللحم فيها أكثر من الخبز. فليت طباخي معهدنا أتوا الى هنـــا

لتبادل الخبر. لقد وقعت في غرام الناس هنا. فالرجال جميعا صيادو سمك واصحاب قنص، صارمون وركينو البنيان. والنساء، هن النساء العاديات. الا ان هناك مذهلات بينهن. ولكن الاطفال، يا ماكس! صادف ان مررت بروضة اطفال، والقيت نظرة عبر السياج. وفغرت فمي دهشة: مثل جودار ناضج وزهور العنبر! ان الناس هنا، كما يبدو لي، نزيهون بشكل مدهش. حقا يقال انهم يحتسون الخمرة في الاعياد بشكل بهيمي. ولكنني لحد الآن لم أر شيئا استثنائيا. وهناك حقيقة طريفة. انا اعيش وحدي في شقة كبيرة من ثلاث غرف. وقد اقترحت أن يملؤوها قليلا بان يعطوا غرفتين لاحد من الناس. فهل سأربي فئرانا في هذه الغرف؟ ولكن الجميع احتجوا على ذلك. ان هذه الشقة مخصصة للطبيب وذات حصانة. مثل البيت الابيض – يتغير رؤساء الجمهورية والبيت باق.

الكسي، لماذا لم تجد الوقت حتى الآن، لا انت ولا فلادكا، للكتابة الي، في الوقت الذي اصبحت فيه رسائلكما ضرورية جدا بالنسبة لي. وانت نفسك تعرف لماذا. اكتب عن كل شيء: عن العمل وعن

الرياضة، وماذا تقرأ، وعمّ تفكر. ومن تغازل (فيكا؟) وهل زرت والديّ العجوزين؟

انا الآن أعمل فقط. وفي كل يوم استقبل عددا كبيرا من المرضى يصل الى اربعين مريضا. وتدور الشائعات في المنطقة عن «الدكتور اللينينغرادي». ويتوافد المرضى وغير المرضى ليتأكدوا من صحتهم. وأصلح المختبر وجهاز اشعة اكس، وكان كل ذلك مهملا الى حد التقزز. والعمل بوجه عام من الكثرة بحيث لا يبقى وقت للشكوك الطلابية وللكآبة...»

ركل الباب بحذاء وظهر فيليمون سائق المستشفى. خلع قلنسوته، ومسح وجهه المبلل المتقشر، وغمز للنادلة بمرح، وتقدم نحو طاولة زيلينين.

وكانت قد نشأت بينه وبين زيلينين، في غضون اسبوع، علاقات ودية لا رياء فيها. كان فيليمون انسانا خفيف الروح. وكان في الغالب ثملا فكان يعتبر سكان العالم كله بسطاء لطافا مثله يعرفون كيف يشربون ويتمزون. وقد سلخ اربعين عاما من العمر وهو باق على هذا الرأي.

قال لزيلينين:

— اسمع، يا دميتريفتش، آن الرئيس يدعوك.

قال زيلينين في دهشة:

– اي رئيس؟

– سامسونوفتش، رئيس السوفييت. الآن تلفن الى المستشفى وقال: ارجو ان يأتي الدكتور في الساعة الخامسة عشرة بالضبط. فهل نذهب؟

وبعد خمس دقائق كانا على مقربة من بيت خشبي ذي طابقين يرفرف فوق سطحه علم جمهورية روسيا الاتحادية حائل اللون. وكانت المحكمة الشعبية تحتل الطابق الأول، وتحتل المكتبة وقاعة المطالعة وسوفييت الريف الطابق الثاني. ولم يكن زيلينين قد جاء الى هنا من قبل. والحق أن هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها الحاضرة: كان يقضي صباحاته في الدوران على المرضى، والعمل في المستشفى، وبعد الظهر يستقبل المرضى الخارجين، وبعد انتهـــاء العمل يشتغل في حجرة اشعة اكس والمختبر. وفي بعض الاحيان كان يبدو له انه يستسلم للذعر في ارهاق نفسه كثيراً محاولا ان لا يفكر بشيء «خارجي» وان يطيل قدر مستطاعه تعرفه على هذه الحاضرة الرماديـة الصغيرة التي اصبحت الآن كل عالمه الخارجي.

تعالت اصوات خلف الباب الذي كتب عليه «رئيس سوفييت الحاضرة». طرق زيلينين الباب مرتين، ودخل دون ان ينتظر اذنا. كان يقف في الغرفة الكبيرة الواطئة بضعة رجال يرتدون مشمعات مطر مثل مشمع فيليمون. كانوا يتحدثون باصوات عالية، ويهزون قبعاتهم على رجل جالس وراء مكتب. وكان هذا الرجل اسود الشعر، عريض الوجه، يرتدي سترة خدمة ذات اربعة جيوب لونها اخضر داكن، ينقر باصابعه على المكتب، وينظر خزرا الى الجميع بسخرية. وحين رأى زيلينين ضرب المكتب بباطن كفه.

— هدؤوا ايها المواطنون — وابتسم سريعا — الدكتور زيلينين؟ — ومد يده.

شدّ زيلينين على تلك اليد العريضة. وكان لا يحب ان يشد على الايدي العريضة، ودون ان ينتظر دعوة القى نفسه على كرسي جلدي وثير، وفكر باسترخاء: «عملاق اعتيادي في نطاق الناحية. حتى لم يجشم نفسه عناء رفع مؤخرته المسؤولة قليلا». ونظر من طرف عينيه مرة أخرى، الى عيني الرئيس الضيقتين المضحكتين بشكل مهين، وشعر في وضوح تام بأنه قد التقى به ذات مرة في مكان ما.

وغادر ذوو المشمعات المكتب واحدا بعد آخر. وتوقف آخرهم عند الباب. وقال بلهجة تكاد تكون تهديدية:

– هل فهمت موقفنا يا سومسونوفتش؟

– فهمت، فهمت يا ايفان. واية صعوبة في ذلك! – اجاب الرئيس بمرح – سنتحدث عن كل شيء في لجنة الناحية الحزبية.

وهزّ رأسه، وقال في السحاق:

– هؤلاء الناس... وكن على علم، ناقلو اخشاب، وستحتكّ بهم فيما بعد – ثم قدم لزيلينين علبة سكائر «كازبيك».

– شكرا. انا افضل «افرورا» – قال زيلينين بجفاف ودس يده في جيبه وأخرج علبة سكائر «افرورا».

– أتعرف، أنني لا استطيع تدخين السكائر من هذا النوع. فان التبغ يدخل الفم. وهذه سكائري المفضلة – اطلع علبة سكائر من نوع «بريبوي» – اما «كازبيك» فهو للزوار.

وقهقه الرئيس وكأن ذلك مضحك جدا. وفي الحال جذب اليه زيلينين.

– لقد استدعيتك يا دكتور، واقول الحق، لمجرد الرغبة في التعرف عليك. فانت هنا منذ اكثر من اسبوع، ولم تزرنا.

قال زيلينين:

– عندي عمل كثير جدا.

– نعم، نعم. عملك كثير. انا اعرف. ولي معك حديث في نطاق عملك. جاءت، كما يقال، اشارة – ولاح الجد على وجهه، وراح يقرع سطح المكتب باصابعه – ارجو ان تفهمني بشكل صحيح. ان الامر يتعلق بمساعد الطبيب زافيدونوف.

فقال زيلينين متأثراً:

– نعم، ماذا؟

– انا اتحدث معك بصورة غير رسمية تماما، وأرجوك ان تفهم. انها نصيحة ودية. كان من العبث ان تكدر العجوز امام الجميع. هذه ليست انسانية.

جلس زيلينين رافعا ذقنه شادا على ذراعي الكرسي. وأحمر ببطء. وتابع الرئيس كلامه:

– انت ما تزال قليل التعرف على حياتنا. وماكار ايفانوفتش أشبين ثلث اطفال هذه المنطقة على الاقل. وكم من حبل سري قطع. وارجو المعذرة على

هذا الكلام! آنت لا تعرف هذا؟ ولكن الجميع هنا يعرفونه. والجميع يحبونه.

والتفت زيلينين في كرسيه بحدة وصاح:

— هل تعرف كيف كان يعالج أهل منطقته الشكورين؟ بشكل غير صحيح، وسخيف، وعلى الطريقة القديمة. وانا بنفسي أرى ان ماكار ايفانوفتش انسان طيب. يظهر من النظرة الأولى انه انسان طيب. ولكنه تخدر وجمد، وهو يعمل على طريقة لعل وعسى. هل تفهمني؟ وليس في ميسوري ان اسمح بهذا. انت تتحدث عن الانسانية. ولكنني افهم هذه الكلمة بصورة اخرى. نعم، لقد كدرت هذا العجوز وأهنته. ولكنني فكرت بعشرات ومئات المرضى.

— نعم انسانيـة... ـ واسترخى الرئيس ـ مفهـوم معقد.

ونظر الى محدثه باهتمام ومرح. وأطفأ زيلينين سيكارته.

— نعم، بالطبع ـ قـال زيلينين وقد هدأ ـ انت محق في شيء ما.

وبينما كان يهبط الدرج حاول في عذاب ان يتذكر اين رأى هذا الرجل.

العالم كله

في الساعة الثامنة مساء ذهب ساشا زيلينين الى البريد، وسجل محادثة تلفونية مع موسكو.

وسأل عاملة التلفون:

– اعذريني، هل التدخين مسموح هنا؟

– تفضل، دخن.

وجلس على طاولة في حجرة فارغة غير مضاءة، واخذ يراقب عاملة التلفون وهي تدخل التوصيلات وتخرجها من البدالة. وفكر هو: «لا بد من انها بدالة قديمة جدا».

وكان الاتصال بموسكو يلزم قبل كل شيء، الاتصال بمركز الناحية، ثم يطلب مركز الناحية لينينغراد، وتطلب لينينغراد موسكو. وعلاوة على هذا كله سترفع السماعة أم اينا وتقول: «آه، يا للاسف. لقد ذهبت اينوتشكا الى المسرح!» وليس معلوما مع من ذهبت.

كانت الريح، خارج النافذة، تسوق مزق السحب المتناثرة، وكان صف من اشجـــار الشوح الرشيقة المحنية الرؤوس يمتد نحو البحيرة. وكانت اقرب

شجرة شوح تمسح على الزجاج في هدوء باذرعها العريضة الوبرية. وتكاثف الغبش بسرعة وكمدت جمرات الغروب القليلة. ودخن ساشا السيكارة السابعة. واستولى القلق عليه ببطء من القدمين حتى الرأس. وسمع عاملة التلفون ترسل الشتائم في غير حذق وراء الحاجز من الخشب المعاكس. وفجأة نقرت على الحاجز.

– ارفع السماعة!

أزت سماعة التلفون وصفرت، وغنت وسعلت. وتردد عزف بيانو من بعيد وكأنه آت خلال ضجة البحر. كان المذيع يقرأ مقالة لصحيفة محلية مقطعا مقطعا وكانت اصوات غير مفهومة تتشدق في سرعة وكأنها تتبادل الشتائم، وصدرت دقات مثل اشارات ضبط الوقت، وتنامت وبلغ اذنه عويل فضائي ناء. وفجأة، وسط هذه الفوضى، التقط صوتا ضعيفا وكأنه آت من كوكب آخر:

– هالو، هالو... ساشا، ساشا!

ولدقيقة صرخ ساشا في السماعة، وانفاسه تكاد تتقطع. ثم صمت. لقد ترامى اليه، عبر شبكة الاسلاك، صوت فتاة بعيدة بشكل لا يصدق. كان

الصوت حذرا في بادئ الامر، ثم اكتسب ثقة شيئا فشيئا. «هالو، ساشا...» ولما ادرك أن في امكانه الآن ان يكف عن الصراخ نطق بكلمات كاتبه المحبوب أ. تولستوي في صوت خافت:

– أليو اوتارا... ايليتا*.

– ساشـــا؟ – تردد الصوت المحبوب في اذنـه باندهاش – هذا بالطبع – وضحكت اينا ضحكة جشاء بعض الشيء – لقد شعرت انا بنفسي الشعور ايضا وكأنني نازلة من المريخ. لماذا لم تتلفن من قبل؟ كنت انتظر طوال الوقت...

ودفع زيلينين اجرة المحادثة، ونزل درجات المدخل في اندفاع، وقفز الى وسط الشارع. ورفع رأسه، وبسط يديه وكأنه يريد ان يحتضن السماء الليلية. وتمايل كالثمل ونظر الى منظومات النجوم المتلألئة في مرح من بين فرجات الغيوم. وكانت الاسلاك تطن فوق رأسه بفعل الريح. خيوط معدنية عظيمة تربط جميع الناس على الارض! اسلاك واشارات مغناطيسية تشق الاثير. وعزف بيانو وصوت مذيع وصوت اينا...

---

* اقتباس من قصة الكسي تولستوي «ايليتا».

كانت سلسلة من الانوار تمتد على طول البحيرة. وفجأة انبثق شعاع آزرق دخاني من باخرة قاطرة واخرجت من الظلمة برج الاشارة للمرفأ. وتنفس زيلينين ملء رئتيه. وفي تلك اللحظة شعر بأن عالمه كله لا يحد ببيوت كروغلوغوريه الخشبية، وانه يعيش في النصف الثاني من القرن العشرين، في كل العالم الحديث الرحب. وقد ضفر الناس العالم بشبكات لاتصال بعضهم ببعض ولتقديم المساعدة، شبكة نقليات، وتلغرافات، وشبكة تعليم، وشبكة علاجية وهو جزء لا يتجزأ منها. ولو سقطت طائرة هنا مصادفة في طريقها من موسكو او ايغاركا او غادالوب واذيع خبرها الى الجهة المعنية في الحال، ولقدم هو، الكسندر زيلينين، المساعدة للطيارين والركاب.

وسار بخطوات عريضة على الممشى الخشبي مغمغما مع نفسه بنغم من «تأليفه». سار على طول الاسيجة، والحدائق الصغيرة التي لاحت من خلال اوراق خضرتها انوار خافتة. وفجأة ظهر امامه شبح قاتم لا يتحرك. واشعل زيلينين مصباحا يدويا ورأى الشعر القصير الاشيب، وخصلتي الحاجبين. لقد كان ماكار ايفانوفتش.

تمتم العجوز بصوت خافت:

— يا الكسندر دميتريفتش... اعطني من فضلك ذلك الكتاب لاقرأه. ذلك المرجع ذاته.

الفصل الرابع

كل الاعلام في زيارة

وقف ماكسيموف على المرفأ قرب صهاريج النفط. والى جانبه كان السائق بيتروف يقفز وعلى وجهه ابتسامة غريبة كاشفة عن لثاته. وكانت تلك الابتسامة تجعل وجهه شريرا، ولكن بيتروف في واقع الامر كان رجلا مسالما كثير الضوضاء وأحذق سائق في القسم الصحي.

قال:

— يبدو يا الكسي انه يجب عليك ان تتسلق سلم الحبال.

ونظروا الى الجانب الاسود المسلوخ للباخرة «نوفاتور» بمحرك الديزل وهي تقترب قادمة من جزيرة كوبا بحمولة من السكر. وتطايرت حبال المرسى على الرصيف، وطن صوت في مكبر الصوت:

— هل تستطيع ان تصعد سلم العاصفة يا دكتور؟

لوّح ماكسيموف بيده! هيّا... ليكن! واقترب من حافية الرصيف، ونظر الى الاسفل. هناك بين جانب الباخرة واوتاد الرصيف كان يترجرج ماء زيتي ثقيل. وفي الاعلى كان يكشر بحارة لوحت الشمس وجوههم.

«انهم واثقون من انني لن استطيع الصعود حتى تكون الباخرة لاصقة بالرصيف. ربما يظنونني رجلا من البر لا حول له، من «الكرنتينه». آوه، الموت يأتي مرة واحدة!»

وقفز من الرصيف بقوة، وطار ثلاثة امتار تقريبا في الهواء، وامسك بسلم الحبال. ومن خلفه تأوه بيتروف بوهن، القى ماكسيموف نظرة خاطفة آلى الاسفل، فوقع بصره على هوة سوداء، وارتعد متصورا نفسه متخبطا في الماء القذر البارد، واقعا في المصيدة.

«انا احمق. احمق للغاية. ما الذي جعلني افعل ذلك؟» وعبر الحاجز، وقرأ في وجوه البحارة سخرية. وسأل في خشونة:

— اين الرئيس؟

— انا هنا يا دكتور — نزل من السطح الثاني شاب طويل القامة يرتدي بزة زرقاء، وابتسم في ترحاب، ومد يده — اسمي بيروف.

– وصول ميمون! هل في الباخرة مرضى؟ – نطق ماكسيموف بهاتين العبارتين التقليديتين، وأدهشه الرد.

– جئنا بمريضين.

– مريضين؟ وماذا بهما؟

– القصة يا دكتور هي أن ذراع رافعة قد خلعت ووقعت على ساق شاب. يبدو انها اصيبت بانكسار. اما الثاني فلا اعرف ماذا به – درجة حرارته مرتفعة. هل تريد ان نذهب الى ردهة المرضى؟

وصعدا الى فوق. وصدر صوت خافت من خلفهما:

– طرزان.

التفت ماكسيموف حادا. كان البحارة يبتسمون صامتين. امسك بيروف بذراع مكسيموف، وسار به في المماشي والمعابر والممرات متحدثا اثناء سيره بحيوية. والظاهر انه سر برؤية رجل جديد.

– لم تكن الرحلة من الرحلات الممتعة. هبت عاصفة وحشية في المحيط، ثم انت تعرف حالة بحر البلطيق في فصل الخريف، يبدو لي أنك كنت تعمل على باخرة «بولزونوف» أليس كذلك؟

– ما زلت اتهيأ للسفر.

– هكذا اذن؟ اذن فعلى الرحب معنا، ان طبيبنا

العجوز سيحال على التقاعد قريبا. حقا يا دكتور. أطلب ان تلحق ببلوطتنا. ان جماعتنا من الدرجة الأولى.

– هل يعيش اناس من بلوط في هذه الجوزة الحديدية؟ – قال ماكسيموف بخبث، وفي الحال خاف من ان يتكدر المساعد الاكبر.

الا ان الرجل رد بالمثل:

– كان المنظر غير اعتيادي. دكتور رياضي هكذا...

ثم فتح بابا، وجعل ماكسيموف يدخل امامه. كانت تلك ردهة المرضى. اربعة آسرة مصفوفة على طول حاجز في طابقين. وفي الجهة المقابلة عند حائط مائل سرير آخر رقد عليه شخص شدت ساقه على مشد. والتفت رجل ذو مريول ابيض كان واقفا وظهره الى الباب. وكانت في يده حقنة. وفكر ماكسيموف: «لا ريب في انه يحقنه بالبنسلين»، ولاحظ باندهاش انه يستنشق برضى رائحة مستشفى اعتيادية، ويسره ان يرى دولاب الادوية الزجاجي، والعلب المعدنية للادوات الطبية وجهاز التعقيم المغلى.

نظر اليه طبيب الباخرة العجوز المعروق الملوّح نظرة مضجرة ووجلة وقال في شعور بالذنب وهو يشير الى المريض ذي الساق المرفوعة:

– لقد عملت له مشد. ولا اعرف هل بصورة صحيحة ام لا؟ فانا لم انتظم في دورآت منذ أمد بعيد. اخذت انسى كل شيء. اما انت يا زميل فيخيّل اليّ انكَ عملت في مستوصف باسينوفايا. أليس كذلك؟

ففكر الكسي: «واحد يظنني بحارا، وآخر طبيب مستوصف. ولست في الحقيقة الا رجلا عاميا مسكينا. فلعلهم يهزؤون بي؟»

وتقدم الكسي من السرير. ولصرف الانظار تحسس الساق وقال بصوت اجش:

– مشد صحيح.

وبان السرور على الشيخ.

– لعلك تفحص المريض الثاني كذلك؟ لقد شخصت فيه التهاب الرئة اليمنى. ولكن في ظروفنا الراهنة دون اشعة اكس...

ففكر ماكسيموف مع نفسه: «ما اشد شكه في نفسه! طبيب عجوز له من الخدمة ما يقرب من اربعين عاما حتما، ويتملقني، انا الغر الصغير. لا بد من انه تفوه بالمستوصف للرياء فقط».

وكان فحص المريض الثاني اسهل: فقد التقطت السماعة خرخشة في صدره. قال ماكسيموف:

– يجب نقل كلا المريضين الى المستشفى على عجل.

وبعد ردهة المرضى طاف في ارجاء الباخرة كلها بصحبة المساعد الاكبر وطبيب الباخرة، وتفقد المقصورات، وقسم الآلات، ومخزن الاطعمة والمطبخ. وتفحص في المبطخ، الوضم الذي يقطع عليه اللحم تفحصا طويلا مدققا. وكانت لكل طبيب «كرنتينه» خصلته. كان الدكتور دامبفر العجوز معلم ماكسيموف وكاربوف ولوعا بشكل خاص باوضام اللحم. وكان من عادته ان يبحث فيها عن شقوق بتفحص دقيق، ويصرخ بالطباخ بوحشية اذا لم يكن قد نثر الملح عليها. اما البواخر التي لم تزود بمثل هذه اللوازم فلم يكن يسمح لها بالابحار. وقد صرخ ماكسيموف بالطباخ ايضا معتبرا نفسه ممثلا لمدرسة دآمبفر، وطلب أن يغير الوضم. ثم دخل مقصورة المساعد الاكبر ليكتب ويملأ اوراقا عديدة. ولاح الضجر على المساعد الاكبر. ووقع الاوراق التي قدمها له ماكسيموف، وارسل زفرة:

ـ كلما تدخل الميناء تسقط يدك اعياء.
فتمتم الكسي بشكل مضجر:
ـ متى عقمت آنية ماء الشرب لآخر مرة؟ اين تزودت بالماء لآخر مرة؟ كم في الباخرة من مسافرين وحجاج؟
فقال المساعد الاكبر في قلق:
ـ ماذا؟ انت صاحب نكتة يا دكتور. ها ـ ها ـ ها. في باخرتنا مسافر واحد ـ الجرو بيلي دخل الباخرة في غولو. وقد يكون حاجا ايضا الى موسكو، آلى ساحة الكلاب. فمن يدري؟ هل تريد ان اريك اياه؟
ـ فيما بعد. هل لاحظت اثناء السفر جرذانا ترقص؟
نظر المساعد الاكبر الى طبيب الباخرة في يأس، ثم نظر في عيني ماكسيموف، وهمس في تهديد:
ـ ارجو ان تكون معاملتك معي جادة.
فقال ماكسيموف مندهشا:
ـ وكيف لا؟ انها الاسئلة الاعتيادية لقسيمة الاستجواب. ان جرذان الطاعون تنط وكأنها ترقص.
فضحك المساعد الاكبر. وكان يضحك عند كل فرصة ملائمة.

– اعذرني يا دكتور. هذه اول رحلة اقوم بها كمساعد أكبر، ولم أعرف مثل هذه الاسئلة. اذن فهي ترقص؟ مضحك حتى الموت. هل هي ترقص الروك اند رول ام ماذا؟

– ما هذا الروك اند رول؟

– الا تعرفها؟ انها رقصة جديدة. في انكلترا جنوا بها جنونا.

– هل هي تشبه البوغي بوغي؟

– أوه، لقد قدمت تلك الرقصة. فلو رأيتم كيف يرقصون الروك اند رول – جنون حقيقي. يمكن ان يموت الانسان من شدة الضحك.

وفتح المساعد الاكبر درج طاولة، واخرج زجاجة منتفخة الوسط لصقت عليها ملصقات ساطعة الالوان وقال في لهجة مهيبة:

– سكوتش ويسكي.

– لا. لن اشرب.

– لا تخرق التقليد المتبع يا دكتور. كأس واحد لمراعاة النظام.

. . . .

– الى اللقاء يا سيرغي. كان التعرف عليك ممتعا جدا.

– الى اللقاء، يا الكسي، اذن فستقول في قسم الملاكات: عينوني على باخرة «نوفاتور» ولا غيرها.

– كن مطمئنا.

كان رأس ماكسيموف يطن. سار على ظهر الباخرة بخطوات عريضة، ولوح بيده للبحارة الحمر الوجوه، واختفى خلف حاجز الباخرة.

وركب السيارة الى محطة «الكرنتينه» آملا بأن يشرب هناك شايا، وان يستريح حتى المساء، حتى وصول القافلة الكبيرة من البواخر. ومع ذلك، فحين فتح الباب نقلت اليه عاملة التلفون في الحال برقية مرسلة بالتلفون: دخلت قناة مورسكوي باخرة «دوق اوف نورماندي» الانجليزية فيجب ركوب الزورق البخاري لملاقاتها. ومرة اخرى لاح امامه حاجز الباخرة، ولكنه في هذه المرة من اللون الرمادي الداكن، وفي هذه المرة كان متحركا، وكان يجب تسلق سلم الحبال اثناء سير الباخرة. واندفع جسمه. وخامره مرة أخرى شعور بالفراغ وبالوسط الغريب تحت قدميه. وفكر ماكسيموف: «المتأدبون من

الناس يجلسون في مستوصفات نظيفة دافئة، ويفحصون المرضى بالسماعات، ويعقدون حواجبهم ذهنيا. اما انت فتتأرجح كالسجق بين السماء والماء». وكانت هذه افكار من رسائل «الأم المسكينة المتغضنة» وهي افكار ضحك عليها، ولكنها استقرت في ذهنه مثل ثقل باهظ.

كان البحارة على ظهر باخرة «دوق اوف نورماندي» يتجولون على هواهم فارغين من خفارتهم مثل بحارة «نوفاتور». وكان ثمة زنجي ممشوق القد مسربل بمحابس سحابية من حنجرته الى اخمص قدميه، التمعت على ثغره ابتسامة ثلجية، ورفع على رأسه الحاسر اصبعين للتحية. شرح له ماكسيموف انه يريد ان يرى ربان الباخرة. فقرقع الزنجي باصابعه وعرض عليه ان يتبعه. وسار مع الزنجي شابان آخران اشار احدهما الى ماكسيموف لصاحبه، وقالا بلغة روسية مهشمة وهما يربتان على كتف ماكسيموف برقة:

— طالب، طالب. جيد!

فقال ماكسيموف بصرامة انه ليس طالبا بل طبيبا، وانه قد انهى معهد الطب منذ زمن بعيد. وبدا وكأن

الشابين لم يفهما شيئا، قهقها بعربدة، وربتا عليه أشد من ذي قبل: «اوه، طالب. فري ويل!»

نهض الربان النحيل للقائه، ومد يده، وتحدث طويلا عن شيء ما. ولم يفهم ماكسيموف الا كلمتين «تفضل بالجلوس» وكلمة «سير» التي كررها الربان عدة مرات. أيعني أن ماكسيموف سير؟ واستجمع ماكسيموف شجاعته ورطن بدرزنتين من الكلمات الانجليزية. غضن الربان وجهه واصغى ثم سأل:

— دو يو سبيك انكلش؟ فرينتش؟ جرمن؟

عند ذلك تأسف ماكسيموف على تلك الاوقات التي غاب فيها عن دروس اللغة الاجنبية، مكتفيا بنقل كلمات القراءة «الخارجية» من دفاتر الفتيات بسفاهة.

هبط المساء. وكان الزورق البخاري يسير في الحوض على ضوء الانوار الكشافة. وكان ماكسيموف يتسلق سلالم الحبال مستنشقا هواء مطابخ البواخر الداخن، ويملأ الاستمارات، ويقدم فريضة التقاليد البحرية. وكانت اشباح السفن القادمة تظهر في الاغبشاش الوامض المرقط بالوان شتى تارة هنا وتارة هناك. وللحظات نادرة كانت عيناه تقعان على نجوم ثابتة فيها، وخطوط

مباني الميناء كانت تذكره بانه لم يعش دائما مثل هذه الحياة، مدغدغة في ذهنه فكرة طريفة هي أن كل ذلك يحدث لاحد غيره.

وفي صباح اليوم التالي سلم الخفارة للدكتور كوزلوف، ونزل الى حجرته ونام عميقا. وكان لاطباء الكرنتينه استراحة ثلاثة ايام بعد اربع وعشرين ساعة في الخفارة. وكان يقضي ماكسيموف اليوم الأول بالنوم كليا تقريبا. وكان قد استكان لهذا الوضع. ولكنه في هذه المرة نام زهاء عشر ساعات. فتح عينيه في الغبش الهش المزرورق، وفكر ثانية: «اين انا؟» ثم تناول، بحركة لا ارادية، سيكارة من طوار النافذة. كان السرير في الجانب الآخر فارغا. انه لم ير كاربوف منذ عدة ايام. وكان فلادكا كاربوف قد غمرته الحضارة كليا، فانشغل في مفكرة تلفوناته، في حروف أولى من اسماء سرية واسماء منسية كتبتها يد غير واثقة في ضوء مصباح الشارع. فكان ماكسيموف يضطر الى ان يقضي اوقات فراغه وحده. وقد ولع بقضاء امسياته الأولى بعد الخفارة في المكتبة العامة منبشا بالدوريات حتى السبات.

الخريف مرة أخرى

سار في الممر شبان مرموقون ذوو نظارات وفتيات نحيلات. وكان ثمة بعض الفتيان والفتيات يقفون زوجين زوجين قرب النوافذ وكأنهم يراقبون صفوف الانوار الممتدة خلال الغبش الخريفي. وكم من قصص الغرام بدأت بين الطلاب هنا في بناية المكتبة العامة.

خرج ماكسيموف الى الممر وقد تأبط حزمة من المجلات الزاهية. ونظر في سخرية الى الفتيان والفتيات الواقفات قرب النوافذ، وتذكر كيف حلم قبل عدة سنوآت بطريقة صبيانية بلقاء فتاة نحيفة هنا لها عينان واسعتان وفي يدها مجلد من اشعار بلوك. وقد انتهى، فيما بعد، الى استنتاج هو ان التعرف على الفتيات في حفلات الرقص اسهل بكثير وأمتع فانت لا تحتاج في ذلك الى اختلاق المعاذير والتعابير الحاذقة.

وفكر ماكسيموف: «انني لأتصور ماذا يهمس هذا الفتى ذو اللمة الطويلة لفتاته الشقراء الآن. ربما بشيء ما عن بيكاسو، بينما هو يفكر مع نفسه كيف يمكن ان يلتقي معها على انفراد». والتفتت الشقراء، وعرف

انها فيرا. ولم يكن ثمة مجال للتراجع. تقدم على ساقين رخوتين.

وقال وهو يواصل سيره: «مرحبا!» – ولكن فيرا ابتسمت، ومدت يدها. فاضطر الى ان يتقدم منها، ويصافحها، وينظر في تانك العينين، والى الثغر الضاحك الذي تحدث بشيء سريعا.

– ... ظننت انك في مكان ما في المحيط الاطلسي. تعرّف على فوما باخ.

– مسرور – تمتم ذو اللمة الطويلة بصوت اجش مبدياً بمظهره كله عدم مبالاته بكل شيء.

– مــا هذه الشخصية؟ – سأل ماكسيموف حين بقيا وحيدين – يبدو انها شخصية طريفة.

– طريفة جدا. آنه طالب في مدرسة فنية. وقد تحدثنا عن الانطباعيين.

قهقه ماكسيموف. فرفعت فيرا حاجبيهــا دهشة:

– ماذا تعني؟

– لا شيء. لم يخطر على بالي انني سألتقي بك هنا.

– ولماذا؟

– من الصعب دراسة العلم هنا.

– انا لا آتي الى هنا للعلم بل...

- بالطبع، للثقافة العامة. مثل الاشتراك في حفلات موسيقية في الفيلهارمونيا. أليس كذلك؟ ألا يخاف الاستاذ المساعد من خروجك وحيدة؟ فهنا يتسكع كثير من الانطباعيين من شتى الاشكال.

نظرت اليه فيرا خزراء وسألت بسكينة وبمرارة لاذعة:

- لماذا تتخابث يا الكسي دائما؟ لماذا يجب ان تسخر مني؟

ففكر ماكسيموف في نفسه: «ولماذا لا ترسليني الى الشيطان؟ لماذا لا تصفعينني على خدي؟ لماذا اصبحت عاجزة على نحو مقرف وكأنك فاسقة نادمة؟»

وفجأة رأى عينيها المريرتين فشعر، في آخر الامر، أن فيرا لم تعد تلك الفتاة التي ركب معها عربة محملة بالتبن ذات مرة اثناء العمل لمساعدة الكولخوز، والتي خرج معها للتزحلق في السنة الدراسية الأولى، والتي لعب معها في حفلات الترفيه. وادرك ان تلك الفتاة قد أنهت وجودها وأن امرأة غريبة تنظر اليه الآن ولها مطالب غير معروفة له.

رفعت فيرا رأسها، وعدلت شعرها، وابتسمت وكأنها خلصت نفسها من الافكار المرهقة، وخلصته هو.

- كم الساعة؟
- الثامنة.
- انا ذاهبة ربما... توصلني؟
- انتظري لحظة - قال ماكسيموف في عجل ودون ان يتوقع حتى هو نفسه - اسلم المجلات فقط.

... كانت اوراق الاسفندان العريضة مبعثرة على الرصيف الاسفلتي المبلل. ولاح في ضوء المصابيح المرتج وكأن قطيعـــا من الاوز السائب مرّ على الرصيف منذ وقت قصير. سار ماكسيموف وفيرا في بطء على آثار الخريف الاوزية. وأطرق ماكسيموف برأسه. كان يراقب وكأنه من علو شاهق وقع حذائيه الثقيلين، واللمعان المتتابع لحذائي فيرا الانيقين. وكانت فيرا ترتدي معطفا جديدا ضيقا في طرفه. وكانت الريح الرطبة تداعب شعر رأسها الحاسر. وكان المطر قد انقطع ولكن الهواء مشبع برطوبة كثيفة. بدا وكأن في الامكان شربه، وامتصاصه من خلال الاسنان. وكان ماكسيموف عكس ما الّف الناس يهوى مثل هذا الطقس، ويعرف ان فيرا تحبه ايضا.

- ... اغلب الظن ليس قبل الربيع. مضجر؟ هذا

ما يخيل اليكَ فقط. حقا لا عمل غير مراقبة الصحة العامة والالتزام بالاصول الصحية. ولكن هناك التقاليد البحرية مقابل ذلك. ما هي هذه؟ هذه لا يمكن شرحها بكلمات. نعم، ان كل اصحابنا هناك. ستولبوف الذكي صار يعمل في قسم الطعام، وقد ضمن لنفسه كعكة بالزبدة. وفلادكا مثلي في الخفارة. وهو يشعر بارتياح عظيم، ويتسلى. والشيطان وحده يعرف أين هو الآن. نعم، نحن الاصدقاء، وماذا في ذلك؟ انه سريع المعاشرة للغاية. وساشا؟ حقا يبدو انني واياه كنا مثل توأمين سياميين. هو الآن في كروغلوغوريه. في مكان ما على بحيرة اونيجسكويه. تسلمت منه رسالة كبيرة. يعمل بشكل مفرط، ولا يستوحش ابدا. انعم، من السهل علينا ان نناقش هنا، ولكن له فتاة في موسكو. لزيلينين بالذات. وما المضحك في هذا؟ فتاة كأي فتاة، تشبهك قليلا سوى أن...

– ماذا «سوى ان...؟» – سألته فيرا وهي تنظر في عينيه.

– اصغر بثلاث سنوات تقريبا.

– لا، انت لم ترد ان تقول هذا.

– صحيح.

واتفقا صامتين على أن لا يسترسلا في الموضوع. وكان شارع سادوفايا حيث يجب ان يفترقا قريبا جدا. فتوقفـا عن السير ناظرين الى اهرام المعلبات في واجهة مخزن يليسيفسكي. وزفرت فيرا.

– ماذا بك؟ – سأل ماكسيموف. ولسبب مجهول بدت له في تلك اللحظة قريبة اليه بشكل مذهل. وراودته رغبة في ان يضع يده على كتفها، وأن يدخلا المخزن سوية، ويشتريا شيئا لعشائهما.

– لا شيء. لا سبب. – اجابت فيرا، وبعد ان صمتت قليلا قالت في تردد – على العموم هل انت راض عن حياتك الحالية؟

– راض؟ لا اعرف. لم اركن بعد الى رأي. بالامس خيل الي انني احن الى عمل علاجي. ومقابل ذلك امامي مستقبل – البحر!

– بقدر ما اعرف، سيكون العمل العلاجي في البحر قليلا آيضا.

– وبمقابل ذلك سيكون شيء آخر. تصوري: رؤية العالم كله! لقد جمعت الطوابع منذ طفولتي، وحلمت باقطار بعيدة. جزيرة تاسمانيا! طوابع،

قطع خرائط ملونة، وارقام، وكلمات... وفي بعض احيان كانت تنبثق في ذهني فكرة جنونية،ان كل هذه الأشياء من اختراع شخص ما للطرافة فقط! والآن تتاح فرصة رؤية الاشياء بنفسي، اتشممها واتذوقها.

– وبعد ذلك؟ انك لن تقضي عمرك كله في الترحال؟

– لا اعرف. ولم لا؟

– ستستوحش، وستحن الى عمل حقيقي.

– وهل هذا عمل غير حقيقي؟

فقالت فيرا في يقين:

– اي عمل هذا!

فهز هو يده:

– لا بأس، فليست عندي مشاريع للخمس سنوات. انا انسان فرد ولست دولة. والانسان في عصرنا هذا يجب ان يعيش يومه الراهن.

– هراء! – قالت فيرا بحدة.

ارسل ماكسيموف ضحكة قصيرة.

– انت كسائر الآخرين، تتسلين بخداع النفس. أها، أها مشاريع للمستقبل. عمل خلاق... انت تنطقين بكلمة «عمل» برعشة قدسية. لاي شيء يعمل

الانسان؟ العمل من اجل العمل؟ هراء! بعضهم من اجل الطعام والشراب ووقاية الجسم من البرد والاستمتاع، وللبعض الآخر دوافع ارفع: درجة علمية، والشهرة ، والمجد. وهناك مائة او مائتان من الناس شعراء من نوع ما منزهون يعملون من اجل لحظات الابداع القدسية. وبالطبع جميل ان يكــون عمل الانسان ممتعا، ولكن العمل ليس الشيء الرئيسي في حياة الانسان.

قالت فيرا غاضبة:

– لست متفقة معك يا ليوشكا. ما هو الشيء الرئيسي – الطعام؟

– انه الشيء الرئيسي عند الكثيرين مع الاسف.

– وماذا بالنسبة لك؟

– بالنسبة لي؟ آه – وهزّ يده – لا اود ان تعتبريني متباهيا.

فاسرعت فيرا وسألت:

– وهل أن رأيي يعني عندك شيئا ما؟

نظر اليها بارتباك. هذا هو التحول! ولكنه نسي كل افكاره في الحال بعد أن لاحظ البريق الغريب الباهر في عيني فيرا.

«لا يمكن. ولكن لماذا لا يمكن؟ هل انا مسخ، أبله؟ لا، فنحن صديقان منذ ستة اعوام، وهي لا تعرف انني احبها. ولكن لماذا تنظر اليّ هذه النظرة الغريبة؟»

– لنذهب – قال ماكسيموف، واخرج سيكارة واشعلها.

ولم يتجرأ على النظر في وجه فيرا الا حين وصلا الى محطة الباص. كان وجهها حزينا في استغراق. وذهل ماكسيموف. ونفضت هي رأسها فجأة وكأنها تتحرر من شيء مزعج، وابتسمت ابتسامتها الهادئة اللطيفة.

– اسمع ياَ ليوشكا لماذا لا تزورنا ابدا؟ سأل ابي عنك عدة مرات. واي مانع في انني الآن متزوجة؟ انا اعرف ان فلادكا متكدر فقد كان مهتما بي. ولكنني وأياك صديقان. ألسنا؟

فقال ماكسيموف ببرودة:

– صحيح تماما. ها هو باصك قد وصل. سأزورك كصديق العائلة. سلامي الى الوالد و... هل الاستاذ المساعد لا يزعل؟

اعياه مكرها الهادئ. وادرك ان شيئا ما قد حدث

اليوم بينهما وضع في يدها المبادرة تماما. قد ابتسمت له فعلا وربتت على خده عند الوداع، وقفزت الى مرقاة الباص.

بقي ماكسيموف واقفا مشيعا بنظراته حدبة البـــاص الحامل حبيبته الى جهة بتروغرادسكايــا ستورونا، ثم حدد بصره، وصوب عقب سيكارته في صفيحة القمامة بتسديد، وتوجه يتعشى في المقهى الاوتوماتيكي.

هذا بيتهما

لم يعد الميناء يبدو لهما عالما فوضويا غريبا. ما ان جازا البوابة الرئيسية حتى انقطعا عن حياة المدينة الصاخبة حيث كل شيء معقد جدا، والفيا نفسيهما في عالم آخر رجالي مائة بالمائة تسود فيه المفاهيم الدقيقة: وقود، حمولة، كحول. وفي صمت الليل تصرخ احيانا قاطرات التحويل صراخا متقطعا كما في الحلم، وتبلغ السمع مقاطع من الحان موسيقية تذيعها مكبرات الصوت في حاضرة السكن. وتقرقع الاقدام على الاسفلت قرقعة جوفاء. سار ماكسيموف

وكاربوف قدما لقدم بخطوات نشيطة جدا. سارا صامتين يفكران. كل واحد غارق في افكاره.

الكسي ماكسيموف: «هل انا ثرثار؟ أبدو امام فيرا نهلستيا. ولكنني آحبها. فاين المنطق من هذا؟ غدا سأذهب الى فيرا، وأبوح بكل شيء، ولتعرف الحقيقة. ولكن ماذا لو انفجرت تضحك فجأة؟ حينذاك سينتهي كل شيء. هل اخبر فلادكا؟ لا، لا يجوز ان تخسر صديقا. فالسير في مثل هذه الظلمة مع رفيق اسهل. كالجنود في اغنية مونتان. تطن زمزمية معلقة على الجنب وتسير الفصيلة في مرح. ماذا كان ساشا يفعل في مثل هذه الحال؟ نعم، ساشا! كيف حاله في كروغلوغوريه؟ مثالي لعين! يا لافكاره... الاحساس بانه في خندق في الجبهة... المسؤولية امام الاجيال... تعابير مزوقة. لنر كيف سيكون شعوره بعد عام. آمل أن لا يكون قد عكف على الشرب. حسنا. لنفترض انه خندق في الجبهة. ولكن لماذا يجب أن يكون خندقي هناك حيث المكان مضجر ممل كريه؟ وفي الجبهة ايضا، كان فريق يشتغل بحفر الارض، وآخر يحلق في السماء. فلاحلق وارتق الى حيث أهوى. فنحن، في آخر الامر، اناس بؤساء

صغار لا غير. كيف تقول عن ذلك تلك الابيات من الشعر: «... نحن ضيوف الارض جئنا لنقضي فيهـا امسية واحدة...»؟ فهل لنا ان نناضل على العموم؟ بالطبع يستحق ان نناضل . من اجل الحب مثلا ، من اجل شرف الوطن، من اجل الاشتراكية. اذن فانا مواطن؟ وبالتالي يجب أن يكون عندي الاحساس بانني في... ليتني اخرج الى البحر سريعا. سيكون الامر هناك اكثر بساطة. لا شيء غير الامواج والسماء. ها انا اتفهم. سأطلب الالتحاق بباخرة «نوفاتور» حتما. اما الآن فالق عنك التوجع، واصرف الوقت بتعقل: وأقـــرأ شتى الكتب الحصيفة، واستمع الى حفلات الموسيقى، وتردد على المعارض».

فلادكا كاربوف: «الجدران الزجـاجية لحجـرة العمليات، وطقطقة جهاز التخثر الكهربائي، والكلمات المنفصلة... وطاقيات بيض تروح وتجيء، واصابع سريعة تتحرك خطفا: كل ذلك قريب من بيتها تماما، على بعد ثلاثمائة متر تقريبا على الكورنيش. والماء يعكس الضفتين بوضوح تام، ويضاعف عدد الطوابق، وتنمو الاشجار الى الاسفل، والناس يقفون ورؤوسهم

في الاعلى وفي الاسفل مثل صور ورق اللعب. انا ملك الديناري وهي ملكة الديناري ايضا. كان ذلك فيما مضى. هي الآن ملكة الكوبة. وانا على حالي، ولكنني أعيش في منطقة أخرى، في الواقع في المدينة نفسها، ولكن يبدو انني اعيش في اقصى الارض. وكل ما كان فات، قفز الى الماضي البعيد رأسا. هي لم تحبني قط، لم تثق بي. ربما سنلتقي مصادفة بعد خمسة اعوام او عشرة. سيدة عالمة بدينة، وصعلوك بحري. ليتني اخرج الى البحر سريعا. انني لاتصور اية ضجة ستحدث بين الاصدقاء حين اعود من أول رحلة. اغلب الظن ان صداها سيصل الى فيرا. سأجلب معي غصن مرجان، و... أهديه الى اية فتاة صغيرة. سلوى! بل وسأتزوج بأول فتاة التقي بها! ربما اتشاور مع ليوشكا في هذا الموضوع؟ مرحبا يا ماكس، يا خليلي! لماذا أنت غريب الاطوار اليوم، مرة مرح وتارة ترح، مثار بشيء ما. أوه، انظر اليه، يسير كالجندي! «يمين، يسار، يمين، يسار! الطبل يدق. والحسناوات ينظرن في الاثر، والروح تتهلل بشرا. جنود في العشرين من عمرهم...»

غنى بصوت عال. جفل ماكسيموف، ونظر اليه

في اندهاش. غنى فلادكا بصوت عال ما دندن به ماكسيموف في سره. وكانت مثل هذه الاحوال تحدث له مع ساشا زيلينين من قبل، حين يطوف نغم في رأس واحد منهما يبدأ الثاني بترديده.

- الظاهر أن ذهنينا مضبوطان على موجة واحدة.

- انت غموضي يا ليوشكا.

- وكيف تفسر ذلك؟

زفر كاربوف وقال:

- العالم مملوء بالظواهر الغامضة.

خلفا الانوار الهائمة لمنطقة الميناء الثالثة وراءهما والظلام كثيف الى الامام. والهدوء مخيم كما هو في البيت. وها هي معالم «الكرنتينه» تبرز من الظلام. والنافذة المضاءة الوحيدة معلقة في الليل كمصباح السبر في اعماق البحر العميقة. هذا بيتهما. بيت هائل فارغ ذو صرير، مشوب بالخوف، وبلا تدفئة، ولكنه بيتهما. يقول الانجليز: «بيتي هو قلعتي». ان ماكسيموف اخذ يتذكر كل المساكن التي اقام فيها موقتا. أحب كل واحد منها، ورغب في ان يخرج من كل واحد منها بأسرع ما يمكن. الى اين؟

وساحت اشعة ضوء كشاف في اقطار السماء كلها على شكل فرجال جبار، وهبطت، وابرزت من الظلمة مقطعا جانبيا للميناء. وهناك في المدى البعيد التمع خط الافق. ما اطيب العيش على الارض حين يكون خط الافق امام عينيك دائما! ما اروع كون الارض كروية!

الفصل الخامس

داشا

ـ لماذا يا ماما تتكلمين سخفا؟

ـ انا اخبرك يا داريا بكل ما رأيت بنفسي بدقة: رأيت دكتورك يجري في ملابسه الداخلية على شاطئ البحيرة مع الاولاد، مع التلامذة يلحق كرة.

ـ وآية ملابس داخلية هي؟ انها بدلة تدريب. قرر الكسندر دميتريفتش ان يؤلف فرقة للكرة الطائرة. وهذا لطيف جدا فان الرياضة عندنا ليست بمستوى لائق.

القت الأم مقلاة البيض على الطاولة امام داشا بحدة.

— ليست بمستوى لائق؟ لقد اصبحت ذكية جدا يا داشا. انظري فانه سيرقي بك الى مستوى لائق.

— ماذا تعنين بذلك؟

— اعني ما أرى.

واستدارت وخرجت الى مجاز البيت. ثم عادت بعد دقيقة تحمل طاسة خيار مخلل، وجلست الى جانب داشا، ومسدت شعرها.

— انا اخاف عليك يا بنتي. النساء يثرثرن: هو يغازلك. ولكن له خطيبة في موسكو. يتحدث معها بالتلفون كل يوم تقريبا. قالت ذلك زويكا التي تشتغل في البريد. بالامس انفق فلوسا كثيرة لقاء محادثات فارغة.

توردت داشا.

— كفى عن الكلام يا ماما. هذا شيء كثير. ليس لي مع الكسندر دميتريفتش الا صلات عمل.

وخطفت معطفها، ومحفظتها الصغيرة، وخرجت راكضة الى مدخل البيت.

— هكذا اذن — فكرت داشا وهي تتنشق الهواء البارد ملء صدرها — هكذا اذن: اصبحت منافسة. ولمن؟ لفتاة موسكوفية!

وراودتها رغبة في آن تعدو، ولكنها تذكرت منزلتها الطبية فرفعت رأسها عاليا، ومشت بوقار على الممشى الخشبي تهز محفظتها سريعا في غير توازن مع خطاها.

«انا جميلة. نعم، نعم، لا حلوة فقط بل جميلة وهي كيف شكلها؟ لا بد من انها نحيفة. فالموسكوفيات نحيفات كلهن. يركضن على السلالم الكهربائية في المترو».

ان أمها هي التي اطلقت افكار داشا الى مجرى محدد، دون ان تعلم. كان عدم رضاها عن احاديث أمها شيئا مفتعلا. بالعكس انها شعرت بفرح طافح، وترقب لا يكبح كذلك الذي يشعر به المرء في السينما قبل فيلم جديد. ووضعت الأم كل شيء في موضعه. الدكتور يغازلها، ولكن لها في موسكو منافسة. آه، فان داشا قد كبرت تماما!

«وانا ماذا موقفي؟ – خاطبت داشا نفسها مرتبكة فجأة – اتراني واقعة في غرامه؟ لا. مجرد انه يعمل بحماسة. وهو، كما يبدو، رجل اجتماعي جيد. ولهذا السبب اراه لطيفا. هو غير وسيم على الاطلاق لا تمكن مقارنته مع فيودور. ان فيودور وسيم ولكنه غير لطيف. يعني انني لا احب هذا ولا ذاك. ولو أعشق

لاعشق كفانين فانيني. فمن سيكون معشوقي؟ لن يكون الكسندر دميتريفتش بالطبع. هو مجرد لطيف في نطاق العمل».

وصلت الى المستشفى وهي مستغرقة في مثل هذه الافكار، وبينما تجتاز البوابة رأت زيلينين يركض في الباحة مرتديا القميص وهو يمضغ شيئا ما اثناء ركضه. فصاحت في نفسها:

– مجنون!.. سيصاب بالبرد. مضحك للغاية. هل من المعقول ان اقع في غرامه؟

رأس ستكلياني

خرج زيلينين راكضا من البيت حتى دون ان يرتدي سترته لانه قد دعي الى محادثة تلفونية. وفكر: «أمن الممكن ان تكلمني اينا في مثل هذا الوقت المبكر!» الآن كان احدهمـا يتلفن للآخر بالتناوب، ليقسمـا تكاليف المحادثات بينهما بالتساوي.

كان المحاسب جالسا في حجرة الخفارة قرب التلفون. وكان كل صباح يجلب لزيلينين حزمة من الاوراق

«مرسلة من المركز» او مكتوبة هنا بيده. فضّ زيلينين الظروف السميكة وقرأ الاوامر التوجيهية الطويلة، والرسائل المنهجية، والاستفسارات، ودسها في درج الطاولة باذعان حزين. وراجع بحزن اشد كشوف المحاسب الهائلة.

وكان المحاسب يقول:

— انها، يا الكسندر دميتريفتش، حسابات التسليفات. ارجو التوقيع عليها.

— انت ستسجنني يا غريغوري سافيليفتش.

فابتسم المحاسب مرتاحا من قوته الخفية. الآن كانت سماعة التلفون موضوعة على الطاولة، ومن المحتمل ان يسمع صوت اينا منها ولم يرق لزيلينين وجود هذا الرجل الجاف الدعي باوراقه المضجرة كصداع الرأس.

— من يطلبني بالتلفون؟ — سأل زيلينين، وهو يتوقع ان يسمع جوابا على سؤاله ابتسامة ذات دلالة كبيرة.

— يطلبك رئيس سوفييت البلدة.

وتناول زيلينين السماعة.

— انا مصغ.

— تحية يا رفيق زيلينين. انباء غير سارة.

الانفلونزا تصيب الناس في رأس ستكلياني. وخمسون بالمائة من بولدوزراتنا معطلة من جراء ذلك.

— نعم، نعم. أعرف. لقد نويت الذهاب الى هناك اليوم.

— وانا ايضا ساذهب اليوم الى هناك بخصوص بناء المساكن. يمكنني ان اخذك معي.

— حسنا جدا.

— تعال الآن الى المشرب.

رفع زيلينين ياقته وهو يتمشى على شاطئ البحيرة قرب المشرب، ولف لفاحه اكثر احكامـــا. وكان لا يرتدي بعد قبعة مثيرا دهشة سكان المنطقة. فهنـا على شاطئ البحيرة كان الشتاء يلوح على الابواب. وكان زحف السحب الثلجية الثقيل من الشمال، من كاريليا، واضطراب الماء القاتم، والشجيرات العارية مثل اسلاك شائكة كلها صورة تبعث رعشة غير مريحة. انعطف زيلينين نحو الشارع. ما كان هناك الا اعرج يسير بعكازته على الممشى الخشبي بعيدا. وكانت كتل الدخان الرمادية تترنح فوق مداخن البيوت منسحبة نحو الارض. واقترب الاعرج ذو المشمع الازرق بهمة. وجفل الكسندر حين رأى الوجه العريض الاحمر.

اندمجت صورتا هذا الرجل في ذاكرته بلمحة واحدة. صورته في كورنيش دفورتسوفايا في لينينغراد. وجه مدور وعينان غائمتان... «الى اية جهة يميل عقرب بوصلتكم؟ او على نحو ادق، ما هي تطاولاتكم؟»

— «هذه سكائري المفضلة» — ابتسم الرجل اللابس سترة الخدمة من اللون الاخضر والجالس وراء المكتب في ود.

«لهذا السبب لم يرفع جسمه من كرسيه وهو يصافحني. كيف لم احدس ذلك حالا؟ طريف. ولكن ربما ليس هو على اية حال؟ كيف قدم نفسه الينا آنذاك؟ سيرغي يغوروف، صحيح. فسأجرب».

— تحية ايها الرفيق يغوروف!

— مرحبا، يا دكتور مرة اخرى. السيارة تتزود بالوقود. ستأتي حالا. فلنستنشق الهواء الطلق بينما نحن في انتظارها. واستنشق عدة انفاس عميقة وكأنه يقوم بتمرين طبي، ونظر صوب البحيرة وقال:

— انا احب هذه الناحية وكأنني ولدت هنا.

فقال زيلينين:

— ظننتك من المحليين.

– لا، انا من مدينة فورونيج. وصلت مع زوجتي بعد الحرب الى خرائبنا، فلم اعثر حتى على قبري والديّ. ثم اغرتني زوجتي بالمجيء الى منطقتها هنا. وجئنا ولم نجد ايضا غير المداخن منتصبة. جرت هنا معارك حامية. رمى الفنلنديون من مدافع الهاون. كان لهم حصن تحت الارض غير بعيد عن هنا.

جاءت سيارة جديدة من طراز «غاز – ٦٩» لها سقف من الجنفاص. وجلسا جنبا الى جنب في المقاعد الخلفية. وذكر يغوروف ان الذهاب الى رأس ستكلياني يتم عن طريق دائري طوله زهاء عشرين كيلومترا وذلك لعدم وجود طريق مباشر.

سارت السيارة خفيفة في طريق طيني مبلل. وكانت على جانبي الطريق غابة جعلها الخريف شفافة. ومروا بثلاث قرى واحدة قرب الاخرى. كانت البيوت الريفية المتداعية تمتد على طول السواقي الجانبية، وعلى شبابيكها رقع الالواح الخشبية تبدو مثل الغشاوات البيضاء في العيون. وكانت بعض الشبابيك مبرشمة بالالواح على شكل صلبان. مرة او مرتين قفزت من تحت عجلات السيارة خنازير صغيرة ضاوية كالجراء. وكان زيلينين ذاهلا.

تمتم:

— اي فقر هذا! ما السبب في ذلك؟

زفر يغوروف بصوت مسموع كما يفعل الشيوخ.

— أعوزت كولخوزاتنا. ألا تعرف؟

ومن أين كانت له المعرفة؟ كان في بساطته الروحية يعتبر من الريف حاضرة كاماروفو ذات الفيلات وهي ضاحيــة لينينغراد. ان سفرتين او ثلاثــا «لجمع البطاطس» لم تكشف له عن وجه القرية. فقد كانت السفرات «لجمع البطاطس» مرحة جدا مكتظة بالناس وكأنمـــا ذلك في استوديـو لينينغــراد للافلام بين الديكورات الخشبية. وكان ينظر بخلو بال الى المقالات التي كانت تظهر في الصحف من حين الى آخر عن وضع الزراعــة المقلق: ففي مخــازن لينينغــراد في السنوات الاخيرة كانت وفرة في المواد الغذائية. أما الآن فقد شعر بحراجة وكأنه قال شيئا غير لائق. وخيل اليه انه قد اصاب موجعا في جاره بسؤاله ولكن يغوروف نظر بمرحه السابق وبشيء من المزاح.

— هل سمعت بهذه النكتــة؟ اجتمع كولخوزيون ليقرروا كيف يساعدون الطلاب في جمع المحاصيل على نحو احسن. ها ــ ها ــ ها! هذا ما كان في الواقع تقريبا:

لم يساعدنا الطلاب بل نحن ساعدنا الطلاب بسبب هزالنا. تفرق القرويون جميعا على المدن. والآن يبدأون بالعودة. بل وبعضهم يبني البيوت.

وفي الواقع كانت تلوح وراء الصف الأول من البيوت المتداعية آلواح خشبية لبيوت جديدة.

– انظر، الاخوة فيرابونتوف يبنون لانفسهم فيلا على نمط المنازل الصيفية – قال يغوروف بصوت اكثر شبابا – انتظر يا عزيزي سنة او سنتين وستفور الحياة عندنا.

تسلقت السيارة تلا بهمة. وفجأة انداح منظر لبناء جديد. كان رأس ستكلياني يمتد في البحيرة على شكل مثلث اخضر معرش بالاشجار الصنوبرية. وكانت بضعة عنابر وحوالي عشرة بيوت فنلندية صغيرة تمتد بمحاذاة الماء محمية بمنحن خشبي متظللة تحت حماية قوس من الغابة. وكانت تتحرك سلسلتان مقابلتان من اللوريات ذات الاحواض التي تفرغ حمولتها اوتوماتيكيا. وكانت ثمة خفارتان تمدان خرطوميهما في الحفرة وكأن احداهما تنحني للاخرى.

انطلق السائق في المنحدر بسرعة جنونية، وكادت السيارة تسقط في ساقية حين تنحت عن لوري «ماز»

شبيه بالحيوان كانت عجلاته تنزلق اثناء صعوده المرتفع.

صاح يغوروف:

– جننت يا بيتكا!

– لا تقلق يا سيرغي سامسونوفيتش! – قال السائق في مرح – وصلنا على اية حال.

توقفت السيارة عند احد العنابر. ودخل يغوروف وزيلينين مكتب كبير المهندسين. كان الناس هناك جالسين بمحاذاة الجدران مرتدين المشمعات والستر المبطنة. نظر الى القادمين رجل جالس وراء المكتب له جبين أصفر عريض. وكانت خصلة من الشعر الخفيف تنقذه من ان يصنف بين الصلع.

قال الرجل:

– مرحبا بالسلطة السوفييتية! سلاما يا يغوروف.

– التحيات يا رفاق! – هتف يغوروف وكأنه مارشال اثناء الاستعراض، واقترب من المكتب، وشد على يد كبير المهندسين – صل لله، لقد جلبت لك دكتورا.

تهامس الجالسون عند الجدران. وأحس زيلينين بامتعاض. يا له من محسن، فقد جلب لهم دكتورا. وكأن الدكتور لم يأت بنفسه. وأخذ يصافح الحاضرين

بالتتالي وبشكل استعراضي وكأنه يريد اغاظته. وكان ذلك مستطابا كما يبدو.

وسمع من وراء ظهره صوتا يقول:

ـ الولد عالم، كما يبدو.

حزّ كبير المهندسين رقبته بحد يده، وقال:

ـ هذه هي حالنا يا دكتور. صرعت هذه السيدة الاجنبية غير المرغوب فيها التي اسمها «الانفلونزا» زهاء اربعين بالمائة من الناس. وبهذه المناسبة اظن ان قسما من الناس يتمارضون فقط. ومساعد الطبيب عندنا متخوف جدا.

ـ كيف ذاك يا يوري بيتروفيتش ـ صدر صوت متكدر من زاوية.

ـ اقول الحقيقة: انت تتخوف. عندنا، يا دكتور، فتوات أعني بعض الفتيان من المحكومين السابقين. والوضع معقد، حقا.

وراق رئيس المهندسين لزيلينين. كان من طراز رؤساء مشاريع البناء في القصص والافلام، رجلا متعبا جدا ذا عزيمة وسخرية وكأن جميع مواطن الضعف في الناس ظاهرة امامه. خلع الكسندر زيلينين معطفه، وأخرج مريوله من الحقيبة.

– اذا ما مانعت فطفت في العنابر، تفقدت المرضى.
– ارجو يا دكتور أن تولي اهتماما خاصا الى العنبر الثالث. اجتمع هناك فتيان مشبوهون. هل تصاحب الدكتور يا كوزميتش؟
– سؤال غريب يا يوري بيتروفيتش – دمدم الصوت المتكدر، وخرج من الزاوية مواطن ملول ذو أنف متدل يرتدي طاقية وبرّية لينينغرآدية، ومعطفا أسود.
ونادى كبير المهندسين:
– تيموشا! – وصار قرب المكتب فتى هائل جسيم – وانت ايضا اصحبه.
وأدرك زيلينين ان العنبر الثالث مسألة جدية.
خرجوا من المكتب، واتجهوا نحو العنابر للسكنى. سار تيموشا في المقدمة مجنحا ذراعيه قليلا، دافعا الى الأمام عنقه الشبيه بعنق الثور. وكان ظاهرا ان الفتى قد سرح من الاسطول البحري منذ فترة قصيرة.
سأل زيلينين:
– اعذرني. هل كنت تخدم في كرونشتادت!
قال تيموشا في اندهاش:
– بالضبط! هل كنت هناك؟

– كانت لي فرصة. ذهبنا ألى هناك للتطبيق. يخيّل اليّ انني رأيتك هناك.

ابتسم تيموشا.

– وأنا ايضا. انظر فاقول لنفسي: يبدو هذا الشخص غير غريب عليّ.

نظر احدهما الى الآخر. وقرر كلاهما في نفسه: حسنا. فلنفترض اننا التقينا في كرونشتادت بالفعل.

كان العنبر الثالث يضم اربعين سريرا على اقل تقدير. كان بعضها قد رتبت افرشته بدقة واشرقت بحواشي اغطيتها البيضاء. وكان البعض الآخر مغطى ببطانيات مجعدة. وكانت خيوط دخان السكائر اللولبية الزرقاء تطوف ببطء تحت السقف الواطئ. وكان التنفس هنا صعبا بعد الهواء الطلق. وفي الجو رائحة عرق وفودكا سيئة التصفية، وخرق محرقة. وحين طرق الباب قفزت جماعة من الشبان كانت جالسة على الارض قرب الموقد، ووثبت على اسرتها. وساد صمت. وسار زيلينين وتيموشا ومساعد الطبيب في الممشى بين الاسرة.

قال زيلينين:

– مرحبا ايها الرفاق.

— كان بودي ان اعرف الى اين ولى ذلك الكلب؟ — ارتفع صوت عال كسول.

— الظاهر انه ذهب ليشتري سكائر.

— اللعنة على مثل هؤلاء.

وصاحوا من الزاوية البعيدة:

— يا تيموشا، هل جئت لنا ببروفيسور؟ يا اولاد، سيرينا الآن هل نحن مرضى ام لا.

واندلعت ضجة في العنبر. أخذ الفتيان يتحدثون دون كلفة، ويضجون بشيء ما، ويتقاذفون السكائر من سرير الى سرير، وصفر احدهم.

— هدوء! — زعق تيموشا بصوت هائل، وصمت الجميع في الحال — كيف يسير مرضكم؟ هل كسبت كثيرا من النقود يا فيودور؟ وانت يا ابراهيم؟

— لا أعرف شيئا، لا افهم. رأسي يوجعني بشكل فظيع. — أجاب ابراهيم بذلك سريعا، واغمض عينيه.

— الآن سنعرف من الانسان الصحيح فيكم ومن الحيوان. تولّ القيادة يا دكتور.

قال زيلينين:

— لماذا أوصدتم الشبابيك يا رفاق؟ لا يوجد هواء

هنـا. مرق وهريسـة (صدرت ضحكة من الزاوية).
يا ادوارد كوزميتش وزع على الجميع المحرارات.

فهمس مساعد الطبيب:

– بلا فائدة، هؤلاء الشياطين سيرفعون الزئبق فيهـا.

– راقبهم. ايها الرفاق ارجو الكف عن التدخين وافتحوا نوافذ التهوية. ان فيروس الانفلونزا تخاف من الهواء الطلق.

قال تيموشا:

– اي فيروس هناك! كلهم متمارضون!

– لا أعرف هذا.

وتقدم من اقصى سرير، واستجوب المريض وفق جميع قواعد العيادة الطبية، وجعله يخلع قميصه، وتسمع في السماعة، وفحص لوزتيه. وأخذ الشبان يضجرون تحت عين تيموشـا اليقظة، ويتأبطون المحرارات. وجلس ابراهيم الاسمر النحيل على السرير ساحبا عليه البطانية حتى ذقنه هازا نفسه مغمغما بشيء، مغنيا بوحشة وكأنما يرتجل اغنية. واصغى زيلينين.

ردد ابراهيم:

يدعوني الطليعيون،
لانضم الى فريقهم.
وما حاجتي الى دراهمهم
أنا ابراهيم الحر.

ان هذا الرجل ذا العينين الحزينتين، ابرآهيم ينالييف، عاش في السنوات الاخيرة في شبه سبات. في عام ١٩٥٣ حين انتشر المحكومون الجنائيون المعفى عنهم في ارجاء البلاد شعر هو وآخرون غيره بفرح طاغ لا غير. هاموا في حشود الناس الطلقاء، ودققوا النظر في حياة الناس الاعتيادية فلم يعرفوا الى اين يولون وجوههم. كثيرون منهم وجدوا لهم مكانا، وبدأوا حياة جديدة، وكثيرون عادوا من حيث جاؤوا دون ان يصلوا حتى الى ارض دافئة. وبعضهم، كابراهيم، تنقلوا من موقع بناء الى آخر، ومن مصنع الى آخر، ومن مدينة الى أخرى غير عائدين الى طريق الجريمة السابق، ولكن دون ان يعزموا على التخلص من عادات المعتقلات ونظراتها الى الاشياء. سجلوا للذهاب الى مواقع البناء ثم تخفوا بعد ان حصلوا على علاوات السفر، واحتسوا في الاقسام

الداخلية الكحول الصرف والشاي القوي، ولعبوا القمار على مراهنات كبيرة، وتحايلوا حتى لا يعملوا.

همس مساعد الطبيب في اذن زيلينين:

ـ انه رئيس العصابة هنا. هو وثلاثة من اصدقائه من المحكومين المعفى عنهم. احدهم من المحليين من كروغلوغوريه نفسها، شخصية وحشية. انظر.

أدار زيلينين بصره الى الناحية التي أومأ اليها مساعد الطبيب وجفل. وكان قد خامره منذ زمن بعيد احساس بأن أحدا من الناس يقف وراءه، متحفزا الى الانقضاض عليه حتى يهشم عظامه. والآن ادرك سبب هذا الاحساس: كانت عينان رماديتان مرعبتان تنظران اليه بامعان دون ان يرف لهما جفن. هما عينان فتى له جسم رياضي كان يضطجع فوق بطانية شابكا ذراعيه العاريتين فوق صدره. وكانت هاتان الذراعان الجبارتان الموشومتان اللتان تتراقصان تحت جلديهما عضلتان مدورتان بفتور تشبهان ثعبانين خرافيين اشبعا كثيرا. وعلى العموم لقد بدا ان هذا الفتى لم يحطم ما حوله لسبب واحد هو انه كان في تلك اللحظة شبعان بشكل لعين. وكانت تطوف على شفتيه ابتسامة هازئة غريبة جدا.

وادرك الكسندر فجأة انه «قاتل!» وارتخت رجلاه. واستولى عليه شعور كريه بالضعف والعجز. وتقدم من الفتى وكأنه تحت تأثير تنويم مغناطيسي وقال:

– ناولني المحرار.

– تفضل يا دكتور – اجاب الفتى بصوت لطيف مؤدب على غير انتظار. ولاحظ زيلينين أنه وسيم جدا. وله تقاطيع وجه متناسقة، وشعر طويل اجعد كتاني اللون.

كانت درجة الحرارة اعتيادية. وتسمع زيلينين لقلبه، كان يدق دقات محرك عظيم. وكانت رئتاه تتنفسان كمنفاخين.

وسأله زيلينين:

– ماذا يوجعك؟

أجاب الفتى في ابتسامة عريضة:

– لا شيء.

– ألا يوجعك رأسك او لوزتاك أو بطنك؟

– كل شيء على نحو طبيعي. ولكن قلبي يوجعني قليلا.

– من اي شيء؟

– انا عاشق.

قرأ زيلينين على قدمي الفتى هذه العبارة: «انهما تعبتان». وصار الامر مضحكا. فطوى الطبيب سماعته. وحشرها في جيبه. وزايله الشعور الغريب المخجل - من اين جاء يا ترى؟ - وعاد واثقا من نفسه مرة اخرى.

وقال الفتى فجأة بهدوء وجلاء:

- يجب تمديد الاجازة المرضية.

- على أي اساس؟

- على اساس قرابة. فأنا وانت مثل ذوي قربى.

- ماذا تعني؟ - اندهش زيلينين.

- قضيتنا واحدة: داشا غوريانوفا. - ثم صرخ فجأة - هل فهمت يا شيخ؟

- كف عن الهراء! - قال زيلينين بحدة، وابتعد عنه رافعا ذقنه. وفكر مع نفسه: «هكذا اذن! داشا وهذا الوغد؟ غريب وبعيد عن التصديق. فتاة حلوة شريفة و... يعني انهم يثرثرون حولي ايضا. فهل اعطيت انا الفرصة لتقولاتهم؟»

سأل مساعد الطبيب:

- هل تعارفتما؟

- من هو؟

- فيودور بوغروف.

واستمر الفحص. وفجأة صرّ الباب. ودخل رجل يترنح في لباس عمل ملطخ بالطين. سار في الممشى كالأعمى، وانهار على سريره. واندفع تيموشا نحوه، وهزّه من كتفه.

- فيتكا يا صديقي ماذا بك؟

قال مساعد الطبيب:

- طلبت منه يوم امس ان يلازم السرير. ولكنه عاد الى العمل مرة اخرى. بالامس كانت درجة حرارته تسعا وثلاثين وثلاثة اعشار.

خلع تيموشا ملابس فيتكا بعجلة وعناية ودس محرارا تحت ابطه ودثره بالبطانية. ثم رفع قامته، ووجه بصره صوب ابراهيم وفيودور. وقال بهدوء ووضوح:

- خنازير!

من بين الاثني عشر شخصا كان اربعة اشخاص فقط بدرجة حرارة مرتفعة. بينما كانت حرارة الآخرين اعتيادية. ولكن الجميع، ما خلا بوغروف يشكون من الصداع ووجع العظام والغثيان.

قال زيلينين:

- الانفلونزا تتخذ الآن أكثر الاشكال تنوعا وخروجا

عن الشكل المألوف. وقد تحدث دون ارتفاع في درجة الحرارة. ولهذا ليس في امكاني ان اقول من المريض منكم فعلا ومن المتمارض. والحق ان هناك شخصا ـ ونظر صوب فيودور فابتسم هذا ولوح له بقبضته الهائلة ـ الحق ان هناك شخصا واحدا متمارضا بشكل واضح. وانا أعني بذلك فيودور بوغروف. وقد حاول ان يخيفني. أما الآخرون... فهذه قضية تعود الى ضمائركم.

صاح ابراهيم فجأة:

ـ لماذا لا يوزعون علينا الاحذية المطاطية؟

ورفع شاب حذائين اعتياديين فوق رأسه:

ـ جرب يا دكتور ان تخوض في الماء بمثل هذه الاحذية. في الواقع يمكن ان يمرض الانسان بهذا الشكل.

رفع تيموشا يده:

ـ هدوء! انظروا يا صعاليك الى اي حد أفنى فيتكا نفسه! وذلك لانه كومسومولي حقيقي. قلبه يلتهب حماسا للقضية. اما انتم... ـ ولوح بيده ـ حثالات... اللعنة عليكم جميعا! ستأتي الاحذية غدا عندما يصل الصندل.

قفز ابراهيم من السرير، وركض نحو تيموشا حافيا وبملابسه الداخلية:

– تقول حثالات؟ يعني اذا كان الشخص مسجونا فهو ليس بانسان؟ يا دكتور لماذا يحتقروني؟ يدعوني الى حضور اجتماع، ولكنه يمسك جيبه حين احضر.

فارسل تيموشا ضحكة مقتضبة:

– لا تقل هراء. لا يعنيني ماضيك. لو عملت بنزاهة لاعتبروك انسانا. قل الحق يا ابراهيم: هل انت مريض؟

صاح ابراهيم:

– معافى! وانا خارج الى العمل. واذهبوا الى الشيطان!

واندفع عائدا الى سريره بجنون، وأخذ يرتدي ملابسه.

– هيا! – قال زيلينين وفتح الباب. ودون ارادته نظر الى فيودور لآخر مرة، فهزّ هذا قبضته عليه ثانية. ومرة اخرى تملك الرعب زيلينين للحظة.

في مقدمة العنبر حشر تيموشا سيكارة رفيعة في فمه وقال من خلال اسنانه:

– سننتقد فيودور بوغروف في اجتماع. سأطرح هذه القضية غداً.

وتنهد مساعد الطبيب:

– هؤلاء هم، شباب هذا الزمان.

– هذا الز... مان – قلده تيموشا. وكان منفعلا جدا. وقال ان الناس في العنابر الأخرى واعون، وودّع زيلينين، وقفز الى مرقاة لوري عابر.

عمل زيلينين مع مساعد الطبيب عدة ساعات. ووصف العلاج لكل المرضى، وأمر بنقل الذين كانوا في حالة شديدة الى المستشفى. ثم عادا الى مكتب كبير المهندسين بعد انتهاء الدورة.

سأل كبير المهندسين:

– كيف كان الأمر في العنبر الثالث؟ هل هناك متمارضون؟

– يوجد بالطبع، ولكن...

– لا أعرف ماذا كان في ذهن موظفي قسم الملاكات. قبلوا محكومين جنائيين سابقين من مثل ابراهيم.

قال الكسندر بصوت خافت:

– يبدو لي ان ابراهيم هذا ليس شخصا سيئا

من حيث الجوهر، لو عومل دون الالتفات الى ماضيه...

– جربنا ذلك. مثل هؤلاء لا يمكن أن يغسلوا ولو بالماء المقدس.

فتدخل يغوروف:

– ليس ذلك صحيحا. انت نفسك تعرف يا يوري بيتروفيتش ان ذلك ليس صحيحا. فغالبا ما يعوزنا الوقت، وفي بعض الاحيان تنقصنا الرغبة في تفهم الانسان. نحن ننسى، ايها الاصدقاء، ان لكل انسان فرد عالمه الداخلي الخاص به.

نظر زيلينين في دهشة الى يغوّروف، كما نظر اليه رئيس المهندسين، وضحك ضحكة مقتضبة، وسأل زيلينين عما اذا كان المستشفى بحاجة الى معونة لاجراء اصلاح فيه، او نقل وقود اليه.

– تذكر يا دكتور، ان لك آلآن عما غنيا.

وسمع وراء الباب فجأة صوت عال غاضب، واندفع الى الغرفة شاب يرتدي سترة جلدية.

وصاح:

– يوري بيتروفيتش، اين ذلك الاسمنت؟

قفز كبير المهندسين. وتغاضب الرجلان بضع

دقائق ولكن بلا موجدة. وخيل لزيلينين ان هيكل الرجل ذي السترة الجلدية ووجهه وايماءاته غير غريبة عليه. وقع كبير المهندسين ورقة اختطفها الشاب ووضعها في جيبه، واستدار وصفر باستغراب، ومد يده آلى زيلينين:

– مرحبا!

– مرحبا! – وصافحه زيلينين في شك.

– آلا تعرفني؟ لا عجب في هذا: فأنت لم ترني الا من خلال الشبكة. أتذكر كيف سددت لك كبسة؟ حتى انك فقدت نظارتك.

– ليسي*! – صاح زيلينين بفرح، وقفز.

والآن عرف هذا الشاب من فرقة الكرة الطائرة لمعهد البناء. وتغانقا. كان احدهما يوجه للآخر ضربات كالقذائف في القاعات الكبيرة الوضاءة وبعد اللعب ينصرفان غير متعارفين. ولكنهما هنا، على شاطئ البحيرة الباردة، في المكتب الذي يتردد عليه ناس كثيرون، التقيـــا كعضوين في الرابطة الاخوية الموحدة لطلاب لينينغراد لا سيما الرياضيون منهم.

---

* الحروف الأولى من معهد البناء الهندسي اللينينغرادي.

وتهلل زيلينين فرحا. فتصور فقط انه قد جاء الى هنا وكأنه قد خرج الى صحراء، ولكنه يلتقي بلاعبي كرة طائرة يعرفهم! لو التقى بالكسي ماكسيموف لما كان فرحه اعظم بكثير.

— كان فريقكم لا بأس به. على الاخص ذلك الفتى الغاضب الذي كان مدافعا.

— ماكسيموف؟

— يبدو كذلك. اين هو الآن؟

— أوه، ايها الاخ، انه سيخرج قريبا في رحلة بحرية بعيدة. عيّن في الاسطول التجاري! اسمع وماذا لو انظمنا هنا تدريبا؟

— يا دكتور، اشرب قطرات للتهدئة! أين سيكون التدريب؟ في قاع البحيرة؟

— انتظر، يمكن ان نفكر بحل.

كان الشاب يدعى بوريسا. صاحب زيلينين الى مدخل المكتب، واتفقا على ان يزوره بعد ايام. وذهب زيلينين ويغوروف الى سيارتهما.

— وماذا عن بناء المساكن يا سيرغي سامسونوفيتش؟

ركن يغوروف عكازته في الطين، ونشر ذراعه اليسرى وقال بمرح مستشهداً بكلمات بوشكين:

– «هنا ستنشأ مدينة رغم الجار المتعجرف».

– اي جار هذا؟

– عندنا بلدة صغيرة غير بعيد من هنـــا أكبر قليلا من كروغلوغوريه. ولكنها متغطرسة.

يغوروف

كانت الاغباش الأولى تحتضن موقع البناء، والبحيرة وتمحو خط الافق. وكانت تنزل من اعماق السماء الرمادية الداكنة ندف ثلج هزيلة. كانت تلمع كالنجوم حين تقع في ضوء المصباحين الاماميين، وترقد على الطريق لتسحقها العجلات في الحال. والسيارة تسير صاعدة ببطء. والآن غمرتها الظلمة. وصار السائق بيتكا اكثر حذرا. سارت السيارة كالعمياء باسطة الى الأمام ذراعين صفراوين طويلتين شاقة بهما طريقها وسط اعواد حور الرجراج الدقيقة.

– هل ندخن يا دكتور؟

– شكرا. عندي سكائري.

– حسنا، ما رأيك في رأس ستكلياني؟

– أتعرف، انه قد مدني بحيوية جديدة. يظهر ان هناك حياة تفور على مقربة دانية من حاضرتنا كروغلوغوريه.

– نعم، نعم – بادر يغوروف بحماس – وفي كروغلوغوريه ستحدث تغيرات ايضا عن قريب! سنمد طريقا عموميا على شاطئ البحيرة وننشئ على طوله بيوتا، ونسيّر باصات. وستندمج الحاضرة بموقع البناء، فتكون مدينة كروغلوغورسك.

– ربما من الاحسن ان نسمي «نيو – موسكو»؟ – لم يتمالك زيلينين من ان يقول. ثم فكر مع نفسه: «لماذا قلت ذلك؟ ان الرجل يحلم».

ضحك يغوروف وصمت قليلا، ثم قال فجأة دون اية مناسبة:

– ان الناس هنا حسنون جدا.

وكأنه أراد ان يسأل زيلينين عن ذلك، ولكنه فكر وعبر عن سؤاله بشكل حقيقة ثابتة.

سأل الكسندر:

– هل الجميع حسنون؟

– أنا لا اعرف السيئين.

– وفيودور بوغروف هل تعرفه؟ اي شخص هو؟

– وانت من اين تعرفه؟ – سأل يغوروف بسرعة.

– هو متمارض من العنبر الثالث.

– أها. هكذا اذن! يعني هو هنا. كنت اظن انه قد غادر الى تجواله مرة اخرى – وأشعل عود ثقاب، وصمت ثانية ثم عاد يقول – فيودور شخص سيئ. انه يظهر في ناحيتنا مرة في العام، ويجلب معه نقودا كثيرة ويقول انه يعمل في مواقع البناء. ولكنني اتوجس انه يكذب. وقح لا اخلاق له، وسكير. يتوجع الناس حين يكون هنا.

– وهل له عائلة هنا؟

– لا. أمه ماتت قبل عامين. ثم أنه لم يكن يعيش معها تقريبا. فربته جدته في مدينة غاتشينا منذ ان كان في العاشرة. جدته ساحرة تتعامل بالاعشاب وثرية جدا. وقد قالوا لي في المليشيا انهم يظنون أنها تقوم باكثر من المتاجرة بالاعشاب والشعوذة. ولكنها حاذقة جدا، كانت تضيع كل أثر. وحتى هذا اليوم تثري في مدينة غاتشينا.

– ولماذا جاء الى هنا الآن؟

نظر يغوروف الى زيلينين من طرف عينه.

ـ أولا ان بيته بقي هنا، ثانيا إن له حبيبة.

فسأل زيلينين بجرأة:

ـ داشا غوريانوفا؟

ـ ن... عم ـ قـال يغوروف ذلك ونظر الى ظهر السائق نظرة ذات معنى ـ نعم، ممرضتك، الشقراء ذاتها.

ـ وهي تحبه ايضا؟

تأوه يغوروف ارتباكا. وقال لنفسه: دكتور احمق يظن نفسه في تكسي عابر، ويبدي قلقه ايضا!

وصاح يغوروف مخاطبا السائق:

ـ هل تظن يا بيتيا أن داشا تحب فيودور بوغروف؟

جفل السائق. والظاهر انه كان يسارق السمع طوال الوقت.

ثم ضحك بصوت ابح وقال:

ـ داشا؟ هي ما تزال صغيرة لا تعرف المفاضلة بين الاشياء.

وفهم زيلينين أن يغوروف قد حذره بشكل ودي. يكفيه من هذا أن شائعات غامضة تنتشر في الحاضرة. ولكن أليس ذلك هراء؟ لقد بدا له أن صلته باينا

قد توثقت في الاسابيع الاخيرة، فالمحادثات التلفونية ما بين يوم وآخر على الأقل، وهناك رسائل طويلة، وتبادل الصور الفوتوغرافية. والآن تقف اينا الواحدة على مكتبه. وجه ضاحك، وعنق اتلع، وترقوتان بارزتان قليلا. والأخرى اصغر – ستة على تسعة سنتيمترا – سددت الى قلبه نظرة نجلاء فاحصة. واقنع زيلينين نفسه بانه مغرم، وان ذلك الصوت الذي يصل اليه من خلال سماعة التلفون مخرخشا، وان تلك الاوراق السماوية المكتوبة بخط دقيق، وان تلك الصور الفوتوغرافية المتقنة – كل ذلك في مجموعه هو تلك الفتاة التي القت ذراعها على كتفه في زحام الرقص، ونظرت اليه من تحت الى فوق، ولكن كما ينظر الناس الى طفل صعد على طاولة. وفي الواقع لم تكن رسائلهما ومحادثاتهما التلفونية الا محـــاولات متشنجة للحفاظ على تلك الامسية الفريدة، والامساك بذيل الطائر الازرق الاسطوري الذي لمع في ساحة الرقص. وكان زيلينين يردد، قبل نومه، بعض الكلمات السرية وكأنها «ابونا الذي في السماوات» وينظر الى صورة اينا، وينام في سكينة. أما داشا غوريانوفا فقد حاول

أن تكون علاقته بها اكثر جفافا وبحدود الرسميات. وفي احايين كان يفلح في ان يرى فيها «رفيقة عمل» لا غير. ولكن لقاء اليوم عكر صفو هدوئه لسبب لا يدريه. ارتجف حين تخيل داشا في احضان ذلك الوسيم المتجشئ شبعا.

سمع صوت السائق:

— فيودور ابن كلبة.

فسأله يغوروف:

— ولماذا تشرب معه الفودكا؟

— ولم لا اشرب حين يدعوني؟ وعلى العموم انه شاب مرح له مقدرة على جذب الناس اليه.

— اسمع يا دكتور اي شخص هو: ادعه الى كأس وسيركض نحوك حتى ولو كان يعتبرك ابن كلبة. لعلك ما كنت لتمانع، يا بيوتر، في الشرب مع العدو في برودرشافت أليس كذلك؟

— كلا، ابدا — قال السائق في جفاف. وكانت كتفاه المخفيتان في سترة مبطنة، ورأسه المعتمر بقبعة ممالة على قفاه يلوح مثل شبح نزق واضح المعالم على خلفية الضوء السابح. ثم سأل السائق: — الى السوفييت أم الى البيت؟

– الى البيت يا بيتيا – وهمس يغوروف لالكسندر – تكدر الفتى. انظر اليه كيف انتفخ كالفأر. انه فتى طيب. ولكن رجالنا – وهذه قضية مهمة – يحتسون الخمر كثيرا. انها عادة، يا الكسندر دميتريفتش، توارثها خلف عن سلف منذ الازل. وهم يعتبرون الفودكا انجع دواء في الدنيا. وأنا في بعض الاحيان افكر: ألعل فيها فيتامينا في واقع الامر؟ عندنا شيوخ ذوو لمم شعثاء يحتسون الخمرة وهم في المائة من العمر دون أن يعبأوا بشيء، ويخرجون الى الصيد.

قال زيلينين:

– لو كانوا لا يحتسون الخمرة لعاشوا مائة وخمسين.

– هذه ما اظنه أنا أيضا. جاء اليّ اعضاء الكومسومول ذات مرة يريدون أن يشنوا كفاحا حاسما ضد السكر. جميل لو تنضم اليهم، وتشرح القضية من الناحية العلمية.

– القي محاضرة؟

– يمكنك ان تفكر في الامر بنفسك.

توقفت السيارة عند بيت صغير في الشارع الرئيسي

في كروغلوغوريه. وسقط ضوء مصباحي السيارة على شبابيك باطاراتهـا المنحوتة بشكل بـارع كانت تتناقض بغرابة مع مصباح طاولة عادي له قلنسوة خضراء كان يلوح من خلال الزجاج. وكانت الستائر من الدنتلا توحي بالدفء والنظافة وحسن المعاشرة. واثفر زيلينين كثيرا من التسكع في فناء المستشفى، الى شقته الفارغة.

— هل لك ان تدخل بيتي يا دكتور، وتتعرف على زوجتي؟ — سأل يغوروف بصوت هازل غير طبيعي.

— بكل سرور يا سيرغي سامسونوفيتش.

ربت يغوروف على كتف الكسندر بقوة ودون انتظار.

— شاطر! تتعشى مرة واحدة على الأقل بشكل معتبر. اغلب الظن انك مللت من اكل الجبن؟

— ومن اين تدري؟ — سأل الكسندر في اندهاش.

— هنا لا تخفى على احد خافية ايها الاخ.

كانت يكاترينا ايلينيتشنا زوجة رئيس السوفييت تعقد على رأسها منديلا على الطريقة القروية، وترتدي بلوزا صوفيا انيقا من تشيكوسلوفاكيا.

قالت:

– هل تشرب شيئا من خمرة كروغلوغوريه يا الكسندر دميتريفتش؟ مع سمك ليس المدخن. اقترحه عليك جدا.

فصحح يغوروف:

– انه يدعى لبيس يا كاتيا.

–وليكن. تفضل. والق في الشاي سكرا. لماذا لا تلقي؟

– قولي، يا كاترينا: ضع، لا الق. ان المرأة لا تقبل التأديب يا الكسندر دميتريفتش. يا لي منك يا كروغلوغوريه – وضمها اليه بلطف واعتزاز.

مسدت يكاترينا ايلينيتشنا شعره:

– ان زوجي عالم مثلك. يقرأ كل ليلة حتى الساعة الثالثة. أما انا فأمية – وابتسمت. ولكنما خيل الى الكسندر ان تعبيرا مريرا لاح في عينيها – حدثني سيرغي ان في الالمانيا اربعة كافات من اجل النساء*. فهل هذا صحيح؟

---

* Kinder, Kleider, Kirchen, Küchen – اطفال والبسة وكنيسة ومطبخ.

— ولماذا تقلقين يـا كاتيـا؟ فانت امرأة عمل اجتماعي.

— ولكن «عملي الاجتماعي» قد ضج — وابتسمت بمرح، واشارت الى الباب الذي صدرت من ورائه ضجة أولاد — انا ذاهبة اليهم. اسمحوا لي.

شيعها يغوروف ببصره، وتنهد ثم قال:

— في بعض الاحيان الازم البيت واطالع، والزوجة تحوك. والاولاد يبنون بالمكعبات شيئا ما بوداعة. وفجأة اشعر بقلق وخوف لا يطاق: ماذا لو انهار كل هذا فجأة؟ وأظن أن هذه المشاعر تخامر اصدقاء آخرين ايضا، سعداء في حياتهم العائلية. والظاهر ان هذا ينشأ من كثرة المحن كثرة لتنسيك اياه في الحال. هل تفهمني؟

— بالطبع، أفهم. ألعل هذا الارتياب في تماسك سعادتنا وتوقع اجتياح قوى الظلام الهدامة متوارث عندنا من القدم ولن يشعر به خلفنا في المستقبل.

ادار يغوروف كأسه بتفكير، وابتسم عدة مرات صامتا، ثم قهقه فجأة.

— الآن فكرت يا دكتور لو ان ساقي كلتيهما كانتا سليمتين لكان من المشكوك فيه ان احظى الآن

بهذه الحياة العائلية الهادئة. قبل الحرب كنت أحب الرقص كثيراً، وكنت ثرثارا كبيرا. وفي حفلات الرقص، تعرف...

ـ احيانا في حفلة رقص ايضا... ـ انشأ الكسندر يقول ولكنه لم يتم قوله.

صب يغوروف الخمرة في كاسين.

ـ هيّا يا دكتور، نشرب نخب استئصال السكر مائة في المائة من جميع انحاء كروغلوغوريه.

جرع زيلينين كأسا من ألذع خمرة، وقلّص عينيه، وتناول بشوكته قطعة فطر مخلل لزجة وازدردها ودس يده ليخرج سيكارة. وطاف في رأسه طنين احتفالات كأنه صادر من مكان بعيد. وتدفق الدم الى عينيه، وتراءى له من خلال دخان السكائر قمر ارجواني ـ وجه مستدير ذو عينين انيستين ضيقتين.

وقال الكسندر في شيطنة رخيصة:

ـ أنا اعرفك.

قفز القمر الارجواني، واتسعت العينان اللامعتان.

ـ هل يدوخ رأسك؟

ـ لا، كل شيء على ما يرام. حاول ان تتذكر.

كورنيش دفورتسوفايا، واثنان من المتسكعين الاراذل يهينان محاربا قديما.

— اوي! — صاح يغوروف واخفى وجهه بيده — يعني كنت احدهما؟ — قال ذلك بصوت خافت. — وانا ايضا في البداية صدّعت رأسي لاتذكر اين رأيتك. يا للشياطين، ما اشد خجلي!

قال زيلينين:

— وخجلي ايضا.

— وما ذنبك انت؟ انا الذي تحرشت. هل تِصدق ان هذه هي المرة الأولى التي فقدت فيها السيطرة على نفسي. كل ذلك بسبب ذلك المحراك العجوز ميشكا سازونوف. لم نتلاق اربعة عشر عاما، وفجأة اصطدم به وانا خارج من دار الكتاب. حياته تعقدت. وعليه لطخة من الصعب غسلها.

— اية لطخة؟ — سأل الكسندر بالرغم من ان اهتمامه كان منصبا على شيء آخر.

— كان سلوك ميخائيل في القتال ممتازا. ولكنه خاف من الموت وهو في الاسر. ساقوهم الى حرش بتولا. وأخذوا يصنفون الاسرى. اليهود والشيوعيون يقتلون في حفرة. فدفن ميشكا بطاقته الحزبية تحت

شجرة بتولا. بثت تلك الحفرة الذعر في نفسه. والآن احكم عليه: وغد هو أم لا؟

اجاب زيلينين ببطء:

– لا اعرف. اختيار مريع... ربما هو ليس وغدا، ولكنه ليس شيوعيا. مجرد انسان صغير.

– ذ...عم. وباختصار توجه ميخائيل بعد الحرب الى ذلك الحرش. وظل يحفر في الليل طوال اسبوع.

فارتعش زيلينين:

– وماذا؟

– واخرج عظاما كثيرة، وقطعا معدنية: أزرارا، وابزيمات، وحرابا. يبدو انه اصيب بصدمة حينذاك. وعومل في تلك السنين كآخر وغد وخائن.

صب يغوروف لنفسه قدحا، وشرب ببطء. وتخطى الكسندر ببصره وحدق في زاوية.

– هذه قصة حكاها لي صديقي. وانا افكر في أن اجلبه الى هنا. فقد وجدت له عملا: قبطان تعويم الاخشاب. فانا وهو قد تركنا معهد الطرق المائية الى الجبهة...

وبدت شكوكه ومشاكله ومشاكل اصدقائه ضئيلة لزيلينين بالقياس الى تلك التي مرّ بها هؤلاء الرجال

في سنيهم الاربعين! وكأن كل واحد منهم قد مرّ باختبار في الصلابة، مرر بملقاط خلال النار، وطرق بالمطرقة، وادخل في الماء البارد وهو يلتهب. «وجيلنا؟ انه سؤال: هل سنصمد في امتحـان كهذا للشجاعة والايمان؟ كف عن الكلام. ماذا تقول؟ جيلنا... تيموشا، فكتور، هؤلاء هم. هل قوتهم لا ترى من النظرة الأولى؟ ونحن، شبان المدن، الناظرين بسخرية الى كل شيء في العالم، هواة الجاز والرياضة، والموضة في الثياب، نحن الذين نتصور انفسنا، في بعض الاحيان، ما لا يعلمه الا الشيطان، ولكننا لا نتحايل، ولا نستدرّ الثقة، ولا نتسفل، ولا نتطفل، ونسعى، خائفين من الكلمات الرفيعة، الى ان نحتفظ بنقاء نفوسنا، هل نحن قادرون على شيء من هذا القبيل؟ نعم، قادرون! لا ضير في ان يتصور ماكسيموف نفسه ساخرا تعبا. فأنا واثق من انه صاحب مقدرة. وفلادكا ايضا...»

— يا سيرغي سامسونوفيتش، هل تذكر ولو بعض ما تحدثنا به آنذاك؟

قلص يغوروف عينيه، وهزّ يده في أذى:

— ما حدث هنا كان شجار خمرة تماما.

عجيب انه لا يتذكر شيئا. انها حادثة مزعجة

سخيفة بالنسبة له. ومع ذلك فان تلك المناوشة بالذات حملت زيلينين الى كروغلوغوريه.

— يبدو انني تذكرت شيئا. رأيت شابين... تذكرت! بدا لي انكما شبيهان بشبان الموضة المتحذلقين، فقصدت ان استوضح بعض القضايا. اما ما تفوهت به فلا اذكره.

— اردت ان تستوضح الى اية جهة يميل عقرب بوصلتنا، او على نحو ادق، ما هي تطاولاتنا.

جحظ يغوروف عينيه في اندهاش، وقهقه:

— هل انت جاد؟ كانت تلك نكتتنا في المعهد. ربما قد استعملتها كفاتحة للحديث.

— أما أنا فقد ظننت انك تعرض مستوى ثقافتك.

— انظر ما اصعب أن يفهم الناس بعضهم بعضا.

— ولكن ما كان يقلقك على اية حال؟ وارجو المعذرة من الالحاح. من الضروري لي ان افهم ذلك.

— ما كان يقلقني — طوف يغوروف بصره في جدران ونوافذ وسقف بيته. — لقد كان مساء غريبا منذ البداية، وقد خامرتني مشاعر غريبة ايضا. انا لم اذهب الى مدينة كبيرة منذ سنين عديدة. لم ابرح هذا المكان منذ ان جئت اليه بعد الحرب. وفجأة آجد

نفسي على ضفة النيفا في أول المساء اقف قرب حائط شاعرا بانني مسكين ريفي بساق واحدة. امامي يزخر الرصيف بالناس اصحاء مرحين، شبانا وفتيات رشيقات جريئات، ثم هناك الجانب المبتذل بالطبع. فتيان مستهترون يسيرون زرافات. وموسيقى من المقهى... وافكر، او بالاحرى، اشعر بحاسة سادسة اضافية تقول لي: يا يغوروف انت ابله ومثالي، من يعترف من هؤلاء الناس بـ«اعمالكَ العظيمة» في الحقل الزراعي؟ واية فتاة تهدي لكَ ابتسامة؟ انكَ لم تر الحياة، ولم تعرف الصبا. فانظر الآن وامضغ مرفقيك. وهنا هتف قلبي مصعوقا مذعورا: «غير صحيح! يا جراء! لن تعرفوا ابدا شهوة القبلات التي تلوح كل واحدة منها القبلة الاخيرة، ولن تشعروا في الحياة بأن للموت اصابع صلبة، ولن تغيم رؤوسك، ولن تحتدم صدوركم بعاصفة الشباب! اتذكرون الاغنية القائلة: «قادنا الشباب الى آمتشاق الحراب، ورمانا على جليد كرونشتادت»؟ اما انتم فالى اين رماكم يا عشراء الارصفة المساكين الفارغين؟» الا ان دماغي تدخل في الموضوع وقال لي: «قف يا يغوروف! ماذا بك؟ ألم تر شبان اليوم من قبل؟ ألا تعرف

كيف بوسعهم ان يعملوا؟ انهم يتمشون مرحين في شارع نيفسكي، ويتبادلون القبل. ولكنهم ايضا يسافرون الى الشرق على عربات حمولة، كما سافرت انت ذات مرة الى الغرب. آنهم يجوبون الغابات البكر ويصعدون على الافران العالية. اما هؤلاء المتبطلون المستهترون... أولا، انهم ليسوا كثارا وثانيا، هل تعرف ماذا في قلوبهم؟» هكذا هتف بي دماغي وقلبي وحاستي السادسة الاضافية. اعذرني يا دكتور على التهكم على علم التشريح والفسلجة الطبيعي. ثم التقيت بميخائيل.

كان زيلينين يستمع الى يغوروف وهو يمتص من سيكارته انفاسا عصبية. يعني انه كان علىٰ حق حين آدرك ان وراء الكلمات الثملة لنفس طيبة يكمن معنى كبير. ولكن الكسي لم يفهم ذلك.

– والآن هل وجدت جوابا يا سيرغي سامسونوفيتش؟

اجاب يغوروف:

– ليس تماما.

واستدار على كرسيه ليدير الراديو الموضوع على الكوميدينو وراءه. ونظر الكسندر الى قفاه القوي الحليق، وفكر ان مثل هذه الامسيات تصادق بين

الناس. وملأ ازيز الراديو الرتيب الغرفة. وضغط يغوروف على المحولات وادار المؤشر، والتقط خشخشات اثيرية، وعزف كمان، وصوتا عجولا ضجرا في لغة اجنبية، وعلت اصوات جبارة قلقة لاوركسترا سيمفونية. وفجأة تخلل الموسيقى السيمفونية، وغمرها بالتدريج ضجيج جاز متعجرف: «لا شيء يعنينا، فليذهب الجميع الى الشيطان. لا يعنينا». وحين ساد الصمت ارتفعت اشارات واضحة واثقة هادئة من اغنية مألوفة منذ الطفولة «وطني رحيب، وطني رحيب...».

سأل زيلينين:

– هل انت تؤمن بالشيوعية يا سيرغي سامسونوفيتش؟

إستدار يغوروف اليه، ونظر اليه بانتباه وقال:

– انا عضو في الحزب.

فارتبك زيلينين.

– اعذرني، انا لم ارد أن اضع السؤال على هذا النحو. فكونك تؤمن بالافكار الماركسية أمر واضح لدي. اردت ان اسأل هل تتصور الشيوعية كما هي في حقيقتها؟ ان كثيرين عندنا كانوا يصرخون: الى الامام نحو الذرى الوضاءة! ولكنني واثق أنهم ليسوا

جميعهم تماما يدركون كلية انهم يعملون في سبيل الشيوعية. ما هي تلك الذرى الوضاءة؟ شيء تجريدي! يبدو لي ان اناسا اكثر اصبحوا الآن يفكرون في ذلك.

قال يغوروف:

ـ لقد فهمتك. حقا ان بعض الناس تصوروا الشيوعية حياة سعيدة سلمية في رواق، والبعض الآخر جاروا بها دون ان يتأملوا معنى تلك الكلمة. والآن تصبح جماهير الناس ادق واكثر عناية بالكلمات والافعال يبحثون عن ملامح الشيوعية في البيئة المحيطة بهم وفي انفسهم. وهي قريبة وبسيطة ودافئة. ربما انني تصورتها ارضية جدا، وانني انقل الحلم الى الواقع المحلي. في الماضي كانت كروغلوغوريه قرية وخرج الناس لصيد الحيوانات والاسماك، وقاموا بثورة، وطردوا البيض، وبنوا المرفأ والمصنع والبيوت الجديدة، ونشروا الكهرباء والراديو، واصبحت كروغلوغوريه حاضرة. وعمل الناس وماتوا، وولد آخرون على الاضاءة الكهربائية. ونحن الآن نعمل... هنا وفي رأس ستكلياني. وستكون كروغلوغوريه مدينة كروغلوغورسك. وسيشغل اطفالنا الطاقة الذرية هنا. وهذه السلسلة المتصلة تمتد الى الامام الى سني

المستقبل. واني لالمح بيوتا منيرة ذات نوافذ عريضة تنعكس في الماء الدافئ، والنخيل يتمايل، والسيارات الزجاجية تسير على الطريق العمومية المبلطة بالخرسانة. كروغلوغوريه! وانت ماذا تظن؟ سيكون الامر على هذا النحو.

– فهمت، كما يبدو. ان الشيء الرئيسي هو في تلك السلسلة المتصلة. كان جدي الاكبر قد سجن في قلعة شليسلبورغ. فهل كان يأمل حقا في التطويح بالقيصرية في حياته؟ ان عالمنا كله قائم على ان اغلبية الناس لها خاصية العمل والعيش لا من اجل البطن وحده...

وبقيا جالسين الى وقت متأخر. وكان رأساهما صافيين والافكار واضحة، وكل واحد منهما فرح بانه وجد صديقا.

وحين خرج زيلينين الى مدخل البيت اذهلته وضاءة الليل الغريبة. وبعد مضي عدة ثوان فقط ادرك ان ذلك ثلج. وكانت قد ابعدت الى الجنوب الشحب الساحبة على الحاضرة غلالة بيضاء، الخالعة لحافا وقبعات مخملية على الشارع والسطوح والمداخن الملقية

على فراء النبالة لكنيسة صغيرة قديمة ياقة من فراء الفاقم. وكان بدر التمام يشع في السماء الزرقاء الداكنة. ان الشتاء قد بدأ.

الفصل السادس

الميناء هو المرفأ الهادئ

في ليلة واحدة في نهاية نوفمبر تجمد حوض الميناء. وانتشرت طبقات كثيفة من الضباب الرمادي من البحر نحو المدينة. وترامى من اعماقها طنين متقطع، وعويل صفارات، وصوت جليد يتحطم. وخرجت قاطرات جبارة الى الخليج حيث تشكلت قوافل من بواخر الحمولة وسارت في المعبر المضبب الذي كسرته القاطرات الى الميناء. وكان زورق «الكارنتينه» البخاري السريع السير مرفوعا على الساحل منذ اسبوع كاشفا، في خجل، عن قعره الاحمر الرث. فالآن اخذ الاطباء يخرجون للقاء البواخر في بطون القاطرات مع موظفي الجمارك ورجال الحدود، ومأموري السير ومفتشي المنتجات الزراعية. واصبحت الحياة خشنة

داخنة مطبطبة حصرها الضباب والجليد، في الحدود الضيقة للضرورة العملية. الا ان شيئا آخر، الى جانب عوامل الجو، لم يكن ليسمح بالانعزال.

. في مساء من الامسيات المضجرة التي تسبق يوم تسلم الراتب لوّح فلادكا كاربوف بيده في غيظ، وثبت في الجدار آخر روبل له «ممنوع من الصرف» كاشارة على الاستسلام التام. وبعد ان فعل ذلك انسلّ تحت السرير، وأخرج من هناك قدره الحديدي الشهير.

لو عزمت ادارة المعهد على ان تنشئ متحفا لاحتل قدر الرفيق كاربوف مكانا لائقا في ذلك المتحف دون شك. فقبل اكثر من ستة اعوام حين دخل الفتى الاشعث الخائف القسم الداخلي في شارع دراغونسكايا كان يحمل في يديه حقيبة خشبية هائلة يتدلى منها قفل (وقد سميت هذه الحقيبة فيما بعد بـ«الصندل المملوء سمكا») وقيثارا، وقدرا حديديا في شبكة نايلون. وأنقضى زمن. ودرس فلادكا العلوم الطبية، ورقصات حفلات الرقص، واكتسب لمعانه الخارجي، ومع ذلك فقد كان قدره يظهر في مطبخ القسم الداخلي الكبير في نهاية كل شهر دون انقطاع. وكان بوسع اي انسان أن يقترب ويضع في مائه المفقع ما عنده:

علبة حمص مجفف، او بطاطس، او قطعة سجق، او مكعب سكر، أو خيارة، او ورقة شجرة مطاط. وكان بوسع أي انسان ان يأتي ويصب لنفسه ماعون «شوربة» (وهو اسم يطلقه كاربوف على العصيدة). وكان القدر موضوعا على نار صغيرة من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل. وكان البعض معجبا بهذه الطريقة في التغذية، والبعض الآخر يعتبرها متطرفة، وكانت تلك الهولة السوداء الداخنة (القدر) على موقد غازي رمزا للاخوة الطلابية عند آخرين.

والآن، بينما كان فلادكا يمارس الطهي كان ماكسيموف في غرفة الغسيل يغسل تحت الحنفية قميصه الصيني السماوي المحبوب. كان يصب عليه الماء الفائر من الابريق، ويدعكه في تفكير، ويعصر الماء منه، ويدهقه بالماء الصافي، ويترنم بشيء ما. وفجأة انتصب وبحلق عينيه، ونظر في المرآة، وانشد على البداهة:

بعث لي اخواني الصينيون
قميصا من بلادهم الكبيرة
فاشتريته من مخزن للثياب
وكنت في كل يوم احشره في البنطلون.

وكان الباب مواربا فترددت كلماته جوفاء في الممشى الطويل. وفي نهاية الممشى كان الظلام التام مخيما دائما. وصرّ باب، وسمع على الارضية «الباركيه» وقع كعوب مبرشمة بقطع حديدية. والقى ماكسيموف نظرة ورأى ستولبوف يسير في كبرياء مرتديا بدلة زرقاء جديدة وحذاء احمر ساطعا.

سأل ماكسيموف في ودآعة:

– هل عندك علبة كبريت يا ستولبوف؟

قرب ستولبوف من انف ماكسيموف قداحة على شكل مسدس.

وسأل بتساهل:

– كيف الحياة معك؟

سحب ماكسيموف انفاسا من سيكارته، وعاد الى المغسلة وتمتم:

– في فوران، طرقاتها على الرأس.

وخاطب نفسه: لم يبق الا ستولبوف المهر الآخذ بالسمنة لأتحدث معه عن الحياة!

وثبط من عزيمة ستولبوف قليلا أن القداحة لم تترك في نفس ماكسيموف انطباعـــا ملحوظا فذهب الى فلادكا. وكان كاربوف جالسا وجنبه الى الموقد

الكهربائي يقلب في القدر الحديدي، ويمسك بيده اليمنى مجلة «بولنده». اشار بايماء وزير الى ستولبوف بان يقعد. فصعد ستولبوف على مكتب ماكسيموف وحدق بفلادكا الذي واصل قراءته دون ان يعير له التفاتا. ان ستولبوف لم يستطع أن يفهم هذين الشابين الكسي وفلادكا، وكل جماعتهما. ولكن شيئا ما كان يجذبه اليهما احيانا. كانا قادرين على ان يقضيا المساء كله جالسين في حجرتهما عازفين على القيثار ومغنين ومتطارحين الاشعار. وكانا يغازلان الفتيات كثيرا ولكن دون فائدة. وستولبوف يحب النظام وان يكون كل شيء على ما ينبغي له ان يكون. ويحب العقل السليم، ويحب حسن التدبير. وهو ايضا، قادر على ان يتسكع ساعة او ساعتين مع فتاة، بل وان ينشد لها اشعارا («تعلم صون الحب على مر السنين») على شرط ان يكون واثقا من ان اللعبة تستحق ان تلعب. وهذان الشابان؟ لا يستطيعان ان يتصرفا براتبيهما كما يجب. وهما بلا طعام لائق مرة أخرى. وستولبوف لا يحب ذلك. انه يحب الحساب، يحب الراحة والدفء، يحب الطعام الجيد.

سأل ستولبوف فلادكا:

– كيف الحياة الفتية؟

– يا حياتي هل انت حلم؟ – وتنهد كاربوف ونظر في ساعته، وأخذ يلقي البطاطس في القدر الحديدي.

ظهر ماكسيموف عند الباب، وصاح في انشراح:

– هل طهيت الشوربة يا ماشا؟

كان الشخص الذي تقع عليه نوبة الخفارة في حجرة القسم الداخلي يسمى «ماشا» دائما. وتحرك كاربوف في همة ووضع الصحون على المائدة.

وقال لستولبوف:

– انا اعد المائدة لشخصين. واظن ان من المستبعد، يا سير ستولبوف، ان تشرف مائدتنا المتواضعة بعد جولتك في ضياعك.

– وماذا تحسب؟ – سأل ستولبوف في اعتزاز – لقد ضيفوني اليوم على شرائح من اللحم المقلي في رقم ٤. تحفة! سلاء كثيف وشربنا نصف دزينة بيرة مع الرئيس.

سأل ماكسيموف:

– وكل ذلك مجانا؟

– يا عزيزي آراك ساذجا. من يأخذ فلوسا من الرئيس على استضافته؟ وأنا رئيس على اية حال!

وقهقه في رضى مفرط. ولم يكن قد خطر على بال بيتيا ستولبوف قط انه سيقع بعد تخرجه من المعهد على مكان دافئ كهذا المكان.

قال ماكسيموف:

— أراك قد امتلأت شحما. ولكن هذا ضروري لك. اضف الى هذه القامة كرشا سمينا وفي الحال تبدأ بارتقاء سلم الوظائف.

فتمتم ستولبوف:

— كفى، بلا تهكم!

كان الكسي يريد ان يأكل لا ان يتشاتم مع بيتيا. فشمّر للشوربة.

وسأل كاربوف دون ان يخلو سؤاله من انفعال:

— كيف هي؟

— تشبه شوربة لحم الضأن — أجاب الكسي بلهجة جادة.

وتألق محيا فلادكا.

— هذا ما اردت لها أن تكون. يا عزيزي ماكس، انا سعيد لأن تذوقك للطعام مرهف.

ظل ستولبوف جالسا على المكتب كالصنم بينما كان الشابان يأكلان. وفي نهاية الوجبة ظهر في الحجرة فينيا كابيلكين حليق الوجه ناعم الشعر.

— هالو، كومرادس. هل تاذنون لي بالدخول؟

كان كابيلكين يأتي الى «الزجاجة» كل مساء تقريبا. وقد اطلق على ذلك اسما من عنده هو «مقصورة جيم تاء تاء» وتعني «جلسوا وتحدثوا وتفرقوا». وكان يسرد نوادر قديمة، وآخر الشائعات في الميناء. وهو الآن يعمل في قسم التنوير الصحي التابع للدائرة الصحية والكارنتينه، ويبذل كل شيء ليعيد الثقة التي اضاعها. كان في حمى العمل الاجتماعي يتنقل من غرفة الى أخرى نشيطا، ويلقي الخطب الملتهبة في كل اجتماع، ويكتب في كل جريدة حائطية مقالات عن النضال من اجل الضبط العملي في الغالب. واصبح وديعا، والآن لا يكاد يذكر «تحليق روحه العالي».

سأل كابيلكين:

— ماذا سمعتم عن الفيزات يا اولاد؟

هزّ ماكسيموف كتفيه.

— لا شيء البتة. صمت مطبق. أغلب الظن حتى الربيع.

— ومنذ ذلك الحين على رياح الربيع... — غنى كاربوف شطرا من اغنية — هل الغناء جميل؟

— لست انت يا فلاديا بل المغني ليونيد

كوستريتسا. نعم. وبصراحة لقد ضجرت من الاشتغال في مراقبة الاصول الصحية. ليتني اخرج الى البحر قريبا.

انزل كاربوف القيثار من الحائط، وأخذ يهيؤه. ثم عزف على الاوتار.

يا اوديسا، لن احتسي بعد نبيذك.
ولن اتنزه على الارصفة...

قال ستولبوف:

– أنا لا يهمني هذا. لا بأس بحياتي هنا ايضا. ليذهب البحر الى الشيطان! فاحكم بنفسك – خاطب بذلك كابيلكين – عندي ترخيص دائمي في الاقامة هنا. والطعام مجانا، وراتبي يبقى كما هو تماما. ومن اجل اي شيطان سأنقطع عن الحضارة؟

– حقا ما حاجتك الى البحر يا بيوتر؟ – قال ماكسيموف في خبث – لقد وقعت على كعكة حلوة تلتهمها بغبطة كما يبدو. ولكن حذار من ان تغص.

فانتصب ستولبوف وقال مهددا:

– هل تعلم... يا ليوشكا. سافعل ذات مرة ما تغريني اليه. انت نفسك ألم تأت راكضا من اجل

الكعك الحلو والحياة الهينة؟ وتجعل من نفسك قديسا ايها الديماغوغي!

صاح ماكسيموف:

— لست بحاجة الى الحياة الهينة. أنا بحاجة الى حياة ممتعة محفوفة بالاخطار!

قهقه ستولبوف وقال:

— محفوفة بالاخطـــار! اذن فعليك ان تركب بارجة. والاحسن ان تسأل كابيلكين أي حياة محفوفة بالمخاطر ستكون لنا. تؤرجح وكأنك في ارجوحة مشبكة للنوم. نم وكل. وهذا كل ما في الامر. وليس هذا مثل اجتهادك في منطقة ريفية كما يفعل صاحبك ساشا زيلينين — ونزل من المكتب، واقترب من ماكسيموف، وربت على كتفه وقال: — آذن فامسك لسانك يا أخ. أنا وانت من واد واحد! كلانا نحب القشطة في قهوتنا.

دفعه ماكسيموف عنه بقوة.

— انا لا اطيقك يا ستولبوف، أتعرف؟ فاغرب قبل ان تخنقك شرائح اللحم من لسانك ذاته.

فقال ستولبوف في جهامة:

— ربما نتلاكم؟

ـ موافق ـ قال ماكسيموف وأخذ يطوي ردنيه.

غنى كاربوف في حزن عميق:

يحملون سائق العربة الشاب مفلوع الرأس...

ـ جمهور! مثقفون! ما العمل! ـ زعق ستولبوف وخطا نحو الباب. وصاحبت الاوتار خطواته:

لا تنصرف، ما زالت هنا اغنيات كثار
وما زال كل وتر يهتز في القيثار...

راقب كابيلكين هذا المنظر وكأن يراقب شجارا بين اطفال. وبعد ان خرج ستولبوف قال:

ـ نعم، يا اولاد، ان بيتيا ستولبوف رجل معتم مثل سروآل رجل المطافئ. وبهذه المناسبة يقولون انه اقام علاقة عاطفية مع مديرة أحد المطاعم. وهي تمده بالفلوس ايضا وبالاشياء الاخرى. وبعبارة أخرى كما في قصيدة ماياكوفسكي. يرى الغبي حلما بانه يعيش في الجنة، ويلتهم من اللقم آلافا.

ـ قرد شبيه بالانسان. ـ قال ماكسيموف مهدئا اعصابه ـ ماذا تتوقع منه؟ ولكن ما يضايقني هو شيء واحد هو انه يحسب كل الآخرين مصنوعين

على مثاله وشبهه. الا انني سمعت احدا منذ وقت غير طويل، يا كابيلكين. يقول انهم يعاملون الطبيب على الباخرة مثل معاملة مسافر مجانـــا. فهل هذا صحيح؟

— هراء! فالعمل قليل. ولكن ما الذي يقلقك؟ ليست هذه المسألة يا صديقي. ان لك حياة هينة واحدة، فريدة وقصيرة. هل تفهم؟ فلتكن هينة. الا ان الناس يفهمون هذا باشكال مختلفة. بيوتر يفهمها بشكل وانا وانت نفهم الحياة الهينة الجميلة الجذابة بشكل آخر. فهل تعرفون يا اولاد أي شيء هو الخروج الى البحر؟ آه يا اولاد — وهنا قفز، وقلص عينيه، وطقطق باصابعه، وتمطى — انه عندي الصورة المثالية للحياة. تصوروا: اسبوعين من ركوب الامواج المضني، من الحنين، وذات ليلة تبدأ السماء بالتنور عن الافق، وينهض الميـــاء المتلألىء من الماء ببطء. ثم العودة آلى الوطن، الى لينينغراد؟ بعد ان تقضي عاما في اماكن لا يعرفها الا الشيطان تعود. لقد اجاد الشاعر حين قال: «وحتى دخان وطننا حلو ومستطاب...» وهناك على الرصيف زهور وابتسامات واصدقاء ونساء... وانت محط الانظار، ونبض

حياتك يسرع مئات المرات، تحترق كفتيلة القنب. وبعد ذلك تعود الى اهتزاز البحر الراكد ثانية والامواج وطيور النورس وكل هذه الاشياء الناقصة. غير ان ذلك ممتع فى المرات الأولى...»

سأل كاربوف:

— هل حدثت لك حالات معينة؟

قهقه كابيلكين:

— واية حالات! ذات مرة خرجت انا والمساعد الثاني من مطعم «القمر» في ريغا...

فضحك كاربوف وقال:

— اذهب الى الشيطان. أنا اقصد حالات تتعلق بالطب.

— ها! حدث بالطبع. ولكن الحظ كان الى جانبي: وفقت في نقل جميع الحالات الصعبة الى الميناء. بالطبع هناك مجازفة ولكن بالمقابل... آه! — وهنا ضرب راحة يده بقبضته — سأعود الى البحر مرة اخرى! انا لا استطيع ان الزم المكتب واقضي فيه ساعات الدوام.

قال ماكسيموف:

— قبل مدة وجيزة قرأت مقالتك عن الضبط في العمل. أم انت لم تكتبها؟

— انه تاكتيك يا أخ. يجب ان ارفع من اسهمي في آخر الأمر.

شعر ماكسيموف بالتقزز. يكتب شيئا ويفكر بشيء آخر مغاير؟ وذلك شيء لم يستطع ان يوافق عليه على اية حال. ولكن ما رأيك في اقواله الاخرى؟ هل تختلف عن آراء ستولبوف كثيرا؟ ان لماكسيموف مفهوما آخر عن الحياة «المتوترة السعيدة المثيرة للمشاعر». نعم، بالطبع، ان العمل عنصر ضروري، على ان يكون العمل الذي يستطيبه، العمل الممتع فقط، ولا شيء غيره. آه، أتريد ان تنتقل الى الشيوعية رأسا؟ وهل زمننا قذر بعض الشيء بالنسبة لك؟ لو كان ساشا هنا لطرح عليك الآن فلسفته في مسؤولية الاجيال المتبادلة. ألعله على حق في ذلك؟ لو ان الديسمبريين من القرن الماضي لم يقدموا على الموت في ميدان سيناتسكايا لكان انتشار الافكار المحبة للحرية في روسيا ابطأ، ولتأخرت الثورة في روسيا، ربما، لبضعة عقود من السنين. ولكننا، حسب قول ساشا، مسؤولون ايضا امام الديسمبريين،

وملزمون بأن ندفع بالقضية ابعد. الشيطان يعرف ماذا! يعني ان نعيش للاسلاف في سبيل الاحفاد؟ وماذا عن انفسنا؟ «فحياتك وحيدة، فريدة وقصيرة...» مـــا اغرب لهجة كابيلكين حين نطق بتلك العبارة! وكأنما لمح ما لا يريد احد أن يراه.

يعني لا يجوز ان يعقد الانسان العطلة التي يمنحها له العدم؟ ان تعيش من اجل رضاك وتحترق وتستمتع؟ أن تتحاشى العراقيل؟

طافت مثل هذه الافكار في ذهن الكسي ماكسيموف حين استلقى على السرير ينقر على طوار النافذة لحن اغنية فلادكا. وغرق كابيلكين في مجلة «بولنده». وحرّك كاربوف الاوتار بهدوء. وفجأة ارتفع عزف القيثار في انفعال ورنّ، وكأنما قد اثارته ركلة فظة:

جاذبني الحديث

ايها القيثار ذو السبعة اوتار —

صاح فلادكا في جراءة.

روحي مفعمة بك

والليل مقمر!..

ورنّ صوت تلفون في الممشى. وكأنما قفز في داخل ماكسيموف نابض. وثب من السرير، وبقفزتين كان وراء الباب.

وقال كاربوف:

— غريب. ان شيئا ما يحدث لماكسيموف. فقد صار يختفي غالبا، وينط على التلفون كالبرغوث. هل هو عاشق؟

سأل كابيلكين:

— هو لا يبوح لك؟

— انه كتوم، الشيطان.

في ذلك الوقت كان الكسي ماكسيموف واقفا عند التلفون يغطي السماعة براحته.

— هل ممكن أن اتحدث الى الدكتور ماكسيموف؟

فقال ماكسيموف لنفسه: «عبثا ان تحاول تغيير صوتها. لو سمعه فلادكا لعرفه بسهولة كما عرفته أنا».

ثم قال في التلفون:

— مدام؟

فضحكت فيرا وقالت:

— انه انت يا الكسي. أنا اتلفن لك من المكتبة.

ـ من المكتبة العامة؟ حسنا سأنتظرك قرب المدخل بعد ساعة.

وركض عائدا الى الغرفة، واختطف القميص. كان رطبا وكانت قمصانه الاخرى وسخة.

ـأعرني قميصك يا فلادكا.

جفل كاربوف، ونظر اليه كالمحتضر.

ـ خلال اسبوعين يا ماكس آخفيته تحت الوسادة. هل من الممكن... ألعلك تأخذ سويتري؟

فتحدث الكسي نفسه:

«وكأن فيرا لا تعرف سويتراتك».

قال كابيلكين:

ـ عندي قميص نظيف. ولكنه بحاجة الى ان يكوى. هل اجلبه؟

ـ لا حاجة. سألبس سويتري. اسمع يا كابيلكين. ما دمت اليوم بمثل هذه الطيبة، ألعلك تعيرني لفاحك الغريب لامسية واحدة، وخمسين روبلا؟

وعمد ماكسيموف الى حقيبته فاخرج منها جوربين نظيفين وفك الجريدة عن بدلته المعلقة على الحائط، محاولا في نفس الوقت ان يذيب الصابون في طاسة الحلاقة.

قال كاربوف:

— ليت شعري ماذا تجد الفتيات في مثل هؤلاء الشبان اللاغطين المذعورين؟

ارتبك ماكسيموف ونظر الى صديقه. وكان هذا واقفا بسرواله الداخلي الى جانب المنضدة يكوي بنطلونه. وكانت رمانتا ساقيه النحيفتين تختلجان.

قال ماكسيموف متحيرا:

— ليس جميعهن يهوين فرسانا من مثلك.

وخاطب نفسه: «يبدو ان فلادكا يقترح كشف الاوراق. لا. ليس هذا ممكنا».

بعد عشرين دقيقة خرج الرفيقان الى الطريق العمومية. كانت رقبة ماكسيموف محاطة بلفاح نرويجي بديع. وقد ادهشه كابيلكين عند توديعه حين قال:

— أهديه لك. فلا حاجة للدموع. عندي لفاح آخر.

فسأل ماكسيموف صديقه كاربوف:

— هل أنا أخاذ؟

— وكيف لا يا ماكس؟ انت الفتى الاحسن في رأس تشاستايا بيلا.

وانطلقا يعدوان. انهما الآن يعرفان كل مداخل الميناء ومخارجه. وقد تعلما تقصير المسافات، وشقّ طريقتهما عبر شبكة السكك الحديدية. واليوم ساعدهما الحظ على نحو خاص: تسلقا قطارا كان يسير ببطء اوصلهما خلال عشر دقائق الى البوابة الرئيسية. وهنا ركب كاربوف الترآم، وماكسيموف الباص.

خريف ام ربيع؟

كان ماكسيموف يتمشى امام المكتبة العامة منكمشا على نفسه من البرد. وكان الضباب قد شفّ كثيرا. ولاحت في السماء نجوم باردة مثل قطع ثلج. ومع ذلك فان المصابيح الفخمة كانت محاطة بهالات برتقالية شامخة في كل مكان مثل قادة مشدوهين في الزمن القديم. كانت ابواب المكتبة الثقيلة لا تهدأ دقيقة واحدة. هنا كان الجمهور يختلف عن جمهور فرع الطلبة عند نهر فونتانكا:رجال كبار يحملون حقائب كتب ثقيلة، والنساء جديات سريعات الحركة، وطلاب صفوف اسبيرانتورة هزلى يرتدون قبعات

من فراء الاغنام. وابتسم ماكسيموف وقال في نفسه: «كلهم مدرسون بالضبط» ـ كاتما في نفسه رغبة غريزية باقية من المدرسة في ان يخفي عقب سيكارته في ردنه.

وفي آخر الامر فتح الباب للمرة التاسعة والثلاثين، وظهرت فيرا. ركضت اليه، ودست في يده محفظتها للاوراق قائلة:

ـ امسكها. لم الحق حتى لارتدي منديلي.

ـ كم لديك من وقت فراغ اليوم؟

قالت في تحد:

ـ ولو حتى الساعة الثانية عشرة.

فتبسم ماكسيموف وقال:

ـ يا للتقدم الكبير.

وسارا عبر الجنينة باتجاه فونتانكا. ولزمت فيرا الصمت. كان صوتها الجريء المرح في التلفون قد ادهش ماكسيموف بشكل غير مريح. وكان الصمت طبيعيا.

كان هذا لقاؤهما الرابع بعد ان عزم ماكسيموف على ان «يبوح بكل شيء». في المرة الأولى قرر ماكسيموف ان «يبوح بكل شيء». في المرة الأولى

قصد ماكسيموف الى بيتها رأسا، ورأى زوجها غائبا، ففرح، وخاف، وتكدر، ودعاها الى السينما بشكل اخرق. وقضت فيرا طوال الامسية في الاستماع الى نكاته البدائية، وتورياته الخرقاء، وافكاره الكئيبة. ولم تسعفه شجاعته لأكثر من هذا. وفي المرة الثانية تلفن اليها يوم الأحد، وقضيا سوية يوما غريبا استطال الى ما لا نهاية. هاما في الشوارع الرطبة، ووجدا نفسيهما في جزيرة كريستوفسكي. وفي منتزه «النصر» كانت الاشجار تصارع ريح البحر بافتخار. كانت تنحني مثل صواري. ولكنها كانت ترسل باغصانها دون انقطاع اشارة من اوراقها الباقية: «أموت ولا استسلم!»، «أموت واستسلم»، — فكر بذلك الكسي ماكسيموف وهو ينظر في عيني فيرا اللتين ضاءتا فجأة. انها تصرفت كفتاة صغيرة، كفيرا طالبة السنة الأولى ولاعبة كرة السلة وفتاة شقية. حقا انها بدت جدية حين وصلا الى قمة التل الخرساني للملعب، في مركز عصف الريح، وامسكت بيد ماكسيموف، وأخذت تتحدث بشيء ما واثقة من أن سماعه اليها صعب. كانت كل كلمة في ذلك اليوم مثل عنوان فصل من كتاب ممتع:

كانت تثير الاهتمام، ولكن دون ان تفصح عن معنى. ولم يكن ماكسيموف قادرا على ان يصدق بشيء، لم تثبت تخميناته الا العبارة الأخيرة حيث توقفت على بعد حيين من بيتها وقالت:

ــ لا تتقدم أبعد من هذا.

يعني انه ليس مجرد صديق لها! لقد فهمت هي الأخرى كل شيء كما يبدو. وفي اللقاء الثالث توقفا في نفس المكان. حينذاك امسك الكسي يدها، وقادها الى مدخل بيت، وأخذ يقبلها صامتا. مرّ أحد بهما، وانغلق باب المصعد بصخب مصمّ. وتقوست فيرا بشكل عاجز، وخرجت من مدخل البيت. ونظر هو في اثرها بشعور منتصر ممزوج بشيء من الاشفاق وبقطرة من التشفي. ها هي في قبضته. ذلك واضح. وانقضى على هذا اكثر من اسبوعين. كانت ترد على النداءات التلفونية بجفاف، وترفض أن يلتقيا. ولكنها اليوم تلفنت بنفسها لأول مرة.

ــ ان مظهرك اليوم أخاذ. لفاح جميل.

ــ اهداه لي أحد المتنفذين من باخرة «نوفاتور» متشرد بحري قديم. موشّم.

ـ بقرط؟

ـ ماذا؟

ـ هل في اذنه قرط؟

ـ آه، بالطبع. وعلى جنبه خنجر. وقدم خشبية. جون سيلفر حقيقي.

انجلى الضباب تماما. وظهر فوق برج انجينيري قمر جديد وكأنما جلي بالرمل. وكانت التماثيل تلوح بيضاء في رقع ضوء القمر وخلال شبكة جذوع واغصان اشجار «الحديقة الصيفية». وكأن طيوف الربيع تطوف في الحديقة. وعزز هذا الاحساس بالربيع نسيم دافئ بشكل غير منتظر هبّ عبر النيفا. وكانت السماء الداكنة الزرقة عميقة ومخترقة بضوء غير مرئي تجعلك توقن بأن النجوم اجرام سماوية لا مجرد قطع متلألئة نثرت على مخمل.

ـ حسنا... كيف عملك؟

ـ شكرا. انه سائر.

ـ انا لا اعرف حتى أي موضوع اخترت.

ـ هل احدثك؟

ـ لا حاجة.

اتكأ ماكسيموف على الحاجز وأشعل سيكارة. انه لم يستطع ان يتخلص من شعور بالحيرة. عجيب. ان ذلك لم يحدث من قبل. من قبل كانت فيرا اخرى. وخجل من نفسه، وكان يرسم في مخيلته مناظر عاطفية معها. والآن اضيف الى ذلك شيء آخر. وفي كل لحظة كان يحس بان الى جانبه امرأة، آمرأة محبوبة ضمها في احضانه مرة وقبلها.

– ليوشا! – تنهدت فيرا واقتربت منه.

طارت السيكارة الى فونتانكا. ورأى على بعد عشر سنتيمترات من وجهه عينين واسعتين لامعتين. وأخذ يقبلهما. وصرّ محور الارض، وطار الكوكب جانبا. وتبدل العالم، والتمع. وفي مركز الكون، ظهر ظل جبار لعاشقين وهو يخترق المجرة وارتج. فحاول ان تلومهما! حاول ان تدنسهما! حاول ان تفتري عليهما!

... سارا في الجسر عبر فونتانكا. وأوغلا في احياء مزدحمة بالسكان. شارع موخوفايا، وشارع غاغارين... وفي مئات النوافذ المضاءة بمصابيح ذات ظليلات برتقالية وزرقاء وخضراء تحرك أناس ركنوا الي الوداعة، وسارت امورهم كالساعة، ولم

ينتابهم خوف، ولم يتحاشوا الناس، ووجد بعضهم بعضا في ميعاده، وسكنوا هذه البيوت بهدوء.

– هل ندخل الى مقهى؟

– لا.

– تخافين ان يرونا سوية؟

– لا اخاف من شيء. اريد ان اخلو بك فقط.

– علىٰ كل حال لنذهب الى هناك. فهنا لا يوجد أحد.

توقفا عند مخزن صغير كانت تلمع على بابه حروف حمراء: «عصير وندرمة». حقا لم يكن في داخل المخزن الا البائعة. وخلف الواجهة الزجاجية كومة من البضائع الكمالية لم تجد من يشتريها. كانت هناك زجاجات «ليكور» على شكل طيور البطريق، وعلب حلويات هائلة كمجلدات قديمة عليها صور فرسان وتماثيل صغيرة من الصيني. والى يسار هذا المعرض مخاريط متعددة الالوان من العصير. وفي ركن المكان منضدة وحيدة مرمرية تقف على ارجل حديدية شوهاء. وتحت المنضدة القيت زجاجة فودكا فارغة تكشف عن رقعة اسمها.

جلست فيرا، وخلعت المنديل من رأسها، وعدّلت

شعرها بحركة بطيئة. وكان مظهرها ساهما مثل مظهر سكران.

سأل ماكسيموف عاملة المشرب:

– ماذا عندك للشرب؟

– شمبانيا فقط – اجابت عاملة المشرب وهي ترمش بعينها كثيرا. فرفع ماكسيموف حاجبيه غير فاهم. حينذاك ابتسمت في اغراء، وعرضت له زجاجة فودكا وهي ما تزال محتفظة بمظهرها التآمري وكأنها تقول: يمكن ان يقدم للرجل الطيب خمر اقوى من الشمبانيا.

هزّ ماكسيموف رأسه رفضا. وأخذ زجاجة شمبانيا ودندرمة لشخصين، وقدحين كبيرين، ووضع كل ذلك على المنضدة، ونظر الى فيرا، وغمرت قلبه موجة عامرة من الرقة نحو ابنة البروفيسور الذكية هذه، النقية التي كانت تجلس قبالته الآن وتمس برأس حذائها زجاجة فودكا غير ملاحظة وسخ الشارع المحمول الى الارضية القرميدية لهذا المشرب الرخيص.

سأل:

– شمبانيا. هل مقامها غير لائق؟

ـ ولماذا؟ بالعكس. ـ وابتسمت.

وشربا الجرعة الأولى واحدهما مثبت عينيه بالآخر. وفي تلك اللحظة شغلت عاملة المشرب الراديو. فلربما فعلت ذلك رقة حتى يتاح للعاشقين ان يتحادثا دون خوف من ان يسمعهما احد. ولربما ادارت مفتاح الرآديو في غير اكتراث ولأنها لا تجد ما تفعله. وسواء هذا أو ذلك فقد ترددت بين جدران المشرب الاصوات المقلقة للمقطوعة الثانية عشرة لسكريابين. وارتعد الكسي. وتذكر كيف استمع الى **هذه الموسيقى** لأول مرة في القاعة الكبيرة للفيلهارمونيا، وكيف كان متكئا على عمود تاركا على نقاوة مرمره بصمات اصابعه الملطخة بحبر. فلماذا تستطيع الاصوات التي هي ليست الا ذبذبة هواء، آن تنفذ عميقا في الانسان، وتسيطر عليه، وتوحي له، وتذكره وتدعوه؟ وكيف استطاع ان يخلق مثل هذه الاصوات رجل اعتيادي، مخلوق لا يختلف عضويا عن مئات الملايين من بني خلقه؟ وعلى العموم لماذا يؤلف الموسيقى بعض الناس، ويفتحون قلوب اخوانهم للحب والبطولة والامانة بينما يرفع آخرون بنادقهم الاوتوماتيكية، في عدم اكتراث ابله

ويطلقون النار على اخوانهم العزّل متنافسين في تسديد الهدف؟

قالت فيرا:

– ترى من يعزف المقطوعة: ريختر أم غيللز؟

رفع ماكسيموف قدحه، وغطى يدها برآحة يده:

– تعالى نشرب نخب شيء ما، نرفع كأسينا.

– نخب ماذا؟

– مثلا... نخب مستقبلنا. ثم... انني لم اقل لك حتى الآن انني احبك.

فضحكت فيرا وقالت:

– آه، الكسي. لقد افترضت هذا طوال هذا المساء.

– حدثيني يا فيرا، هل كنت تعرفين ذلك من قبل؟

– مع الاسف، لا – قالت في حزن – ولكن لماذا لم تقل لي انت؟..

– لانه كان لك فتيان متعددون. ثم هناك فلادكا.

– لانه كانت لك فيكا واخريات.

– حقا؟

– نعم.

وتبادلا النظرآت، وتذكرا الاعوام الماضية التي كانا يلتقيان في غضونها كل يوم تقريبا، ولكن لا كما كان

يريد كلاهما. ودهشت فيرا من انها وهي المرهفة في مثل هذه الامور عادة، لم تحدس ان معاملة ماكسيموف الشكلية المشوبة بشيء من الجفاء ما هي الا حجاب، ولعن الكسي نفسه لانه لم يستطع ان يفسر نظراتها العجيبة السريعة. والآن، وهما يجوبان الطرق الملتوية وجد احدهما نفسه قريبا عن الآخر، ويسيرا عليه فركضا للقاء متقطعي الانفاس مقتحمين كل ما في طريقهما، وبين لحظة واخرى يتراءى لهما بان المسافة بينهما لم تقل، وان كل ذلك شبيه بركض الاطفال على الطبول الخشبية.

— اسمعي يا فيرا. سأثير دهشتك الآن.

واشعل ماكسيموف عود ثقاب منفعلا، ودخن سيكارته ثم انشد بصوت تهكمي بعض الشيء وغير طبيعي:

في المطعم جلبة وضوضاء
ورائحة حساء كرنب وعصيدة.
هنا رأيت خصلات شعر
ورأيت شخصك.
في الحساء طاف بطاطس
وتألق عصير الطماطم.

فرأيت في الحساء وجهك
فلم استطع تناول الحساء.
وربما هناك
في احد مشارب باريس وبوردو
وقف ذات مرة من اجل السلاطة
تورغينيف وفياردو.
«الكفتة مع الفلفل البلغاري»، -
تقولين ذلك بترفع.
فهل تريدين شريحة من قلبي
انا الغريب المتيم؟

ضحكت فيرا ولكن عينيها رفّتا. وقالت:
- عندما كنا في السنة الأولى كنت تغلظ بشكل مريع. فكنت أفكر: من اين هذا المضحك؟ يعني انك تنظم الشعر؟ بالطبع لا احد في العالم يعرف ذلك؟ ان ذلك من شيمتك. اقرأ شيئا آخر.

وحنق ماكسيموف. لم هذه الصبيانيات وهذه الاشعار؟ ربما، لا تفهم وستتصور انه احبها كبيرو في الحكاية الفرنسية، كمتيّم كتوم. ومع ذلك فقد أخذ يقرأ لها.

دخل المشرب اربعة فتيان يضحكون. كان احدهم يحمل كرة طائرة مشدودة الى حبل، وكان في ايدي الآخرين حقائب رياضية صغيرة. وفي الحال صار المكان ضيقا صاخبا غير مريح. وخشخشت مشمعات مطر زرق، وشربوا بجرعات كبيرة وباقصى القوة. وهبط مستوى عصير المشمش في المخروط الزجاجي سريعا.

وابتسمت فيرا في تساؤل، وهزّ الكسي كتفيه.

وهتف احدهم فجأة:

- يا عامي، لقد قلت لك: يجب ان تسد بوز مونيـــا.

نهض ماكسيموف وفيرا. وشيعتهما هتافات:

- يا اولاد، لقد افزعنا زوجا من الحمام!

- تصرف غير لائق، يا رفاق، غير لائق!

- الفتاة لا بأس بها!.. بودي ان تكون لي مثلها.

كانت فيرا في الشـارع. ولكن ماكسيموف التفت، وخاطب الفتى الأشقر الطويل القامة:

- هل انت الذي قال؟

كشر هذا والتفت الى رفاقه:

- نعم، انا. فماذا؟

- استطيع ان اخلع اذنيك على الوقاحة.

— انت؟

— بالضبط.

— اردت ان اعطس عليك.

— اعتذر حالا. هيا.

تقدم فتيان في تهديد، الا ان الرابع دفع الاشقر وقال:

— علىٰ رسلكم يا اولاد. ان هذا الشاب كان يلعب في فريق «الطبيب». لا تتكدر يا فتى. ان كيشكا احتياطي في فريقنا. وانت يا كيشكا اعتذر. انت لم تكبر بعد لتتعارك مع لاعبين هم اعضاء اصليون في الفريق.

فتمتم كيشكا:

— طيب. اذا كنتم تريدون هذا...

خرج ماكسيموف الى الشارع راضيا. ونظرت فيرا في وجهه وضحكت، وربتت على خده.

— لماذا تدخلت؟ كان بوسعهم ان يضربوك.

فارسل ماكسيموف ضحكة مقتضبة وقال:

— ليس اكيدا! ولكن هل خفت؟

— بالطبع خفت. ثم انك كنت وحدك.

وأمسكت بذراعه، ونظرت من جانب الى وجهه الذي لم تلينه تلك الضحكة اللطيفة. وكانت قد لاحظت منذ

فترة بعيدة ان وجهه غالبا ما يصير مثل وجه ملاكم خارج من ركنه في حلقة الملاكمة. وكانت تعرف ان ماكسيموف لن يتراجع قط في احوال مشابهة لما حدث اليوم. ولكنها كانت تعرف شيئا آخر ايضا: كانت تعرف مبلغ ثقته بالآخرين، وتفانيه لاصدقائه، واستعداده الصبياني تقريبا لان يرد على التحية والاخلاص. وهو في المدة الاخيرة حزين ويتحدث بعبوس. ألعلها تتحمل بعض الذنب في هذا؟ أم ذاك تظاهر فقط؟ ولكن ما الفرق في هذا وذاك؟ انها تحبه كما هو. ثرثارا، متباهيا، جعجاعا، جافيا؟ فليكن. فقد ضجرت من فضائل فيسيلين. أن هذا، بالتأكيد، لو سمع تلميحا لتظاهر بانه لم يسمع او، لربما، قال: «تصوري يا فيرا الى اين وصل العالم!» ولكن ما العمل الآن، ما العمل؟ هل اترك اوليغ؟ يعني ان اترك العمل ايضا؟ فسوف يكون من المعتذر ان اظل معه في كرسي علمي واحد. آه! انهـا امرأة وليست عديمة الانوثـة. «يـا الكسي، يا عزيزي الفظ القصير الشعر! أية ذراع لك. كأنني مستندة الى معدن...» ومع ذلك مـن الصعب، من المستحيل ان اتصوره زوجا. الكسي في شقتهم الوقورة. منظر مسل. ولكن ما افظع الأمر! أوليغ يغادر... يضع

اشياءه في الحقيبة بيدين مرتعشتين، ويهمس بشيء في سره، وينظر كالمذنب بعيني كلب قد سيط. آه! يا فيرا، لماذا تضعين نفسك بهذه الشربكة؟ فقد كانت امورك كلها تنساب بنعومة، وكان ابوك راضيا. وقد عملت بهمة واستوفيت «المتطلبات الثقافية العامة». فارفعي يدك عن هذه الحديدة! اركضي! هذه سيارة تكسي قادمة. آه يا جبانة انظري الى وجهه. ملاكم متعب. يا فتاي الحبيب! انها ذاهبة معه الى اقصى الارض، الى اي كوخ، وستكون له فقط. ولكن ماذا سيكون مصير صفوف الاسبيرانتورة؟ الاطروحة؟ فيسيلين؟

قال ماكسيموف:

– لماذا يبدو الجو وكأننا في مارس؟

– لاننا في مارس بالفعل.

– يعني لن يكون في هذا العام شتاء؟

– ألغي – هتفت فيرا. وفي صوتها عزم يائس.

– وداعا. سنلتقي يوم الأحد.

– حسنا. فليكن يوم الأحد.

قبّلت فيرا الكسي قبلة خاطفة وانصرفت. وبعد ان سارت بضع خطوات التفتت، ثم عادت ثانية.

ـ هل آنت غاضب يا الكسي؟

ـ لا اهمية لذلك.

ـ لا تغضب. يجب ان تفهم... هل تفهم؟

ـ طبعا. اذهبي.

وبعد بضع دقائق صار شبحها لطخة سوداء فقط. ثم لمع في زاوية من الشارع مضاءة بسطوع معطف ازرق، ومنديل ابيض. واختفت فيرا. وسار الكسي على آثار حذائها التي لا تكاد تبين على الاسفلت. نعم. انه يفهم كل شيء. ولا يستطيع ان يفهم شيئا. ها هو وحيد مرة اخرى. وذلك شيء سفيه! وهي ذاهبة الى شخص آخر، الى زوجها. «أنا زوجها! أنا لا غيري. ولكن كيف أنصرفت؟ احتفظت بكامل هدوئها، وكأنها ودّعت عشيقها، شريكها في خطيئة خفية... يا غليظ، كيف تتجاسر على ان تظن بها هذا الظن؟ مجرد انها لا تريد أن تقطع رأسا، وتخاف على ابيها. لقد قاسى العجوز نوبة قلبية واحدة. ولكن ليس هذا فقط. ان فيرا في وضع صعب. فان فيسيلين ليس زوجها فقط بل ومرشدها العلمي. فتى لامع الذكاء، ولطيف

الشكل الى حد بعيد، متعة! لعله الآن جالس في روبه البيتي وراء مكتبه يهيىء المحاضرات. وستدخل فيرا فيقول لها: «يا صديقتي اين كنت الى هذه الساعة المتأخرة؟» فتقول له: «كنت أتمشى مع صديقتي زينا. لماذا تسأل؟» «لا، لا شيء. مجرد انني أخذت اقلق. فالتنزه في مثل هذا الوقت خطر ب...» — وهنا ركض ماكسيموف على الرصيف هازا يديه بعنف وعاد يتصور: «ثم يتقدم من فيرا ويقبلها. فيراي!»

وقفز الى الجادة وانطلق نحو بيتها وكأنما نوى أن يهدمه.

هذا هو البيت «مشوه وضيق حشره في الصورة بنّاء مجنون». علىٰ مهلك. لا شيء مجنون به. بيت اعتيادي في هذه المنطقة من المدينة. ذكر ابو فيرا ذات مرة ان هذه البدعة كانت موضة المعماريين في بداية القرن. النوافذ عريضة مثل نوافذ البيوت الحديثة، الا ان الواجهة مزينة بزيادات متينة. وفوق المدخل وضعت جنية بحر من الغرانيت والطابق السابع هو الطابق العلوي، والسقف فوقه منحدر بشدة، وهناك ابراج صغيرة. طراز قوطي قليلا، ورومانسي، بل وغريب. بيت مضحك وهذا كل شيء. وقف ماكسيموف

والقى رأسه الى الوراء، ونظر الى النوافذ المضاءة، وتذكر:

مهما يكن الطابق عاليا
في الظهر او في منتصف الليل،
ستعثر على نافذتها وانت على الرصيف
بين مئات النوافذ...

وفكر مع نفسه: «كم احبها! فلأتعذب، ولأعان بعدها عني، وليبدأ الحب بالغيرة. لا يهم ذلك. فمن اجل ذلك بالذات تستحق الحياة ان تعاش. اعشق عينيها، شعرها، شفتيها، جسدها، كلامها، وفساتينها، عاداتها، وضحكها، اخطاءها، وكآبتها، بيتها وشارعها، وكل هذه المنطقة، واحترم رجل المليشيا هذا الذي يمر بي للمرة الثالثة».

– مرحبا يا عريف!
– ماذا وراءك؟
– لا شيء سوى انني احبك.
– بهذه المناسبة هل هويتك معك؟
– لا.
– وماذا تعمل هنا؟

– اريد ان اقفز الى السماء.

– تعال معي.

– اعذرني يا عريف. أنا عاشق. هل النظر الى نافذة المحبوبة في الليل ممنوع؟

فضحك الحارس ضحكة رنانة، وادّى التحية وقال:

– لا يستحب ولا يمنع. ارجو لك التوفيق.

الفصل السابع

حفلة في النادي

«وهكذا يمكن القول بعد تلخيص كل ما ذكر أن الكحول يؤثر تأثيرا سيئا على جميع اجهزة الجسم».

اليوم لبس زيلينين، لاول مرة منذ وصوله الى كروغلوغوريه، قميصا ابيض منشى في محل غسيل في لينينغراد، وربطة عنق جديدة ذات خطوط افقية. فقد القى محاضرة بعنوان «الكحول – مهدم الصحة» في المجلة الشفهية التي تنظم في النادي كل شهر. ولم تظفر المحاضرة بنجاح. وكانت تلك حالة صعبة اذ لم يكن هناك، كما يقولون، تجاوب بين المحاضر

والمستمعين. في البداية ضحك المستمعون بطيبة نفس، ثم سكنوا في جمود مؤدب. وحتى يغوروف الذي كان جالسا في الصف الأول رفع يده الى وجهه عدة مرات محاولا ان يخفي تثاؤبه. وكان زيلينين يقرأ ما في الاوراق اسرع فاسرع. ليت هذه الفضيحة تنتهي سريعا.

— يجب ان يساهم في مكافحة شرب الكحول الرأي العام بنشاط! — نطق زيلينين بالجملة الاخيرة بحماس هزيل ومسح وجهه الملتهب بمنديله وسأل: — هل توجد اسئلة؟

فسألوه من القاعة:

— وانت نفسك يا دكتور هل لا تعاقره ابدا؟

وسمعت ضحكة. وارتبك زيلينين فخلع نظارته لسبب ما، وقلّص عينيه فعل قصير النظر. وغمغم:

— أنا... بشكل معتدل. وبالمناسبات كما يقال.

ضجت القاعة. ضحك المستمعون بغير حقد، بل وبتنفيس، وكأنما سرهم بان الفتى قد قام بواجب مضجر. وقرأ شيئا من الاوراق، وعاد الى طبيعته ثانية. وهدر احد بصوت واطئ النبرة:

— المناسبة يمكن ايجادها. زرنا ونشرب كأسا من الخمرة.

نهضت من الصف الثالث امرأة نحيلة هي زوجة فيليمون سائق عربة المستشفى.

ــ ارجو المعذرة بالطبع. هل قلت أن الكحول يعالج؟

ــ نعم، نعم. نحن نعالج الادمان عليه.

ــ فليتك تعالج زوجي يا الكسندر دميتريفتش. فقد ضميره كليا. لا يدعنا نعيش لا انا ولا الاطفال. وأنا اقول له: اخجل يا ظالم، لو انت سائق خيل فقط لهان الامر، ولكنك شغيل طبي ايضا!

ــ الموافقة الشخصية ضرورية هنا يا آنا آيفانوفنا. عند ذاك اضمن النجاح من جانبي.

نزل زيلينين من المنصة، وجلس في الصف الأول الى جانب يغوروف.

ــ هل كنت ابدو في وضع يرثى له يا سرغي سامسونوفيتش؟ قل بصراحة ولا تأس عليّ.

ــ كانت المحاضرة جافة قليلا يا ساشا. ولكن لا بأس. انها المحاولة الأولى... الخطوة الأولى اصعب الخطوات، ثم يسهل الأمر. لا تيأس.

وقهقه فجأة.

ـ لو تعالج فيليمون! ان ذلك آكثر تأثيرا من اية محاضرة.

ـ وماذا في ذاك؟ عليّ ان احاول.

ـ أشك في انك ستوفق. انه رجل صاحب مبدأ.

وافردت آخر «صفحة من المجلة» لفريق الهواة. غنت داشا غوريانوفا بمصاحبة الاكورديون بصوت ضعيف وبطريقة لا تخلو من غلظة الاغاني «ذاهبون، يا أصدقاء...»، «آه، تتفتح اشجار العليق» و«يقولون انني ليست جميلة...». وكانت الاغنية الاخيرة غنجا صرفا. فان الحضور رأوا جيدا انها جميلة في ثوبها الجديد ذي اللون البنفسجي الزاهي الذي خيط في بتروزافودسك وفق ما جاء في آخر عدد من مجلة ريغا للازياء.

وفكر زيلينين: «سأقول لها اليوم حتما ان تلقي زهرتها الحمقاء هذه الشبيهة بالذبابة المسحوقة. لا يجوز تشويه النفس بهذا الشكل. الفستان جميل، وهي نفسها فتنة...»

واعلنت محررة المجلة من على المنصة، وهي معلمة في المدرسة الثانوية، بلهجة راقية: «نأتي على آخر صفحة من صفحات مجلتنا، ونبدأ بالرقص».

– ها هو! – هدر الصوت الابح المعروف لزيلينين.

وساد القاعة هرج لا يصدق. واتجه الشيوخ نحو باب الخروج، وأقبل الشباب على القاعة من المشرب والفسحة المخصصة للتدخين. وابعدت الكراسي بضجيج. وركضت داشا نحو زيلينين منفعلة لامعة العينين، والتورد يشيع في خديها كليهما. يبدو انها أحست في هذا المساء انها ملكة الحفلة. ولم لا؟ عندما تكون في التاسعة عشرة انك قادر على تحريك جدران القاعة، وتحليتها بالمرمر والمرايا التي تجعلها متلألئة وبلا نهاية، وتسوية الارضية الخشبية المتموجة واكسائها بالباركيه الصقيل، والباس الرجال «فراكا» او بدلة الفرسان، وتخيل نفسك... نعم يمكنك ان تتخيل نفسك كما تهوى وانت في التاسعة عشرة من العمر! وكل ذلك تستطيع ان تفعله في ثانية واحدة.

سألت داشا:

– يا الكسندر دميتريفتش، بالطبع انك ستبقى للرقص؟

فأجاب برياء:

– لا اعرف حقا... لم انو ذلك. فهناك كلهم في سن الشباب.

ـ وانت هل دخلت الشيخوخة؟
آه يا لعينيك المتألقتين! يا لزرقتهما!
وهكذا كتب زيلينين لماكسيموف ببلاغة قبل ايام:
«ان للشماليين عيون زرقاء بشكل مذهل. والظاهر انهم نادرا ما يرون سماء زرقاء حتى انهم يحتفظون بذكراها في عيونهم».
ـ الآن سأدخن سيكارة وأقرر. آه، يا للشيطان يصعب على الانسان الخروج من هنا!
ـ هل تأتي ورآء الكواليس؟
ـ طيب. هل تريد ان تدخن يا سيرغي سامسونوفتش؟
كان يغوروف واقفا الى جانب زوجته، فنظر الى زيلينين وداشا، وابتسم ابتسامة كئيبة قليلا وطيبة تطل على وجهه في اللحظات الحلوة بشكل خاص.
اليوم كان يلبس ساقا صناعية ثقيلة بغيضة له. وكان ببدلته الرمادية الفاتحة والعصا بيده مثل متأنق ما قبل الحرب.
ـ لا، يا ساشا، اظن اننا ذاهبان. هل ستأتي الينا غدا؟
ـ بالتأكيد.

ابتسمت يكاتيرينا يلينيتشنا للشابين، وأمسكت بذراع زوجها واتجها نحو باب الخروج. وغاص قلب زيلينين حين امتلأ وجه يغوروف بالدم حالا، وارتخت كتفاه من التوتر.

– هيا، يا داشا، لندخن. الا يوجد عندكم رجال مطافئ؟

استقرا في مكان نصف مظلم وراء منظر رسم بغلظة يمثل «شروقا على النهر». جلست داشا مديرة جنبها الى زيلينين واضعة يديها على ركبتيها. كانت جلستها وقورة، ولكن الابتسامة كانت ترتسم على شفتيها. كانت تبدو وكأنها تنتظر. ولكن ماذا سيحدث بعد ذلك؟

«لو كان فلادكا في مكاني لبدأ يقبلها في الحال».

– داشا!

– نعم، يا الكسندر دميتريفتش؟

– هل يمكن ان تسميني ساشا ونحن خارج العمل؟

– راغبة في ذلك جدا.

– جيد جدآ، يعني... اردت ان اقول لك...

– نعم؟

– اهدي لي هذه الزهرة. هل تأسفين عليها؟

ادارت له وجهها وعيناها متسعتان دهشتان مثل عيني صبية، ورفعت يدها الى صدرها آليا.

– هذه الزهرة؟ هل يمكن ان تهدي مثل هذه الاشياء؟ انها غير جميلة.

– لماذا تضعينها على صدرك اذن؟

– موضة شائعة.

– ليست موضة شائعة. لا احد يضعها! – هتف زيلينين كذلك فرحا.

– صحيح؟ – وضحكت – اذن، تفضل اهديها لك.

وضعت عفويتها كل شيء في موضعه في الحال.

حشر الزهرة في جيبه، وأمسك يدها ببساطة وود وقال:

– تعالي نرقص.

ومن خشبة المسرح رأيا القاعة كلها تموج بالفالس.

... مثل ضفة شديدة الانحدار

ونهر فوّار

انا وانت لا ننفصلان.

سمع الكسندر هذا الفالس وتذكر حفلة رقصة من حفلات المعهد، ووجوه اصدقائه تغمز له من بين الجمع، والشرائط الورقية المقذوفة على الرؤوس، ونثار الاوراق الملونة... ولم تثر هذه الذكريات الاسى في نفسه، ولم تظهر قاعة نادي كروغلوغوريه هزيلة لعينيه بجدرانها المزينة باحصائيات التاج الحليب والخنازير لان هذه القاعة غمزت له وابتسمت بنفس الود. فبين الجمع يدور شبان يعرفهم من رأس ستكلياني، ومن مصنع الاخشاب، ومن المرفأ. وكان قد عرف الجميع تقريبا خلال هذه الاشهر القليلة. عرف البعض باسمائهم، والبعض الآخر بوجوههم، وآخرين بخرخشة صدورهم في السماعة. وهذه القاعة الصغيرة الكئيبة؟ لا بأس. فقد وضع الاساس للنادي الجديد لمدينة كروغلوغورسك المقبلة.

كانت ذراع داشا مرتمية على كتفه. وقد طوق خصرها. ولكن رقصة الفالس انتهت.

قالت داشا:

ـ يا للاسف. كم احب هذا الفالس!

ـ لا بأس ستعاد الرقصة.

وفي تلك الاثناء ترددت ضحكة عالية في الحشد عند الباب. وارتعشت دآشا. واسرعت في تأبط ذراع زيلينين وانطبقت اصابعها بتشنج. دخل الى وسط القاعة فيدكا بوغروف شاقا الجمع، يصحبه اصدقاؤه. وافرج ساقيه الموضوعتين في حذاء جلدي طويل مجعد عند الكعب وأجال ببصره الكدر فيما حوله. وكانت خصلة من الشعر الذهبي نافرة تحت طاقيته التي كانت ممالة على عينه. وتحرك فكه الفتي المستدير الحليق بشكل املس، على حركة السيكارة المبللة بين شفتيه. كان فيدكا يرتدي بدلة زرقاء من النسيج الصوفي الممتاز. وقد انزلت سحابة قميصه الرياضي السماوي اللون فلاحت ترقوتاه وفانلته القذرة بعض الشيء. لاحظ زيلينين كل ذلك بدقة لان فيدكا وقف وقتا طويلا في مكانه، ينظر الى الجمع في الصمت ويهتز. كانت الموسيقى قد عادت الى العزف منذ وقت طويل، ولكن احدا لم ينزل الى الرقص. وفي آخر الامر ابتسم فيدكا، وتقدم ببطء من زيلينين.

— سلام يا طبيب — قال ذلك ورفع اصبعين على طرف طاقيته — لم نلتق منذ وقت طويل. منذ تلك اللحظة التي سجلوني فيها متمارضا بناء على امرك.

صمت زيلينين شاعرا في رعب مرة أخرى بذلك الشعور الكريه الذي يستولي على الضحية المرتعشة وهي تواجه الجزار.

– وانت، كما ارى، رجل عصري – وقهقه فيدكا واخرج باصبعه ربطة زيلينين من تحت سترته بمهارة. ثم ابتسم لداشا – يا داشوتكا بارليه فو فرانسيه؟ هل نرقص التانغو؟

– لا – قالت دآشا وتشبثت بيد زيلينين بصورة اقوى.

– ما هذا! – صرخ فيدكا، وامسكها من كتفهـــا، وانتزعها من زيلينين، وجرها الى وسط القاعة.

وحضنها من ظهرها بيده اليمنى، وانزل يدها اليسرى ودفعها الى اقصى ما تصل اليه من الخلف. ورقص في خطوات قصيرة فاترة. بهذه الطريقة يرقص الاوباش في قاعات الرقص في لينينغراد وفي الضواحي. كانت الفتاة تريد أن تنزع نفسها، الا ان فيدكا كان يمسكها بقوة. كان جسمه الضخم المنحني بكتفيه العريضتين، وساقيه المنفرجتين بخلاعة يشبه عنكبوتا اصطاد فراشة عرضا.

نظر زيلينين مذهولا، وتبادل النظرات مع اناس

كثيرين. ها هم فكتور، وبيتيا ايشانين، وبيوتر السائق، وتيموشا، وبوريس...

الجميع ينظرون اليه. بوسعهم ان يعيدوا النظام بلمحتين، ويطردوا من هنا عصابة بوغروف. ولكنهم لن يتحركوا من اماكنهم الآن.

لانهم اصدقاء زيلينين، لانهم يثقون به. بصق فيدكا السيكارة على الارضية، ورفع صوته بمرح:

اتمشى في اورغواي
ليلا، الظلام لا يصدق
واسمع صيحات الببغاوات
واصوات القرود

– يا داشوتكا. يا غرامي! يا طفلتي الابدية!

عدّل زيلينين نظارته، ومشى بتصميم عبر القاعة كلها. وربت على كتف فيدكا بوغروف بقوة فترك هذا الفتاة في الحال، واستدار بحدة.

قال زيلينين:

– أرجو ان تخرج في الحال. انت سكران ولا تحسن السلوك.

خطا فيدكا خطوة الى الامام. وتراجع الكسندر زيلينين عفويا.

قال فيدكا بضجر:

– لن اضربك يا وغد. وماذا اضرب منك؟ ثم قد تموت. سأجرّ انفك!

يا الهي، ما هذا؟ يا للرعب! مثل حلم شرير. وتراجع زيلينين فاقدا رشده خوفا من الاهانة المريعة. وتحركت اصابع فيدكا المبسوطة، وتقدمت نحو وجهه. وفي تلك الاجزاء من الثانية التي دقت داخل رأسه كالمطرقة تذكر حادثة من الماضي السحيق بأدق تفاصيلها.

كان ذلك خلال الجلاء الى اوليانوفسك. وقد ذهب الكسندر الى حلقة التزحلق صبيا نحيلا هادئا ملفوفا بمنديل أمه حتى ليصعب على المرء ان يعرف أهو ولد ام بنت. وكان يحمل في يديه قبقاب تزحلق للاطفال. وفجأة وقف بالقرب منه غلام في فروة خروف جاء يتزحلق على القبقاب «النروجي». كان من اولئك الذين يبيعون التبغ الرخيص في زوايا الشوارع. وجحظت عينا الغلام في وجهه الاحمر مثل زرين من قصدير، وكانت السيكارة بين اسنانه

مثل مصباح سيارة كبيرة. انتزع الغلام قبقاب التزحلق من الكسندر صامتا وقرص انفه، وانصرف. وحين اندفع الكسندر خلفه باكيا، متوسلا ان يعيد له هدية ابيه، القبقاب الثمين بالنسبة له، ضربه الغلام على وجهه بقضيب حديدي محتفظا برصانته. ثم وقف على الصبي المتمدد منتظرا افعالا جوابية. الا ان الافعال الجوابية لم ترد. تكور الكسندر من الرعب وهو متمدد على الجليد. خشي ان ينهض مخافة ان يضرب بالقضيب الحديدي مرة اخرى. وخشي ان يرفع رأسه مخافة ان يدوسه القبقاب «النروجي» اللامع.

ـ امعة!

توترت عضلات زيلينين. وخطا الى جانب مثلما علمه الكسي ماكسيموف ذات مرة، و«غطس» وسدد الى فك فيدكا لكمة من اليمين.

لم يتوقع احد مثل هذه النتيجة. ارتمى بوغروف على الارض، وارتخت ذراعاه الموشومتان الجبارتان وحذاؤه الجلدي بلا حول. ووقعت طاقيته بالقرب منه كومة مجعدة بلا شكل. وكان الطبيب الطويل

من لينينغراد يقف على جسم الخصم الصريع وقفة ملاكم مجرب.

افاق اصدقاء بوغروف من الصدمة، والدفعوا الى الامام وفي تلك اللحظة تدخل تيموشا وجماعته. ثم خرج الشبان الخاسرون الى خارج النادي بحذر مصحوبين بكلمات مناسبة للمقام. ثم حملوا الى هناك فيدكا الخائر المتمتم بشيء متقطع.

واحاطوا بزيلينين.

وركضت اليه دشا متألقة. وبدت وكأنها توشك ان ترتمي على عنقه. وقال رجل من الحشد بصوت واطئ النبرة معروف:

– لكمة قاضية تماما. رغم انكما من وزنين مختلفين.

فصاح احدهم:

– من اية مرتبة رياضية انت يا دكتور؟ هكذا يا اولاد، قد تقعون على ملاكم.

وضحك زيلينين ضحكة مقتضبة وقال:

– هذا توضيح عملي لمحاضرتي. ليس من الصعب ان تقضي على انسان في حالة سكر بلكمة

قاضية. انه يفقد الاحساس بالتوازن، ودماغه يفقد سيطرته على عضلاته...

وضحك وقلّل من شأن فعلته. الا ان نشوة الانتصار ظلت تنمو في نفسه باستمرار. ان المخلوق الملفوف في منديل أمه قد اصبح، كما يبدو، رجلا حقيقيا.

ان الرجل يستطيع ان يدافع عن نفسه، وعن اي شخص اراد، ويستطيع، ان يسير على الارض، كالسيد، ويرقص، ويغني، ويربت بفرح على ظهور الرجال المحيطين به الاشداء مثله.

– تعالي، يا داشينكا، نرقص الفالس!

...وفي اثناء ذلك كان جماعة من الناس يسيرون في الظلمة الثلجية في صف واحد على اثر عميق خلفته عجلة، وقد رفعوا ياقاتهم. صرّ فيدكا على اسنانه، وبصق على جانب بصقة ممزوجة بالدم. وزعق فجأة:

– هل سنسكت يا بهائم؟

شتم آحدهم من الخلف باقذاع. ووخزه ابراهيم من ظهره بهدوء.

– تحرك.

– الى الجحيم – قال بوغروف في حقد شديد – اضجرني هذا الجوف العفن المنحوس حيث يظن كل من هب ودب انه قادر على اصدار الاوامر. هل تسمع يا ابراهيم؟

– تحرك، تحرك.

– اقول لك، حان الوقت للذهاب الى لينينغراد. ننخرط في عمل.

– لا اذهب الى لينينغراد. أنا انتهيت.

– ماذا؟ تنكرت؟ اشتروك لقاء حذاء من المطاط؟

– تحرك، – تمتم ابراهيم في تهديد هذه المرة.

– هكذا اذن. سرعان ما تصبح من امعة تيموشا. تف!.. اذهبوا جميعا... ساتزوج فتاتي، وانتقل معها الى لينينغراد، الى غاتشينا، الى اولاد حقيقيين.

– من المشكوك في ان الدكتور سيعطيها لك بسهولة! – صاحوا من الخلف بسخرية.

وصدرت قهقهة. واستولى الذعر عليّ فيدكا: انه يفقد سيطرته حتى على هؤلاء المنبوذين. الا انه اطبق فكيه، وحين هدأ الضحك قال بتفكير وحقد:

– ساقتله.

وبهذه الكلمة الجليدية، وبرؤية الخنجر اللامع في الليل، الممسك من قبضته بقوة كشف النقاب عن قلبه البارد القاسي. وأعاد سيطرته على العصاة.

فيليمون يشفي

– ضجرت منها. لا استطيع رؤيتها! ليكن عندك ضمير يا الكسندر دميتريفتش.

– استنشق!

– يـــا الهي! ساتحاشى المشرب الآن من مسافة عشرة اميال، واذا دخلته فجزائي ان احرم من الاقتراب من اي حصان الى الابد. ابعد عن عيني هذه الخمرة الملعونة.

– لم اظن يا فيليمون انك شخص ضعيف الارادة. ما دمت وافقت على العلاج فعليك ان تتعالج. استنشق! اشرب!

ها قد انقضى اسبوع وزيلينين يعالج فيليمون، ويطبق معه طريقة الاكاديمي بافلوف في الانعكاس الشرطي للنفور من الخمور. دخل فيليمون المستشفى

ضاحكا. ومع ذلك فسرعان ما امتلأ وقارا بعد ان رأى انه موضع اهتمام الكثيرين. وفي الدورة الأولى، حين دعوا فيليمون الى غرفة الخفارة بعد ان حقن بالابومورفين* شك زيلينين في نجاح مشروعه.

وحين رأى السائق زجاجة الفودكا موضوعة على المكتب التهبت عيناه، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة هانئة:

– يا الكسندر دميتريفتش، لماذا تقدمها لي وانت لا تشرب؟ هل تشاركني بكأس؟ على طريقة الاكاديمي؟ حسنا. كما تريد.

وتناول القدح بحذر، وبرؤوس اصابعه، وقلّص عينيه، وصب في فمه الخمرة الشهية. الا ان الابومورفين عمل دون توقف.

والآن كان فيليمون المرتدي بيجامة نظيفة، الوردي الوجه والوقور، يتلوى امام قدح الفودكا مثل طفل امام زيت الخروع. وكان زيلينين لامع النظارة مرفوع القامة مجسما بنفسه صلابة العلم الحديدية. نظر فيليمون نظرة كئيبة الى الجردل الموضوع على

---

* مستحضر لاحداث القيء.

الارض، وحيث كانت تسكب فيه عادة أعلى مرحلة للنفور من الخمور. ثم نظر فيليمون الى النافذة. ورأى عربة عليها برميل متجهة من البحيرة الى المستشفى، وزوجته آنا ايفانوفنا جالسة على البرميل مطبقة شفتيها. كانت الزوجة تتكفل بالعربة اثناء علاج زوجها، وتعمل بتفان.

وفكر فيليمون: «آه! انهيت السكر وسأبدأ بشراء الاشيـاء. اوفر المال وسأشتري تلفيزيونـا. سأتنور انا وزوجتي. ايه، يا حياة الوقار».

وفي تلك الاثناء كان زيلينين يفكر بخط للتزحلق بالاسكي في النزهة الى رأس ستكلياني. قبل مدة فاجأه والداه بارسال اسكي التزحلق الذي كان يستعمله من قبل. في البداية اكتفى بأن ضحك: يا للشيخين العجيبين، يتصوران ان له متسعـا من الوقت ليقوم بالنزهات هنا! ولكنه الآن بعد ان تذكر اسكيه شعر بفرحة. ما اروع ان يكون له آسكي في حقيقة الامر! فليتدرب كما ينبغي، وليتعلم الانزلاق من المرتفعات. في الامكان أن يذهب بالاسكي اذا دعي لعيادة المرضى في النقاط البعيدة. وبشكل غير ارادي تصور، على عادته القديمة، لقطة من فيلم

سينمائي. يطير من جبل الى الاسفل، منزلقا بين جذوع اشجار الصنوبر، جسم لدن. انه هو، زيلينين. وها هو يختفي عن البصر، وبعد ثانية يطير على رابية. ويتطاير الغبار الثلجي من تحت الاسكي كالمروحة! «هذا طبيبنـــا» – سيقول نفر من الاسكيموس بفخر لمعلمة اللغة الروسية الزرقاء العينين التي وصلت يوم امس من موسكو بالطائرة – انه شخص طيب وشجاع». وتعصر المعلمة في يديها قبعة فراء السنجاب بانفعـال، وتحدق بالرياضي الشاب ذي اللحية العريضة السوداء. وتملأ الاكواخ الاصوات المرحة.

وتلقي الفتيات السمروات نصف العاريات اكاليل الزهور في الهواء، ويحمل الشبان على اكتافهم الزوارق الطويلة الضيقة الى خط الموجة، استعدادا... قف، تمضي دقيقة اخرى، وتظهر سفينة من المريخ. والاسكيموس والزهور والزوارق قد ظهرت.

اصبح زيلينين في الايام الاخيرة يستسلم لاحلام اليقظة. وتلك نتيجة لاوقـــات الفراغ الكثيرة. فقد انخفض عدد الدعوات لزيارة المرضى انخفاضا شديدا لسبب من الاسباب. وقصرت طوابير المرضى

امام العيادة الخارجية الى النصف. وقد طرح المحاسب «مسألة» النقص في تنفيذ الخطة المرسومة لايام اقامة المرضى بالمستشفى. وكان الفتور يرجع جزئيا الى زوال موجة الانفلونزا الفيروسية، والى تحسن الطقس. ولكن بماذا يفسر انعدام الحالات الطارئة؟ قبل هذا الحين كان من النادر ان ينام ليلة هادئة. كانت حالات الطوارئ، وتعسر الولادة، والنوبات القلبية، والتهابات الزائدة الدودية تتوارد وكأنها من قرن الخصب. اما الآن فالمستشفى هادئ وفي نعيم. والمرضى المزمنون يتمشون في خميلة البتولا. وغرفة العمليات مقفلة. الا ان ممرضة العمليات داشا غوريانوفا ليست ضجرة: انها تعمل في المختبر بحماس وبذكاء نادر. والتوفيق شامل. الآن تجري تحليلات معقدة بدرجة كافية، وتؤخذ صور اشعة مقبولة، وجدول الاعمال سائر بانتظام. وكان لزيلينين مبررات معينة للفخر حين كان يلقي عند خروج الى مدخل المستشفى في الصباح، نظرة ودود ازدرائية بعض الشيء على بناية المستشفى الآجرية الواطئة.

ولكنه كان، في اللحظة التالية، يرتعب من سكينته، ويبدأ بتقصي النواقص بتدقيق مفرط، ويفكر بانه

ما يزال ما يمكن عمله ايضا. تغيير السنتريفوج (جهاز القوة الطاردة عن المركز) والمجهر، وبعض اجزاء جهاز اشعة اكس، وانتزاع طاقم جديد من البياضات والبيجامات من المجهزين. والحصول، بالتأكيد، على أحدث مصباح لغرفة العمليات. ام هذا افراط شديد في الطلب؟ ولكن جهاز تسجيل نبضات القلب الكهربائي ضروري حقا.

لعل ذلك يستحق الذهاب الى لينينغراد بمهمة؟ أثارت هذه الفكرة في نفسه فرحة مشوبة بالخوف. سيرى أبويه العجوزين، ويذهب الى زميليه في الميناء، ويشهد عرضا في المسرح الكوميدي (فقد كتب اليه ماكسيموف يقول ان اكيموف كشف عن قابلياته هناك)، ويزور متحف الارميتاج (ماكسيموف يكتب ان معرضا للرسوم البولونية افتتح هناك) والمكتبة العامة (يكتب ماكسيموف...)... اغلب الظن انه سيكون من الصعب ان يرجع الى كروغلوغوريه. او ربما لا؟ ان زيلينين الآن قد دخل الى حياة الحاضرة بثبات، ونادرا ما يحن. ان ماكسيموف واينا يكتبان له في رسائل طويلة مفصلة عن المعارض والحفلات

الموسيقية، والامسيات والمباريات. واينا لا يوجد عندها ما تكتب غير ذلك. فلم يكن لهما ماض مشترك، بل احلام عن المستقبل... يصعب ذكرها حتى بالحديث فكيف الكتابة عنها. الا ان الكسي يصف مغريات المدينة بشكل ملحمي يثير الريبة. ربما هي الرغبة في ان يسلي صديقا يعيش في نأي حياة لا رونق بها. ولكن كان يخيل الى زيلينين في بعض الاحيان انه يلمح رغبة غير ارادية لدى ماكسيموف في البرهنة على صحة نهجه. انظر كيف تفور الحياة! انظر اية مناقشات، واي لهيب! وانت هناك...

كان زيلينين يكتب عن العمل فقط. لم يرغب في ان يخبر الكسي المستهزئ بانه اصبح عضوا نشيطا في ادارة النادي وفي هيئة تحرير المجلة الشفهية، وبانه يلقي اشعارا في حفلات الهواة، وبانه ينوي ان يخرج على المسرح «الاشجار تموت واقفة»، وبانه يشكل مع بوريس فرقة للكرة الطائرة ويتدربون، مرة في كل اسبوع، في مخزن للبضائع في المرفأ حوّل الى ملعب رياضي، وبأن في مستطاع المرء ان يعيش في «النأي» عيشة حافلة اذا لم

يتذمر، ولم يخضع نفسه لتحليل نفسي معذب. لم يكتب لالكسي عن هذا كله، بل حكى له بتفصيل عن ممارسته للطب. ربما اعتبر ذلك أهمّ حجة في نقاشهما، النقاش الذي بدأ على كورنيش دفورتسوفايا في لينينغراد. عند ذاك اذهلت زيلينين كلمات ماكسيموف. وكان من الصعب ان يعزى كلامه الى الرغبة فقط في ان يلعب دور «تشايلد هارولد» المعاصر. وليس من البساطة تماماً ان ينفذ الانسان الى اغوار شبان من مثل الكسي ماكسيموف. ولكن المناقشة شيء جيد. ولطيف ان تظهر مناقشات. وقبل ثلاثة اعوام حين كان زيلينين يحاول ان يحوّل النقاش الى موضوع عام، كانت محاولاته تنتهي بعاصفة من النكات، وباقتراح لدخول مشرب. ولكن الزمن يتغير، ونحن نتغير معه. نحن جيل من الناس يسير بعيون مفتحة. ونحن ننظر الى الامام، والى الخلف، والى مواقع اقدامنا.

وما تبقى يتوقف على قوة بصرنا. البعض يرى الهدف بوضوح، والبعض الآخر يحتاج الى اختيار عدسات طبية.

– انا ذاهب، يا الكبسندر دميتريفتش – قال السائق فيليمون في حزن. وكان واقفا عند الباب يحمل الجردل الوعاء البالي الذي يحمله الى حياة جديدة.

القى زيلينين معطفه على كتفيه، وخرج الى الفناء، الى الظهيرة الشتائية الرمادية الصامتة حيث قطع الثلج تتطاير هابطة صاعدة بلا نظام. وانبعثت سكينة رصينة من اشجار البتولا التي تتدلى خصلها البيض، ومن البيوت التي دفنت في الثلج الى مستوى النوافذ، كأنها في قيلولة ما بعد الغداء. وفي الجنوب الغربي من المستشفى فقط، وفي مدى بعيد جدا، فوق خط الغابة الداكن المتعرج بدأت السحب تزرق زرقة قاتمة، وبينها شفّ خط ذهبي برتقالي طويل لا يكاد يبين، يذكر بانه ليس كل الاشياء في العالم صافية وهادئة مثل هذا اليوم الرمادي. كالحب مثلا.

وسمّره في مكانه هاجس غير واضح، ولكنه قوي. فوقف لا يقوى على انتزاع بصره من الخط الذهبي الذي مدته يد خفية فوق الغابة. وفي ذلك الاتجاه بالذات ظهر حصان يسير غير متعجل مشدودا الى زلاقة. وصل البريد.

برقية ورسالة

من موسكو، من اينا. موضوعتان على المنضدة. وتنقر اصابع زيلينين بالقرب منهما. يخرج زيلينين سيكارة، وينظر الى الكنز الملقى على المنضدة. ويحتدم صراع. الرسالة مرسلة قبل البرقية باسبوع. يعني يجب قراءتها قبل البرقية.

الا ان البرقية تحتوي على انباء ومخيف مجرد التفكير بأية انباء يمكن ان تكون في البرقية.. ويتناولها وكأنما القى نفسه في ماء.

«سافرت بقطار مورمانسك. العربة رقم ٥ اينا».

هذا هو بالذات. هذآ ما كان لا يتجرأ حتى على التفكير به. ان تأتي اليه فتاة لا يعرفها اسمها «اينا». فتاة لا يعرفها ابدا. غريبة. ان تلك الكلمات القليلة التي أبرقت له على طريقة مورز، وطبعت على شرائط من الورق سكبت عليه موجة من البرد والاضطراب الزمهريري. كيف يلتقيان؟ واين ستنام؟ ان الصورة التي كونها لها عن طريق الرسائل والمكالمات التلفونية قد تلاشت. ومد زيلينين يده الى الرسالة وكأنما يمدها الى طوق النجاة.

«... لقد تعذبت. وأخذت صورتك تبتعد عن خيالي وتمحى من ذاكرتي. ربما انا مجنونة ووقحة، ولكنني قررت بحزم ان اجتاز آخر امتحان قبل موعده، وان اسافر اليك. فليكن معلوما لديك ان ذلك لغرض التزحلق بالاسكي لا غير. فهل سترميني؟»

حلوة! وصاحبة نزوات! نعم، ان ذلك افظع من ركوب سيارة الى جانب فتى لا تعرفه. ما هو تاريخ ارسال البرقية؟ اليوم ليلا يمر قطار مورمانسك السريع بمحطتهم. والمحطة تبعد عنهم سبع ساعات بالباص. لا الحق بها ابدا. يجب ان اتلفن الى يغوروف...

– اهنئك – صرخ يغوروف بالتلفون – لا تجبن. كل شيء سيكون على ما يرام. انها شاطرة. ماذا ما تقول! بالطبع. خذ سيارة.

وهكذا سار الامر بشكل حسن. وعبر زيلينين الفناء مرة اخرى الى جناحه. آه، يا للشيطان. الشقة باردة! وفي غرفة الطعام يهب تيار هواء بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة. وبوجه عام شقة عازب قبيحة. ستنفر منها وتضجر. يجب ان اشتري جهاز راديو! يخيل الي انني رأيت جهاز راديو بديعا من طراز «ريكورد» في المخزن مع غراموفون. واختطف معطفه، وطوّح

قبعته الفرائية على رأسه، وخرج من البيت قفزا، وركض في الخميلة. ولحق بداشا التي كانت ذاهبة الى البيت. سمعت هذه وقع اقدام ثقيلة خلفها وخطت من الدرب على الثلج رأسا. وكانت قد القت على المدفأة منذ مدة وجيزة، حذاءها اللبادي الطويل المستهلك، وأخذت تلبس حذاء اسود من اللباد الصوفي بحواف جلدية. وجدت نفسها في الثلج الى الركبتين تقريبا. وغطى البرد اللاذع قدمها، وصار يلذعها كالابر من خلال الجورب «الكابرون» وكأنما يهزأ بنتاج الحضارة المثير للضحك هذا. واختفى الدكتور عن النظر. وعرفت داشا حقيقة الامر. «اركض، ايها الغرنوق الطويل الساقين واستقبل سمكتك القادمة من العاصمة!» فان داشا غير مكترثة لذلك على الاطلاق. انت لا تعنيها على الاطلاق. كليا والى الابد. ولكن يجب اخراج قدمي من الثلج على اية حال.

... وضع زيلينين جهاز الرآديو الصغير في غرفة الطعام، والقى الموصل الهوائي على الموقد. وظهرت زجاجة شمبانيا وسط المنضدة التاريخية. وحولها وضعت علب المسكرات، ومعلبات السمك في نسق مؤثر. اما الكونياك فوضعه المكافح الضروس لشرب

الخمور، على طوار النافذة، وراء الستارة. ثم أخذ يدور في الشقة، نافضا الغبار، منظفا من الزوايا القاذورات المتجمعة، محاولا بحركاته الصاخبة ان يكبت الافكار المقلقة.

ازرق الغسق وراء النافذة. عن قريب سيحين موعد مجيء السيارة. وفجأة لاحظ زيلينين بطرف عينه، وهو يعبر غرفة الطعام والمكنسة في يده أن اشجار الصنوبر والبتولا متسربلة بلون أحمر ضعيف. وتبدو كديكور في مسرح. ندّت منه آه تعجب، واقترب من النافذة، ورأى ان السحب المتكاثفة الدافئة تنتشر في ثلاثة ارباع السماء فقط، وفوق الغابة المنفوشة يتوهج غروب شتائي خاطف. وتمثل زيلينين الصورة في الحال: في العراء الثلجي الهائل ينطلق مخلوق مندفع ذو مائة عين هو قطار «السهم القطبي» السريع. ألعله هو الذي يكشف عن وجه السماء بيد غير منظورة ملقيا عنها الدثار الثقيل؟

لبس قميصا ابيض، وسويترا ازرق مزينا برسوم، ونظر الى نفسه في المرآة، وصار راضيا. انه يشبه طالب صفوف اسبيرانتورة في السنة الأولى. وانشرحت نفسه، فعبر الغرفة، وتوقف عند الباب.

فتح الباب. ووقف ماكار ايفانوفتش على عتبته.

– تفضل يا ماكار ايفانوفتش، هل حدث شيء ما؟

نظر العجوز اليه معتذرا:

– وصل صبي من بحيرة شوم على الاسكي. بكلمة واحدة... وهنا هزّ يده في ضجر – آه، الاحمق انا حقا!.. اعذرني يا الكسندر دميتريفتش. أعرف انه ليس بالوقت المناسب.

– ماذا حدث عند بحيرة شوم؟ هل يمكنك ان تقول؟

– هاجم دبّ حارس الغابة. ويقول ابنه انه فقد دما كثيرا وجرح جروحا بالغة. كان بودي ان اذهب بنفسي دون تردد، ولكنني اخاف ان لا انهض بالامر. لا اعرف الجراحة كثيرا.

ورمش، ونظر في عيني زيلينين. فادرك هذا كم كلفه النطق بهذه الكلمات من عناء. فلعل المساعد الطبي العجوز تذكر عدد المرات التي القى فيها هذه الجملة المشؤومة: «الطب عاجز هنا!» – مقطب الجبين مهددا، بل ودون ان يفكر بأن الطب ليس عاجزا بل هو العاجز.

ترك زيلينين البيت مسرعا دون ان يلبس معطفه.

واجتاز الفناء بعدة قفزات. كان في غرفة الخفارة صبي في نحو الثانية عشرة هو الذي جاء راكضا من بحيرة شوم. وقد قدمت له العاملة الصحية شايا. وكانت اسنان الصبي تصطك على القدح اصطكاكا خفيفا.

قال الصبي بلهجة عديمة المبالاة:

– بابا يحتضر. – وكان الصبي قد قضى اثنتي عشرة ساعة يركض على اسكيه خلال دروب الغابة، والطرق الريفية التي صادفته، وينحدر متقلبا على المنحدرات الشديدة متشبثا بالاحراش، واضعا في فمه، دون ان يتوقف عن الجري، قطعا من الثلج اللاذع. والآن كان يسيطر عليه عدم اكتراث ناعس.

انسل فيليمون بجنبه الى غرفة الخفارة يبدو ضخما بفروة الخروف المدبوغة.

– انا مستعد. هل نذهب يا دميتريفتش؟

– هل فقدت عقلك؟ انت مريض، مفهوم؟ استلق على الفراش حالا!

امسك زيلينين ذقنه، ودمدم بشيء، والتفت الى مساعد الطبيب ذاهلا:

– ما العمل يا ماكار ايفانوفتش؟ الزلاقة لا تنفعنا. حين نصل يكون الوقت قد فات.

قال مساعد الطبيب بحزم:

– يجب ان نتلفن آلى سامسونوفتش.

– وما الفائدة؟ فالسيارة لا يمكن ان تسير هناك. هل هذا صحيح يا صبي؟

قال ابن حارس الغابة:

– لا، السيارة لا تسير. لا طريق لها.

فاصر ماكار ايفانوفتش:

– تلفن الى سامسونوفتش على اية حال!

رفع زيلينين السماعة.

قال يغوروف هادئا:

– حماقة، هل نسيت يا الكسندر اننا نعيش في القرن العشرين؟ في الهليكوبتر ستكون هناك بعد نصف ساعة.

قال زيلينين متأففاً:

– دع المزاح!..

– انا لا امزح. ساتلفن الآن الى الطيارين. هناك مطار على مقربة منا.

– هل تظن انهم سيعطوننا هليكوبتر؟

– واثق. انتظر وماذآ سيكون الامر مع اينا؟

ندت من زيلينين آهة. لقد نسي امر اينا تماماً. أيمكن هذا؟

ماذا سيكون الامر مع اينا؟ آه، ما ابغض معاكسة الظروف له! سيئ الحظ تماما.

ومرة اخرى ترددت في سماعة التلفون ضحكة تفاؤلية. قالَ يغوروف:

– هراء. لا تقلق. سأذهب للقائها بنفسي.

– عناء كبير لكَ يا سيرغي سامسونوفتش!

صمت يغوروف قليلا وقالَ بجفاف:

– ظننت انكَ تعتبرني رفيقا لك.

– بالطبع، ولكن...

– لا مجال لاي «لكن». كيف هي؟ نعم، اينا، يا الهي!

– جميلة. ستكون حاملة اسكي.

الطيران

بعد ربع ساعة اعلن يغوروف ان الهليكوبتر ستطير الآن، وتهبط على الجليد غير بعيد عن المرفأ. وبعد خمس دقائق كان زيلينين يسير في شارع الحاضرة

المظلم. كان الثلج يصر تحت قدميه. وكان نثار النجوم الدقيق يضيء في السماء. وكان قرص القمر المبتور محاطا بدوائر متعددة الالوان.

ذهب زيلينين ليدعو داشا. فسيكون من الصعب عليه ان يجري عملية وحده.

وفي اثناء ذلك كانت تجري في بيت داشا حفلة مهمة جدا. حفلة خطوبة. كانت المائدة تضم حولها أم داشا، وفيودور بوغروف، وخطابين. بالامس نفد صبر بوغروف. وترصد لداشا حين كانت عائدة من السينما وسار الى جانبها. وقال: «لقد تلفت تماما يا داشا. انا احبك، فأشفقي على حالي. عندي فلوس كثيرة. وستكون لك كلها، وسنقيم بيتا». اجابت داشا: «ابتعد عني. لا اريد ان تكون لي اية علاقة بك». حينذاك طرأت على رأس بوغروف فكرة جنونية: ان يخطبها بصورة رسمية، وفق التقليد القديم. واختار خطابين احدهما خاله سيرغي سيدوروفتش بولياكوف وثانيهما لوكونيا وهو رجل خامل يعمل حارسا لمخازن المرفأ. وذهب هو معهما للتأكيد — رغم ان ذلك يخالف العادة المتبعة. وقرر ان يؤثر في أم داشا بالوداعة،

والملابس الغالية. في تلك اللحظة كانوا جالسين جميعا حول المائدة وكانوا يخوضون باحاديث جانبية كفاتحة، وكما يجب ان يكون. ولم يرق لأم داشا هذا كله. انها لم ترض، حتى في تصوراتها، ان تزوج ابنتهـــا ل« فيدكا المشين » .

فلو دلت هؤلاء الضيوف المتطفلين على الطريق الى باب الخروج لكان ذلك اسهل الاشياء. ولكن احترامها المتوارث للتقليد القديم منعها من ان تفعل ذلك. ان هذه هي الخطوبة الأولى على اية حال. اطبقت شفتيها والقت على الستارة نظرات غاضبة ولكنها مشوبة بسخرية مغلفة. كانت داشا جالسة وراء الستارة تدير الغراموفون رافعة صوته في خبث.

العزاب من الشبان كثيرون
وانا احب متزوجا... —

انبعث من الاسطوانة صوت مليء بشوق فتاة عند المساء.

القت داشا رأسها على يديها. لقد بدا لها في تلك اللحظة انها تحب ساشـا زيلينين المضحك الطويل

الاطراف وان الحياة قد فقدت معناها، ولن تكون في المستقبل الا حياة عقيمة اسيفة ابدا.

طرق الباب طارق. فهرعت آلأم الى الباب بخطى متعجلة، وسمعت صوتا واطئا غير صاف:

– هلْ داريا ايفانوفنا في البيت؟ اعذريني، حادث مستعجل. عملية. يجب الطيران الى بحيرة شوم.

قفزت داشا من وراء الستارة، وشدت قبضتيها. كان زيلينين واقفا عند الباب. ولكنه لم يكن ينظر اليها، بل الى فيدكا. ومرت عدة ثوان وكل شيء ساكن في الغرفة الآمنة تحت ظليلة المصباح البرتقالية الا النظرات تتقاطع في الهوْاء الدافئ كالرصاص المضيء. وامتلأ الجو برائحة انفجار يوشك ان يحدث. بدأ فيدكا ينهض من كرسيه ببطء.

وانزل زيلينين حقيبته من كتفه ببطء ايضا ودون وعي.

– سآتي حالا يا الكسندر دميتريفتش – صاحت داشا في اندفاع، وهرعت الى غرفة النوم عابرة الغرفة بين المائدة والباب وكأنها تحاول ان تشق موجة البغضاء الثقيلة.

أزاح بوغروف الكرسي جانبا.

– لنخرج من هنا – قال زيلينين. انه لن يتراجع امام بوغروف ابداً، وفي اي ظرف كان. ومهما كلف الامر.

– سافل! – همس فيدكا همساً لا يكاد يسمع، ولاح من الشرر المتطايرة من عينيه انه راض من سنوح هذا الظرف.

وفجأة ارتمى عليه سيرغي سيدوروفتش من الخلف بثقل.

وجاءت داشا راكضة بحذائها اللبادي، ومعطفها الفرائي وقبعتها ذات الاذنتين، وامسكت يد زيلينين.

– لنذهب!.. اقول لنذهب!

هل من اللائق ترك ميدان القتال الآن والخصم بلا حول؟

– بانتظارنا مريض يا الكسندر دميتريفتش!

خرج زيلينين على مهل. وقفزت في اثره داشا. وبعد ان هدأت احست في الحال بان في سكون كروغلوغوريه الليلي شيئا غير اعتيادي اليوم. التقط سمعها ضجيجا بعيدا واضحا.

قال زيلينين:

– هذه هليكوبتر آتية الينا.

فاستغربت الفتاة:

- هليكوبتر؟!

- طبعا، - أجاب زيلينين في هدوء مصطنع - فالقضية مستعجلة للغاية.

ركضا نحو البحيرة في دروب تخترق حدائق البيوت. وتسلقا سياجا غارقين في ثلج لم تطأه قدم، ونزلا على الجليد.

في اثناء ذلك كان بوغروف يصارع صامتا للافلات من قبضتي خاله. وفي آخر الامر نفضه عنه، والقاه في زاوية. وقفت أم داشا عند الباب وبيدها مقشة.

- لا تقترب، يا جلاد، ساضربك.

انتزع بوغروف المقشة، وكسرها على ركبته، واجال بصره في الغرفة، وقال بوضوح:

- النهاية. ودآعا ايها المواطنون.

واندفع خارجا. ومن مدخل البيت رأى شبحين عند البحيرة. كان الجليد في بعض الاماكن غير مغطى بثلج فكان يتلألأ في ضوء القمر. وفي ذلك الالق الباهت وقف شخصان لا حراك لهما. نط فيدكا السياج، وركض نحو هوة البحيرة. وتوقف عند طرفها تمآما، وتلمس سكينا وراء عنق حذائه، ورفع رأسه. ووقف جامدا.

في السماء، في الزرقة القاتمة الكثيفة كان جسم غريب يتحرك بسرعة. لم يعرف في الحال انه طائرة هليكوبتر.

والآن لم يعد زيلينين وداشا يتذكران فيدكا، وخلال هذه الدقائق القليلة وجدا نفسيهما على مسافة بعيدة جدا منه، في عالم ليلي خاص، حيث لا يعمل الا اناس ذاهبون للنجدة. في المدى الذي يبلغه البصر ينبسط فضاء ثلجي.

وللحظة خيل الى زيلينين انهما واقفان على رمل ابيض في قاع محيط. كانت الهليكوبتر معلقة فوق رأسيهما تدير مراوحها مثل سمكة عجيبة من اسماك الاعماق السفلى. ثم هبطت الى الاسفل عموديا حتى مست الثلج عجلاتها الثلاث وفتح باب صغير، ولوحت منه كف جبارة.

كانت للطيار عينان جنوبيتان، وخدان مستديران. وكان واضحا لو ان هذا الفتى التقى بهما في غير هذا الظرف لارسل النكات دون شك. واضطرا في مقصورة الطائرة الضيقة الى ان يتلاصقا. بل آن زيلينين القى ذراعه على كتف الفتاة. صفق الطيار الباب. واطلق المحرك. وصعدت الطائرة عموديا. وتولد احساس غريب حتى ان زيلينين اغمض عينيه. وتذكر وعيناه

مغمضتان ان شيئا شبيها بهذا الصعود الى فوق حدث له من قبل، في أحلام الطفولة.

وتحولت الهليكوبتر الى طيران افقي.

وهتفت داشا:

ـ آه، هذا بيتنا، وشخص واقف عند هوة البحيرة ـ لعله أمي.

ولو لم يكن المكان ضيقا في المقصورة على هذا النحو لتقلبت داشا بالتأكيد الى جميع الجهات. كانت تحلق في الهواء لأول مرة، وفي طائرة هليكوبتر أيضا!

كانت تارة تنظر الى رفيقيها في الطيران بعينين لامعتين شاكرتين وتارة تنزل ببصرها بفرح غامر الى الاسفل، الى تلال السطوح الثلجية، وفي المدى البعيد، الى انوار رأس ستكلياني.

ـ ما اجمل أرضنا! ـ صدرت هذه الكلمات منها كتنهيدة.

حقا، انها لجميلة.

كانت منبسطات الغابة القاتمة تحدق بالعراء الثلجي الوامض في ضوء القمر مثل جزر مستطيلة ونصف دائرية.

صاح زيلينين على الطيار:

ـ ما طراز هذه الطائرة؟

وكانت معرفته لذلك ضرورية للغاية ليكتب برسائله عرضا: «واطير في طائرات هليكوبتر من طراز...»

اجاب الطيار:

ـ «مي ـ ١» ـ وخلع قفازته، وهرش وراء اذنه، واخرج سيكارة، ودخن، وانكب على الخارطة.

ربما يتظاهر قليلا، وربما، لا، على الاطلاق. الا آن حركاته الاعتيادية اثرت في زيلينين، سواء هذا او ذاك. وما اغرب المخلوق الانساني! قبل ما يقرب من ستين عاما كانت فكرة التحليق في الهواء بمعونة محرك لا تطرأ الا على اذهان اجرأ الحالمين. واغلب الظن ان جد هذا الطيار كان يجلس على عربة خشبية، ويسوق الثيران، ويهرش رأسه. ولربما سيبحث حفيد هذا الطيار، وهو يهرش رأسه، عن مهبط على القمر.

القرن العشرون! ونحن نجلس داخل مقصورة مهتزة وتحتنا العراء. فلو قلنا لاحد من الناس ان ذلك شيء خارق لضحك منا.

بعد عشرين دقيقة، حين هدأت مشاعر داشا المتهللة وثائرة زيلينين قال الطيار بصوت عال:

ـ هنا، بالمناسبة، هذا البيت.

نظر زيلينين الى اسفل، ورأى رقعة حديقة خضروات صغيرة وضيئة، وسقفا ذا انحدارين. ونظر الى الطيار في شك.

— هل تنزل هنا؟

— لا اعرف — قال الطيار — هنا ثلج عميق وأشجار واخاف من ان احطم المروحة. ولكن لاجرب.

كان زيلينين قد رأى في فيلم وثائقي اناسا ينزلون من طائرة هليكوبتر بسلم من حبال. حتى استولت الفرحة على نفسه.

— ربما ننزل بسلم من حبال؟

والآن نظر الطيار اليه في شك.

— والفتاة ايضا؟

هتفت داشا:

— لا تعجب. استطيع انا ايضا.

— تفضلا — قال الطيار مرحا واخذ يهبط.

تعلقت الطائرة على ارتفاع عشرين مترا تقريبا فوق الارض. وبدا وكأن من الممكن مس رؤوس اشجار الشوح. وفتح الباب ولطم الوجه هواء مثلج حاد. ونهض الطيار على ركبتيه، وانشغل في قاع الطائرة بعض الوقت، ثم القى سلما خارج الطائرة. ربط

زيلينين قبعته على عنقه دون ان ينظر الى الاسفل، ومدّ يده الى الطيار.

ـ شكراً، والى اللقاء.

ـ لا شيء. مع السلامة.

«الامر غير مخيف البتة» ـ فكر زيلينين وهو يتأرجح في الهواء ويتحسس الفراغ بقدمه.

كانت الدرجة الاخيرة تتراقص على ارتفاع خمسة امتار تقريبا عن الارض. اطلق يديه، وغرق في الثلج الى صدره حالا.

كان الهدير الجبار والصفير معلقين فوق الغابة. رفع زيلينين رأسه فرأى داشا تنزل مسرعة مثل كيس عديم الشكل. وسقطت على عنق زيلينين تقريبا. وتمرغ الاثنان على الثلج في مرح. انها لمغامرة رائعة!

لو رآها الكسي ماكسيموف لمات حسدا.

قال زيلينين:

ـ ها قد وصلنا. فهل نزحف الآن الى بيت المريض؟

ـ انظر ـ لكزته داشا ـ هذه زوجة حارس الغابة.

كان شبح اسود يتقدم نحوهما وهو يزيح الثلج بجاروف عن طريقه بقوة.

في الغابة ليلا

ـ يكفي هذا الآن ـ قال زيلينين وهو يخيط آخر غرزة ـ سنحمله صباحا الى المستشفى، وهناك نقوم بالمرحلة الثانية.

ـ هل سيعيش معيلنا؟ ـ سألت المرأة من الزاوية بصوت خافت.

جفل زيلينين ونظر اليها. كم كان في كلمة «معيل» البسيطة من قدم وبدائية! يظهر أن في النساء جميعا دون استثناء يعيش الآن ايضا، في عصر الهليكوبترات والبنسلين ذلك الخوف القديم من فقدان الرجل، المعيل الذي يقود وحدة انسانية صغيرة هي العائلة.

لا فرق بين ان يكون كاتبا في بنك، او محكما في كرة القدم، او صيادا حآرسا لغابة.

نظر زيلينين الى المرأة وصمت. تقدمت المرأة من المنضدة التي يرقد عليها زوجها.

ـ سيعيش! ـ صاحت داشا في ثقة.

وحملوا حارس الغابة الثقيل من المنضدة، واضجعوه على السرير في غرفة مجاورة.

آعدت زوجة الحارس طعام العشاء. مقلاة جسيمة

من اللحم المقلي، وقارورة من الشراب، وعلبة من الفواكه المحفوظة. وكانت لهما شهية نهمة. فشرعا يأكلان.

اكلا وتصرفا في رضى عن عملهما وعن اليوم المنصرم، وفي رضى احدهما عن الآخر، وعن العالم كله. وتبادلا النظرات بفم ممتلئ وتذكرا كيف قفزا من الهليكوبتر على الثلج المكوّم. ونظرت زوجة الحارس اليهما موسدة خدها على يدها وقالت فجأة:

ـ ليهبكما الله السعادة!

القت داشا نظرة سريعة على الكسندر، وتوردت. وبعد دقيقة فقط فهم زيلينين ما تعني جملة زوجة الحارس. وارتبكت المرأة حين رأتهما مرتبكين. سألت:

ـ هل يعجبكما لحم الدب؟

غص زيلينين. وهتف:

ـ كيف؟ يعني... ربما هو ما نأكله؟ ـ وانكمش حرجا من نكتته المحزنة.

تنهدت زوجة الحارس وقالت:

ـ هو بالذات. نحره فيكتور بيتروفتش بالسكين.

قعد زيلينين على اريكة بعد العشاء، واشعل سيكارة وراقب الدجاج المستشار يتحرك في خنه الطويل. وكان

مرتاحا بشكل هائل. كان يستمتع ببساطة هذه الليلة وصفائها.

عمل جيد، وطعام جيد، وتعب طيب، وسيكارة طيبة.

ودخلت داشا:

– حقنته بالكافور يا الكسندر دميتريفتش. والآن سأنام.

– داشا، – ناداها زيلينين.

– ماذا؟

كانت واقفة امامه متألقة متوردة ناعمة وضفيرتها ملقاة على نهدها. كانت الضفيرة متينة وذكرت زيلينين بارغفة الخبز المضفورة. وبدا وجه الفتاة طفوليـا تماما في الضوء الرجراج لمصباح الكيروسين.

– هل لك ان تجلسي معي قليلا؟

تقدمت وجلست على الاريكة بجانبه. مـا ابسط الحياة واروعها: طيران في هليكوبتر واجراء عمليات للناس، وشرب شراب، والتمتع بالنظر الى الفتيات الحسناوات! وتقبيل الفتيات الحسناوات. ونهضت داشا محتدة ونظرت اليه خزرا، واستدارت وخرجت.

التصق زيلينين بالشباك. كان الثلج يتألق، والسماء تتألق، والغابة ظلام دامس. انه الليل. كانت الغابة

تحيط بهم. وفي الغابة تجوب الذئاب والدببة، والصيادون. الناس يصارعون الحيوانات المتوحشة. ثم اما ان يفترس الانسان الحيوان او يفترس الحيوان الانسان ويبقى واحد منهم يئن في الغابة. ولكن طائرات الهليكوبتر تطير في السماء. ويطير للنجدة اطباء وممرضات وأصدقاء طيبون يفهم بعضهم بعضا.

انها ليلة ملأى بالحياة. ومثل هذه الليالي لا تنسى. انها تبقى في الذاكرة، وتضيء الماضي كالمصابيح. والنوم يثقل على الجفنين.

الفصل الثامن

سر، ثم سر

بانتهاء الملاحة فتحت طرق جديدة – دروب طبعتها الاقدام على الجليد. والسير في درب كهذا في يوم مشمس انما هو ممتع، ومشوب بشيء من التوجس. ان عينيك لم تقعا على مثل هذا التألق قط. حولك ثلج فضي باهر، وشمس ذهبية باهرة، وسماء زرقاء باهرة. ثم تطأ، فجأة، قطعة عملت فيها الريح، وتنزلق

على جليد يشبه الزجاج المغبش تحته اعماق مخيفة، واشباح غامضة. تنزلق وتكبت رعبك، وتفرح بأنك على السطح، في عالم الشمس، وبانك تريد ان ترفع صوتك بالغناء، وبأن كل يوم شتائي يدني الربيع. وبمقابل ذلك يخيل اليك في الليل، وفي الطقس الـرديء، في تيار الثلج الذاهب بالبصر ان كل شياطين قاع البحر، وكل الارواح الشريرة قد آنطلقت من تحت ساقط النبت، والغرين الجـامد وهي تعـول عليكَ وتترصد خطوتكَ الخاطئة. وتفطن الى ان الانوار قد ضؤلت كثيرا، وان الارصفة قد اقفرت، وتنظر الى رافعات الميناء الساكنة، وتفهم الوحشة القديمة لسام ابرص في العصر الجليدي. انكَ وحيد في مركز لولب ثلجي ضار. فلماذا تسير متأرجحا منزلقا؟ ولماذا تحلم بشيء، ولماذا تطرد الحنين؟ أحقا يوجد في العـالم غيرك وغير العاصفة؟ أحقا يوجد اصدقاء، وضوء دافئ من النوافذ، وتلفون يتحدث بصوت الحبيبة، والحبيبة نفسها؟ أحقا توجد في العالم مطاعم وبواخر ومكتبـــات، وصالات للعمليـــات، وكتب، وافلام، وكرات طائرة، ونبيذ، وتلفزيونات، واغان، وربيع، وسعادة؟ لا، لا يوجد الا البرد والشوق والعواء.

فلماذا تسير؟ الحيوانات تنطوي، وتعول، وتدافع عن نفسها بضعف، وتستعد للموت. وانت تسير لانك انسان، لان العاصفة لا تنتزع منك الايمان بان كل ما ذكر آنفا موجود، ولانك تعرف بان الشمس ستشرق من جديد. غير مهم ان تسير على الجليد نصف ساعة او ثلاثين يوما، ان تسير الى موعد مع الحبيبة او الى القطب الجنوبي. المهم انك تسير. في يوم مشمس او طقس رديء، في الليل او في النهار. في اليأس والرجاء. وانت ماض في طريقك.

كان العمل في القسم يسير كالعادة: كانت الآلات الكاتبة تضرب والتلفونات ترن، والموظفون يصيحون ويضحكون. وكان فلادكا واقفا في الممشى يدخن. واقترب ماكسيموف منه.

— ما هي اخبارك؟

— لا شيء! كنت في الادارة. انهم لا يسمحون بالعمل في المستوصف وقد طلبوا الي ان اتابع باتقان التوجيهات الصحية قائلين: «ستقدر ذلك عند ما تبدأ بالابحار على البواخر، يا دكتور كاربوف».

بعد توقف الملاحة نقلوا ماكسيموف من محطة

«الكرنتينه» الى قسم الخدمات العامة، وكاربوف الى القسم الصناعي. وانتهت ليالي السهر، وسلالم الحبال، وتقاليد البحر. واصبحت الحياة مضجرة. وسرت شائعات بان الطبيبين الشابين يجب أن يتنقلا في كل الاقسام قبل الصعود الى الباخرة. وليس ذلك مضحكا. انه بالاحرى شيء موحش.

فتح احد الابواب. وخرج الدكتور دامبفر الى الممشى، وهو عجوز طويل القامة جاف في بزة بحرية. نادى:

– الكسي بيتروفتش، هل تريد ان تعمل قليلا؟

القى ماكسيموف عقب سيكارته، ودخل الغرفة في اثره. وكان دامبفر منكبا على الحساب السنوي. كانت المناضد التي قد ضمت جنبا الى جنب مسرحا تتناثر عليه الاضبارات وكتب المراجعة، وحزم الجداول الفارغة.

قال ماكسيموف:

– أنا لا اعرف شيئا في هذا الموضوع.

فضحك العجوز في اقتضاب:

– لا يهم. ستتعلم. فانت صاحب فكر.

– وما هو المطلوب؟

– في البداية احص الصراصير.

فتساءل ماكسيموف ذاهلا:

– يعني؟

– انت نفسك كنت تكتب في التقارير عما اذا كان قد عثر على حشرات ام لا اثناء تفتيشك البواخر. خذ هذه الاضبارة من التقارير، وسجل البواخر. افحصها واشر على البواخر التي وجدت فيها صراصير بصليب. والتي لا توجد...

– نقطة؟

– بالضبط. قلت لك انك صاحب فكر.

– أهذه كل الحكمة؟

– نعم.

وفكر ماكسيموف مع نفسه: «صلبان ونقاط. شيء رائع! أيعني انني درست الفسلجة وكيمياء الاحياء، والمادية الديالكتيكية، وتعمقت في افكار بافلوف عن الجهاز العصبي لاحصي الصراصير؟ يا للروعة! هكذا... «قارب الشحن البخاري «زيا» – صليب. والباخرة القاطرة «كامنشيك» – نقطة. وناقلة النفط «فيتير» – نقطة. والباخرة «ستافروبول» – صليب».

– كيف يجري العمل؟ – سأل دامبفر دون ان يرفع رأسه عن الاوراق.

– بانسياب تام! – هتف ماكسيموف. ونفسه تغلي غليانها، رغم انه كان جالسا على المقعد في هدوء مقلبا التقارير. وقال في سره: «ايها العجوز اللعين، يا جرذ المكاتب، أتعرف انني استطيع قراءة صور اشعة اكس والتحاليل، وانني قمت بثلاث عمليات زوائد دودية بنفسي، بل وكنت معاون جراح ذات مرة في عملية قطع معدة؟ وهل تدري ان البروفيسور غوشين تلمّس فيّ ميولا للتفكير الكلينيكي؟ وفي النهاية هل تعلم انني اتأثر حين اسمع موسيقى او اقرأ شعرا، وانني نفسي اكتب الشعر قليلا؟ وحتى اذا كنت تعرف هذا كله فانت لم تخجل من ان تجعلني اعد الصراصير. ماذا تعرف انت عن الحياة؟ وماذا رأيت من الحياة غير اوراقك ووضم الجزار؟»

سأل دامبفر فجأة:

– يبدو انك غير معجب جدا بهذا العمل؟

– انا، بهذه المناسبة، طبيب معالج – أجاب الكسي بذلك وكبت هياجه باقصى الجهد. وفجأة

تذكر ان شعوراً كهذا الذي يخامره الآن تملكه حين اقترح عليه المدرب ان يلعب في الفريق الثاني.

– نعم، نعم – قال دامبفر بشرود ذهن، وغرق في اوراقه. وبعد قليل من الوقت سأل مرة أخرى:

– هل تعرف مهمات الخدمة في «الكرنتينه»؟

هتف ماكسيموف:

– النظافة! ومكافحة القوارض والحشرات، ومساعدي الربابنة. صحيح؟

– ان مهمة الخدمة في «الكرنتينه» هي حراسة الحدود الصحية للاتحاد السوفييتي – قال دامبفر بوضوح وخطابة. – نحن حراس حدود، أتفهم؟ هنا لا توجد توافه. فان جرذ طاعون واحدا يستطيع إن يجلب كارثة اكبر من تلك التي يجلبها مائة جاسوس تسللوا عبر الحدود.

– واية كمية من الجواسيس تساوي الصراصير؟ – سأل ماكسيموف بخبث.

ضحك دامبفر ضحكة آلية مقتضبة كمن حدث بنكتة قديمة جدا.

– انا افهم كل شيء، – سارع ماكسيموف يقول –

بالطبع ان الخدمة في «الكرنتينه» مهمة. بل وهي تعجبني بعض الشيء، ولكن...

– انت يعجبك ان تنطلق في الزورق البخاري في الميناء وتقفز على سلالم الحبال مخاطرا بحياتك.

– من اين تعرف هذا؟

– ولا يروق لك العمل الاعتيادي. لماذا اذن وافقت على الاشتغال في البواخر؟

– آمل ان العمل على البواخر لا يحتاج الى سجل صلبان ونقاط.

– هكذا تظن؟ اذن اقول لك انك ملزم على ان تطارد كل صرصار بنفسك. اخشى ان تكون لك فكرة موهومة عن العمل في البواخر. انا اعرف ان بعض الناس يعتبر هذا العمل محض نزهة. ومثل هؤلاء ينتهون الى نهاية سيئة. وفي البحر؟ يا الكسي بيتروفتش ان مسؤولية كاملة تقع على عاتقنا نحن الاطباء ازاء حياة وصحة خمسين او ستين شخصا يقومون بعمل شاق ومقطوعين عن الوطن، وعن عوائلهم. هل تفهم هذه الحقيقة البسيطة؟ من اجل هذا بالذات، ومن اجل هذا وحده وضعنا المجتمع السوفييتي في هذا المكان. في البواخر الاجنبية لا يوجد اطباء مرافقون فمن يعنى

بصحة البحارة آو الاجراءات الوقائية. لو مرض بحار لاختاروا عوضا عنه بحارا من عشرة بحارين من اي ميناء. لا تظن ان هذا مجرد نقاش نظري. لقد قضيت ثمانية عشر عاما في البحر. وانا اعرف الكرة الارضية معرفة ليست رديئة.

واشعل سيكارة وحدق في النافذة وكأنما يحاول ان يتبين من خلالها شيئا. كان ماكسيموف يسمع منه لأول مرة هذا العدد من الكلمات. والآن بدا دامبفر مترددا في جدوى مواصلته للحديث. وفي آخر الامر حدق في ماكسيموف وقال:

— ان الشيء المهم جدا بالنسبة للانسان هو ان يفهم شيئا بسيطا هو اهميته ومهمته في المجتمع. حينذاك سيكون له موقف حقيقي من العمل. حينذاك سيعيش حياة ممتلئة. فلأشرح لك فكرتي. ان البشرية كلها مقسمة الى قسمين، قسم يوم الحياة عنده يوم كامل وبلا نقصان. والقسم الآخر الذي يطرح من يومه ست او ثماني ساعات للعمل. ومثل هؤلاء الناس لا يحسون بانفسهم الا حين يعلقون فيشة او يوقعون في سجل الخروج. اضف الى ذلك ساعات النوم. فكم يبقى

من اليوم؟ لكننا نعيش العمر مرة واحدة، حياة قصيرة... ان الشبان في الغالب لا يفهمون ذلك.

قال ماكسيموف:

- الشبان يفهمون انها حياة قصيرة.

أمن الممكن ان دامبفر استدعاه الى هنا خصيصا ليجري احاديث منقذة لروحه؟ ان الامر لشبيه بذلك. حسنا، لنتحدث قليلا!

- من رأيي ان المسألة لا تتعلق بطول العمر بل بتركيزه. ان عداء المائة متر يصرف من الطاقة ما لا يقل عن عداء المسافات الطويلة. فاذا كان الانسان يقضي حياته في عمل مضجر...

قاطعه دامبفر قائلا:

- ليس عندنا عمل مضجر. هناك ضجرون وقليلو الذكاء او لم يفهموا الامور بعد. فلئن تفهم كل شيء، وتدرك مهمتك، وتتابع السلسلة الى نهايتها فان اي عمل يصبح ملائما لك. اننا جميعا مترابطون ونقوم في هذا العالم بعمل واحد مشترك.

- اعطني سيكارة - قال ماكسيموف وقد زايله الشعور بالتقيد، وكأنه نسي عمر دامبفر. وبعد ان اشعل سيكارته ضحك ضحكة قصيرة كما كان يفعل

عند النقاش مع ساشا زيلينين او مع غيره. — أن كل شيء يبدو معك بسيطا جدا. افهم آنك حلقة في سلسلة، وستجد مسرة في العمل. الا ان غالبية الناس لم تجد نفسها. ويا لها من صعوبة ويا لها من سعادة ان يوفق الانسان في السير رأسا في طريق حياته الوحيد! وامامك يجلس كاتب حسابات ملول يحدث خربشة كالفأر، ويعد الايام الباقية على ميعاد الراتب، ويحلم بشراء بدلة جديدة، ولكن من يدري: فلو علموه قراءة النوتات الموسيقية في صغره لربما اصبح الآن ملحنا رائعا. وعلى هذا النحو يحدث ان الناس يعملون للطعام وحده. وانقاذهم هو في ما يسمى بالافكار الخارجية والاحاسيس والمشاعر في اوقات الفراغ. فهل من المعقول ان تكون الحياة عملا فقط؟ ليس مثل هذه الاقوال الا نفاقا. ففي الحياة اشياء اخرى عظيمة: الموسيقى والشعر والنبيذ والرياضة واللباس والسيارات...

قال دامبفر بهدوء:

— كل ذلك من نتاج العمل.

— ... والجبال، والبحر، والغروب، والنساء، — تابع ماكسيموف سلسلة افكاره.

قالَ العجوز:

– كل ذلك يعز مناله على المتبطلين. هذا هو اعتقادي الراسخ. وهم يتخيلون فقط انهم يعيشون في خضم الحياة، وفي آخر الامر لا يسلم واحد منهم من برد الخلاء المريع.

هتف ماكسيموف:

– ومن يسلم منه على العموم؟ ان الانسان يدنو من نهاية حياته ويفكر: انتهى كل شيء. فلم كان هذا كله؟ وماذا فعلت في حياتي؟ ونحن نتفلسف، ونناضل من اجل الافكار المتقدمة، ونجادل حول فائدة العمل الاجتماعي، ونقيم النظريات، وفي آخر المطاف نتحلل الى العناصر الكيمياوية كما تفعل النباتات والحيوانات التي لا تقيم اية نظرية. انها كوميديا تراجيدية لا غير. وعامة الناس تقول: سنكون هناك جميعا. جميعا! الطليعيون في الانتاج والمتبطلون، والشرفاء من الناس والاوغاد. واين يقع «هناك»؟ لا يوجد هذا ال«هناك». ظلام. وحتى ظلام لا يوجد. فالظلام حياة ايضا. فماذا يعنيني من أمر هذا العالم اذا كنت احس في كل دقيقة بانني سأختفي في وقت ما **الى الابد؟**

– اصمت! – صاح دامبفر، وضرب المنضدة بجمع يده – طفل، شكاء!

ونهض واثبا وتقدم من النافذة، وادار ظهره الى ماكسيموف. وكان واضحا انه يسحق شيئا في يديه، واستدار، وأدهش ماكسيموف بالتعبير المرتسم على عينيه اللتين اتسعتا فجأة.

– اعذرني. انا عجوز. وعندي وجع قلب. وأنا كما قلت انت انظر الى الخلف. ماذا فعلت في حياتي؟ كنت مع الوحدات التي اقتحمت كرونشتادت، وعملت في البحر وعلى الساحل. وهذه كل القصة. ولست **خائفا!** هل تفهم؟ لقد عملت من اجل اطفالي، ومن اجلكم، ومن اجل اولادكم في المستقبل. وفي هذا يمكن خلاصنا. هل تتصور ماذا كان يحدث لو ان الانسانية خضعت للذعر الذي تخضع انت له؟ انها همجية، وعربدة الغرائز الحيوانيـة وسكر وانحطاط. انني اعرف، يا الكسي بيتروفيتش، ان مثل هذه اللحظات تمر بكل انسان، لا سيما في الصبا، ولكن الانسان ما كان انسانا لو...

وفتح الباب، وظهر وجه كاربوف المتهلل. هتف:

– ها، انت هنا؟ اذهب بسرعة لتتسلم راتبك.

هل نسيت اننا سنتبارى مع عمال تصليح البواخر في الساعة الرابعة؟

– وانت هل أخذت حذائي الرياضي؟ – سأل ماكسيموف وقفز مسرعا، واختفى وراء الباب.

بعد عشر دقائق تقريبا رأى دامبفر كلا الصديقين من النافذة. كانا يركضان كفرسي سباق يعضان على شكيمتيهما.

وفكر دامبفر: «هكذا تحدثنا. وهذا ما يحدث دائما معهم، مع الشبان. ان يركضوا الى لعبة الكرة الطائرة وينسوا كل شيء».

... وكان دامبفر على خطأ. ان الكسي لم ينس شيئا. كان حديثه مع الطبيب العجوز مفاجأة كبيرة له، لا سيما وانه قد مسّ قضايا كانت تشغل باله في الايام الاخيرة كثيرا. لم يتغير شيء في حياته ظاهريا. كان كالسابق يطوف مع فلادكا في الميناء المجمّد القليل الناس، ويدخنان في ممرات القسم، ويسخران، ويلعبان الكرة الطائرة كما كان من قبل. ويذهبان الى المكتبة العامة، والى حفلات الرقص، والسينما، وينامان قليلا على سابق عادتهما، ويأكلان قليلا، ويتناقشان في فن المعمار، وموسيقى الجاز، والالعاب الاولمبية، وفي

العمليات الجراحية على القلب، وفي البواخر، والصواريخ، والنساء، وفي ايهما اقوى عضلات. ولكن حين يخلو الكسي الى نفسه، ينتابه شيء مرعب، يشرع بالزئير القاسي داخل نفسه. انه بالذات ما تحدث به الى دامبفر مصادفة. ومضحك ان يستولي «حزن العالم» على انسان شاب في يومنا هذا، ولكن ما العمل اذا كان هناك مثل هذا الانسان الشاب؟ هل نسخر منه؟ من المشكوك فيه ان تساعده السخرية منه في شيء. وحاول الكسي ان يبحث عن الاسباب التي اثارت هذه الحالة في نفسه. ألعلها ترجع الى منظر الميناء الذي كان يمور قبل حين فقط بالحياة الجاهدة الجشاء، والذي اصبح الآن محصورا بين انياب الحصار الجليدي؟ او لعلها تعود الى التباعد الذي نشأ بينه، وبين فيرا في الايام الاخيرة؟ لقد اغضبه تصرف فيرآ. واتهمها بالجبن، والخمول الضيق الافق، والخوف من فقدان اسباب الراحة والاستقرار. وقال لها في وجهها: «ربما يناسبك هذا الوضع؟ على الموضة الراقية». وقاست فيرا، وبكت وفقدت بعض تألقها. وزايلت الطمأنينة حياتها. وانقضى اسبوعان دون ان يلتقيا.

أو لعل احد اسباب يرجع الى رسائل زيلينين

المملوءة بالحماس الابله، وباوصاف «اعمال ايام العمل» وذات الهدف المحدد تماما؟ وكأنه يقول: هكذا نحن، يا صاح، نعيش بهمة. وانت؟ هل تحلم، كما كنت من قبل، في البحر، وتتردد على المعارض؟ أم لعل اسباب حالته النفسية ترجع الى «اعماله اليومية» هو، والتدخين المستمر الذي خشب حنجرته وآلمها؟ الشيطان وحده يعرف! وكانت فترة كئيبة. كان الكسي يتقلب على سريره تحت السماء الشتائية السوداء القليلة النجوم.

وهدأت نفسه قليلا بعد حديثه مع دامبفر رغم انهما لم يقولا كل ما ارادا قوله. وأخذ ينتظر الربيع، ويحلم بالايام الدافئة حين ترفرف الاعلام عند ارصفة الميناء، وحين يصعد على ظهر الباخرة، وفي يوم الوداع تأتي فيرا وسيتوضح كل شيء، ويكون على علم. فان الطريق عبر الجليد والشجن، لا بد، منته، يوما ما.

حشرة في مخزن بضائع غذائية

ذهب ماكسيموف وكاربوف الى كبيرة اطباء القسم ليتحدثوا قليلا «عن الحياة». وكبيرة الاطباء امرأة

طويلة القامة وقوية الارادة الى حد لا يصدق، وعملية بشكل مذهل، كانت تجد الوقت دائما لتستمع باهتمام الى موظفيها. ولسبب غير معروف كانت تسمي الطبيبين الشابين «الولدين المسكينين».

— ماذا تريدآن ان افعل لكما ايها الولدان المسكينان؟

وفي الحال طفق كاربوف يتشكى ويتوسل بان يعين، ولو في اردأ قسم جراحي.. وسأل ماكسيموف في مهارة مهتبلا الفرصة السانحة:

— الا تستطيعين ان تخمني، يا ايرينا بافلوفنا، الوقت التقريبي لصعودنا على بواخر؟

— ايها الولدان لا تفكرا بذلك قبل الربيع. وبمقابل ذلك ستصعدان عند افتتاح الملاحة على احسن البواخر. وسأهتم بذلك بنفسي.

— سأنسى اختصاصي! — صاح فلادكا في كآبة.

قال ماكسيموف:

— كفى يا فلادكا. الرئاسة نفسها تعرف متى نبدأ بنسيان الاختصاص فتهتم بامرنا في اللحظة المناسبة.

ابتسمت كبيرة الاطباء وقالت:

— وانت كما يبدو الولد الخبيث.

وانتهت المقابلة بنقلهما مرة آخرى. نقل ماكسيموف الى قسم الطعام، وكاربوف الى قسم الخدمات العامة. وفي اليوم التالي داوم ماكسيموف في عمله الجديد. وفي الحال وكّلت اليه ليديا ابولونوفنا الطبيبة الكهلة ورئيسة القسم ان يقرأ الاوراق.

– خذ هذه الاضبارة، وتعرف على خبرة عمل الدكتور ستولبوف. انه اتقن اختصاصنا بشكل رائع.

شهادات، وتقارير عن انتهاك الاصول الصحية. ومراسلات، وتحاليل الطعام في المختبر، وحساب السعرات الحرارية... أوه.. ه.. ه...

سأل كاربوف:

– هل اصبحت ملاحظ اوراق ايضا؟

– فلادكا! انظر الى نشاط زميلنا العبقري. انني اتعلم خبرة الطليعي.

كانت الاوراق مكتوبة بخط ستولبوف القوطي. وهي تتضمن تقريراً وضع بعد تفتيش أحد مخازن البضاعة التابعة لادارة النقل البحري التجاري. ويشير الى ان قرادة، وهي حشرة ضارة من حشرات مخازن

البضاعة الغذائية، قد اكتشفت في طحين من النوع الجيد اعد لباخرة تتهيأ لرحلة طويلة. ويطلب التقرير بأن يتلف الطحين في الحال، ويبلغ بان الطلب قد نفذ. وكانما يقول: هذه شطارتي!

– يا ليديا ابولونوفنا، اي ضرر تسبب هذه الحشرة؟

– اية حشرة؟

– الحشرة المذكورة في تقرير بيوتر ستولبوف.

قرأت ليديا ابولونوفنا التقرير، وهزّت كتفيها في حيرة.

– غريب. أنا لا اعرف شيئا عن هذا. ام آنني نسيت؟ يا الكسي بيتروفيتش، ان ستولبوف غير موجود آلآن. فاذهب الى هذا المخزن، وافصح بنفسك الوثائق. ان هذه القرادة تسبب اضرارا خطيرة في المعدة والامعاء. يمكنك ان تقرأ عن هذا في كتاب البروفيسور...

خرج ماكسيموف الى الشارع، واتجه نحو بوابة الميناء. كان اليوم دافئا مضيئا. وكانت دفقات هواء رطبة تهب من جانب الخليج، والثلج يبدو وكأنه يوشك ان يذوب. وكانت الساحة الصغيرة امام البوابة

الرئيسية تزخر بالناس. وامام قسم الملاكات يسرح حشد زاه هو «احتياط» من الرجال العاملين على البواخر. اقترب ماكسيموف من رجال «الاحتياط» وانحنى لمن يعرفهم بانحناء من رأسه، وتدافع بينهم بضع دقائق. آن هؤلاء الناس يعرفون كل شيء في العالم لا سيما قضايا قسم الملاكات. واليوم استمعوا جميعا باهتمام الى طباخ الاحتياط ايده ساراخان الذي اخبرهم بآخر البرقيات المرسلة في الراديو. وتذكروا زملاءهم الخارجين الآن الى البحر، وتحدثوا عن البواخر.

كانت اللوريات قد حولت الثلج وراء البوابة الى خاثر الوحل. وأشار ماكسيموف لاحد اللوريات. وبعد خمس عشرة دقيقة على لوري «ياز» هزاز وصل الى نهاية السد الغربي. وهنا نزل على الجليد، واجتاز المرفأ، وصعد على الحاجز الآجري، وسار فيه حتى نهايته، وخرج من حدود الميناء، ثم ركب الترام مسافة معتبرة. فقد كان المخزن يقع في نهاية الدنيا، في خواء قرب مستنقع.

كانت الرطوبة تفوح في مبنى مقوّس كبير. في الممشى بين الصناديق والبالات سار رجل صغير

يرتدي مريولا ازرق. القى نظرة سريعة على ماكسيموف ورفع رأسه في الحال وحرّك شفتيه في استغراق فعل من يحصي شيئا. فسأل ماكسيموف للتأكد:

— هل انت مأمور المخزن؟

— اي، موقتا — اجاب الرجل دون ان يلتفت — ماذا تريد بوجه الخصوص؟

— انا من قسم «الكرانتينه» والصحة.

استدار الرجل بسرعة، وتقدم من ماكسيموف، وعلى شفتيه آبتسامة لامعة.

— مسرور بلقائك. اسمي يارتشوك.

قاد ماكسيموف الى مكتبه، وهو يدور حوله بخفة، واجلسه على مقعد ذي مساند، وجلس قبالته وقال سريعا دون أن يصرف عنه عينيه المحبتين:

— ... أكثر معاملاتي مع ليديا ابولونوفنا والدكتور ستولبوف. انه طبيب نابغ، نابغ جدا. فهل يعني انك ستتعامل معنا الآن نحن الآثمين، يا دكتور ماكسيموف؟ لطيف جدا. كلما كثر المثقفون، ها، ها، كان احسن. العلم الآن... — وصمت برهة، وترطبت عيناه بطراوة الاحترام الشديد للعلم ثم تابع قوله: —

العلم في عصرنا... آه، يا دكتور، اي عصر هذا الذي نعيش فيه! — واحتبس كلامه من فرط التأثر مرة اخرى.

صمت ماكسيموف وحاول أن يظهر امتعاضه بقدر ما يستطيع. شعر بأن يارتشوك خائف من شيء ما، وكأن نظراته السريعة المقدرة كانت تخترق نقاب كلامه السريع الابله. وفجأة قطع جملته، وصمت. وساد الصمت في المكتب دقيقة. ونظر الرجلان احدهما الى الآخر. ثم تحرك يارتشوك، وفتح جارور مكتبه، ووضع امام ماكسيموف علبة «ترويكا» وهي سيكارة نفيسة مذهبة الاعقاب. وعبس ماكسيموف واخرج علبة سيكارته المتواضعة من نوع «افرورا».

سأل يارتشوك في لهجة لينة:

— عمّ تريد آن تستفسر الآن؟

اجاب ماكسيموف دون ان يصرف نظره عنه:

— عن الطحين الذي اكتشفت فيه حشرة ضارة.

وفي الحال تألق وجه يارتشوك المدبب مثل بيضة عيد الفصح.

— شطبناه من الحساب تنفيذا للامر.

ـ أرني الوثائق.

شعر ماكسيموف بالعجز وهو يقرأ تقرير الشطب. ولكنه أحس، لسبب من الاسباب، بان المسالة تنقصها النزاهة، ولكن كيف يمكن التوصل الى الحقيقة خلال خضم من التعابير التجارية، شبكة يارتشوك العنكبوتية المتشابكة الكثيفة؟ ان كل شيء يبدو قانونيا، التقرير مطبوع بالآلة الكاتبة، ومذيل بثلاثة تواقيع. وكان ماكسيموف يبغض التواقيع غير المفهومة. فمن هؤلاء الذين يحولون اسماءهم الى خربشة ابله متعب؟

قال يارتشوك:

ـ وهناك يوجد توقيع زميلكم.

وأحس ماكسيموف باستهزاء في صوته. ونظر الى التقرير مرة آخرى. ما هذا؟ انه يعرف توقيع ستولبوف: قوطي! وهنا شلة خيط مفكوكة.

وفجأة قال مدفوعا ببديهة:

ـ ارني الفاتورات في الشهر السابق.

فزع يارتشوك وقال:

ـ ولمَ تريدها يا دكتور؟ ما حاجتك الى الفاتورات؟

شعر ماكسيموف بان قدمه وقعت على ارض صلبة في الظلام.

— لا توجد عندي هنا اية فاتورات. فهي عند المحاسب، والمحاسب ذهب الى مصلحة التجارة.

— لا يمكن — وكان ماكسيموف يبتسم الآن (قرر بان يستجيب لبديهته فقط) — دع عنك هذه الحكاية! انها عندك في هذا المكتب.

سأل يارتشوك بصوت هادئ معاد بصورة غير متوقعة:

— كيف؟ هل علمتك ليديا ابولونوفنا؟

— نعم، هي.

— حسنا، نبّش، يـا صديقي اليقظ. انني خجل من عملك. خريج معهد سوفييتي للتعليم العالي. وثقتك بالعاملين النزهاء من الناس...

فاطعه ماكسيموف في غلظة: — اصمت!

وأخذ ينظر في فاتورات السكر والمعلبات، والسمك الرنجة الاطلسي والهادئ، والفواكه المجففة، ولحم الضأن المجمد، والطحين. ومرة أخرى لم يفهم شيئا. خاطب نفسه: «حماقة ايها الاخ ماكسيموف. انت تضع نفسك في موقف مضحك». وفجأة عنّت

له فكرة بسيطة: قارن تاريخ التقرير وتواريخ الفاتورات. وهنا، بين فاتورات الطحين المرسل الى بواخر مختلفة وقعت يده على ورقة ذكر فيها ان كمية طحين من النوع الجيد قد ارسلت بتاريخ ما الى باخرة «نوفاتور»؟

— يعني الى «نوفاتور»؟

فاعترض يارتشوك بصوت يشبه زعيق حيوان صغير:

— ليس هذا بالطحين المقصود! تلك الكمية اتلفناها وحصلنا بالمقابل على كمية اخرى. انت ما تزال غرا يا رفيق، لا تفقه شيئا! انظر — وأخذ يلقي اوراقا واصطلاحات تجارية.

ان ماكسيموف لم يفهم فعلا الا النزر القليل. ولكنه حدس في غموض بانه وقع على غرضه بالضبط. تمتم:

— لا بأس. ستتوضح الامور. وسنرسل برقية الى «نوفاتور» وسيتأكد الطبيب هناك بنفسه.

لحق به يارتشوك عند باب المخزن ذاته. قال له وهو يمسك ذراعه:

— اسمعني يا دكتور ماكسيموف. انصحك، كرفيق اقدم أن تترك هذه المسألة. لا تحاول ان تكون شارلوك هولمز. فانك ستؤذي نفسك بنفسك.

— ولم اهتمامك بي على هذا النحو؟ — قال ماكسيموف وأطلق ذراعه.

— أي! أية آراء عجيبة لك. لا تشابه آراءنا. فعلى السوفييتيين ان يهتم بعضهم ببعض، على الاخص نحن، الرفاق القدامى، بالشباب. ولكن اذا كنت لا تثق بصفاء نيتي فسأحدثك بشيء آخر. — وهنا رفع صوته: — لا اريد ان تلطخ اسمي النزيه، وتشوه سمعتي التي اثبتها عمل طويل.

فتح ماكسيموف الباب صامتا. ولكن يارتشوك تشبث بكوعه مرة اخرى.

— رفيقك بيوتر ستولبوف اظهر تفاهما. وانت ايضا ستفهمني. انا واثق من ذلك.

ومسّ جيب ماكسيموف بحركة لا تكاد تلاحظ. فدس ماكسيموف يده في جيبه، وتلمست اصابعه حزمة صلبة ناعمة. ودون ان ينظر الى حزمة الفلوس رماها على الارضية الاسمنتية وهدر:

— سألطمك الآن على بوزك!

قفز يارتشوك جانبا وكأنما دفعه نابض، واختطف الفلوس، وقال بصوت غاضب:

— نحن وحدنا هنا. وليس لك براهين ايها الجرو،

ولن تكون! مفهوم؟ اذا وقفت ضدي تكسر قرنيك، ولن ترى البحر الا في الحلم. فافهم ذلك!

... عاد ماكسيموف الى القسم، وجلس وراء المنضدة وراح يفكر. آه، يا لها من قضية عويصة! ولكن الرعب الذي تملك يارتشوك، ومحاولته لارشائه يثبتان اثباتا تاما ان ماكسيموف عثر على اثر صحيح على اية حال. بالطبع ان القضية كلها موضوعة بشكل تكنيكي اعقد بكثير مما يتصور ماكسيموف الآن. ولكن لتفطن الى الامر تلك المنظمة التي تسمى... قسم النضال ضد سرقة الملك الاشتراكي. يجب انتظار ليديا ابولونوفنا، واخبارها بكل شيء. وستولبوف؟ أنا متأكد ان ذلك التوقيع ليس توقيعه. ولكنه اظهر تفاهما. أمن المعقول أن ذلك الحيوان قبل رشوة؟ ان يارتشوك رجل خطر. اي تهديد غريب فاه به؟ وأية علاقة محتملة بين يارتشوك وعملي في البحر؟ لا، يجب أن اتشاور من احد الاصدقاء قبل ان اقذف بالقنبلة او لعل من الخير ان اترك القضية بالفعل؟ ابتعد عن الخطيئة.

كانت غرف القسم فارغة وضربات الآلة الكاتبة وحدها صادرة من غرفة المحاسبة. فتح ماكسيموف

السجل الذي تسجل فيه اسماء الموظفين الخارجين. كلهم ذهبوا الى المشاريع. ليديا ابولونوفنا في ادارة اسطول بحر البلطيق وكاربوف ذهب الى باخرة الحراسة رقم ٦٠٧. واين كابلكين؟ هذا شخص يمكن التحدث اليه عن هذه الحكاية: انه، بالتأكيد، سيقدم مشورة ثمينة. وكان قد كتب امام اسم «الدكتور كابلكين» بخط مخربش: «الساعة ١٠ والدقيقة ٠٦ – ذهب الى شارع نيفسكي لجلب اللصقات». ابتسم ماكسيموف دون ارادته بعد ان تخيل الرجل الاجتماعي الذي لا يتعب بين الزحام في نيفسكي. وفي آخر الأمر قرر ان لا يقوم بشيء قبل ان يتشاور مع كابلكين.

وظهر «البطل المخلوع» بعد نصف ساعة متوردا عابسا في مظهر رجل عمل. وحين رأى ماكسيموف وحده في القسم، رمى لفّة اللصقات في ركن، وأخذ يتحدث في انفعال عن نيفسكي الشارع الذي «تتمشى فيها الحوريات». دفعه ماكسيموف الى ركن وجلس على حافة المنضدة وقصّ عليه حكاية تقرير ستولبوف والطحين ويارتشوك بحذافيرها.

– انت، يا فينيا، فأر ميناء قديم وحكيم وانت سلحفاة تورتيلا فانصحني ماذا افعل.

قال كابلكين بهدوء:

– نعم، انا اعرف هذه الخنفسة. اتركه والا فقد تجلب الاذى الى نفسك.

فقال ماكسيموف:

– خذ في حسبانك أنني لست من الخائفين.

ضحك كابلكين ضحكة مقتضبة وقال:

– كلنا نسور. ولكنني لا انصحك. فانك ستفقد طريقك الى البحر بالتأكيد. انه يعرف الجميع وكل شيء هنا. انه ديماغوغي وكلب ولاعق بصاق. ولكنه يتمتع بالثقة.

– في الوقت الحاضر.

– ممكن. ولكنه يستطيع ان يلطخك بالوحل حتى لا تستطيع ان تتعرف على نفسك. فليس عندك براهين. هذه حقيقة. وهو الآن سيمحو كل اثر بحيث لا يستطيع اي كلب متدرب ان يتشمم.

– ولكنه لا يستطيع ان يصل الى «نوفاتور». فهي الآن في المحيط الهندي.

– لماذا انت متأكد من ان الطحين قد اعطي الى «نوفاتور»؟ ربما الى باخرة اخرى، أو ربما وزع في المدينة. لماذا تفسد حياتك يا ليوشا، وتبحث عن

مغامرة على رقبتك؟ لا تسبب هذه القرادة ضررا كبيرا للجماعة. سيكثرون من زيارة المراحيض فقط.

فسأل ماكسيموف متجهما:

— وفي المرة القادمة سيقدم للباخرة سما زعافا؟

— افعل كما تشاء. ولكنني لو كنت في مكانك لما تدخلت.

— وهل انت قادر على شيء ما على العموم؟ — قال ماكسيموف هازا يده ولكن صوته كان لا ينم على حزم.

ماذا يمكن ان يحدث لاولئك الفتيان على باخرة «نوفاتور» ؟ انهم عند الضرورة، يهضمون حتى الاثاث. أما هو فيستطيع أن يدمر حياته، ويحرم نفسه مما حلم به في عناد وتشوق. ان يارتشوك مخلوق ذو حيلة، وانت بلا براهين. فهل يعني هذا التراجع امام امثال يارتشوك؟ والتعايش معهم جنبا الى جنب، وحملهم الى الشيوعية؟ انه ديماغوغي كما قال كابيلكين حقيقة. كيف صب الكلمات من فمه: «نحن السوفييتيين» و«اي عصر هذا الذي نعيش فيه» !.. ولهذا السبب هم خطرون مثل هؤلاء الناس. سيهمس الى من هو أعلى منه: «ان هذا الفتى لا يمكن التعامل معه» وسينتهي كل شيء.

وتذكر ماكسيموف كيف تجادل مع الكسندر زيلينين عن قيمة الكلمات الرفيعة. والآن ينظر الى هذا الأمر نظرة غير التي كان ينظر اليها من قبل. ان الكلمات الرفيعة تحتفظ بقيمتها حين ينطق بها شيوعي قديم كدامبفر وحين ينطق بها الكسي زيلينين، وحين يتغنى بها ويهتف ملايين من الناس الشرفاء. أما المحتالون الذين يستخدمونها كستار من الدخان فيجب محقهم! ولكن هل من الممكن اصابة المحتالين؟

لم يتكدر كابلكين من عبارة ماكسيموف اللاذعة. راح يذرع الغرفة، وعاد يتحدث عن حوريات شارع تيفسكي.

– الأحسن ان نفكر يا الكسي بأفضل طريقة لتمضية مساء السبت.

انقضى يوم العمل. وهبط ماكسيموف وكابلكين الدرج. وعند باب الخروج اصطدم بهما كاربوف. كان يتألق وكأن حول رأسه هالة.

– أنا ابحث عنك يا ماكس. اين كنت تختفي؟

– ما الخبر؟ هل كسبت ربحا ام جاءك طرد او حوالة بريدية، أم فقدت عقلك أخيرا؟

– هل تفهم، دخلت الآن بيتنا فاذا بالتلفون يدق...

كانت فيرا تتحدث. انت بالطبع، لا تعرف، اليوم عيد ميلادها. ألحت بدعوتها. وانت مدعو ايضا، بهذه المناسبة.

خيل الى ماكسيموف ان البناية تترنح. مسح وجهه بكفه، وضغط على خديه بقوة.

– وهل تنوي الذهاب... الى هناك؟

– ولم لا اذهب؟ – هتف فلادكا بارتبـاك وبلهجـة متعالية: – سيكون الجميع هناك. جمهور طريف. لماذا لا اذهب؟

– أرجو لك وقتا ممتعا. هل تذهب يا فينكا؟

وخرجا الى محطة الباص. وصاح فلادكا في اثرهما:

– يا لك من سوداوي مقيت!

واقعية ام تجريدية؟

كان الليل ملونا بابسط لونين: الاسود والأبيض. الاسود ثابت وجسيم. والابيض يدور ويهبط على الارض والسقوف، والاشجار. والاشجار تبسط كفوفها لينة، والاحراش تنفش اغصانها الشبيهة بقرون الوعل. اين رأيت ايضا مثل هذا الثلج المتساقط؟ في السينما؟

في الطفولـة المبكرة؟ في الحلم؟ مـا آمن كل الشيء وأهدأه! وما ايسر السير وكأنما لقدميك جناحان! الشارع مقفر. كم الساعة الآن؟ ولا يلاحظ الشاب القادم من الساحة ركضا ساعة الشارع المعلقة فوق رأسه، حيث التقى العقربان، وارتفعا الى فوق مثل حربة حارس. فالشاب يهرول في الشارع ومعطفه يخفق عليه. يهرول ويتمتم بشيء. فقد في مكان ما لفاحه النرويجي الانيق، فخره الصغير. والآن جاء دور القبعة ليفقدها ــ فقد كانت تحط على اذنه غير ثابتة. من الصعب ان نعرف: هل الشاب منشرح ام تسيطر عليه فكرة ام سكرآن الى درجة ان تتوافد على رأسه اكثر الافكار اصالة.

«... نحن جميعا منافقون قليلا، ونثق كثيرا، نثق كثيرا بالخمر فقط...» نعم، نعم! من قال هذه العبارة؟ يا للشيطان، ان الدماغ معبأ بالاقتباسات! لن اقرأ شيئا بعد الآن. يجب ان اتعلم كيف افكر باستقلال. ولكن لا يهم. «نحن جميعا منافقون قليلا!» آه، هذا شطر من اغنية. لا منافقون بل خرافيون. كانـوا يغنونها من قبل على هذا اللحن: «نحن جميعا خرافيون قليلا»... حينذاك كنت في الخامسة عشرة. كنت اتصور

نفسي رجلا ناضجا. وكانت حفلة الرقص في مدرسة للبنات. وكنت صبيا ضخم الرأس ياقته مفتوحة، وفي بنطلونـه من الخلف رقعتـان مستديرتـان كعدستي نظارة. حينذاك لم يخطر ببال أحد أن يعيرني على ذلك. فقد كان ذلك في السنوات الأولى بعد انتهاء الحرب. اما الآن فاذا لبس صبي حذاء ليس على الموضة بشكل كاف، حذاء متينا ولكنه - الويل له - غير مدبب! ان مشكلة الاناقة معقدة: فهل خلت الحياة من المشاكل الاخرى؟ العمل؟ الحب؟ «نحن جميعا منافقون قليلا». حتى حين يخلو الانسان الى نفسه؟ لا! لا يسمح للسكارى. الدخول ممنوع. انا مغرم! ام انني اوحيت لنفسي بذلك لا غير؟ فماذا هو الحب اذا لم يكن فكرة ملحاحة؟»

الثلج لا ينهي يتساقط. وأخذ الشاب يترنم بشيء في سيره، ويصرخ بشيء.

- هي طيور البطريق، يا طيور البطريق!

كان امامه بعض البوابات يحككن الثلج. عريضات في الجزء الاسفل من الجسم، وبمآزر بيض فكن يشبهن من خلال نقاب الثلج طيور البطريق حقا.

اقتحم ماكسيموف الفناء المألوف له، وصعد الى مدخل البيت المألوف بقفزة واحدة، ووصل الى المجاز. واخذ يرتقي الدرجات المرمرية المصفرة ببطء. ونظر الى المصباح المألوف المعلق على السقف، والى نقوش النوافذ في فسحة الدرج، والى باب المصعد البرونزي المشبك. وقال لنفسه: «ان هؤلاء الاختياريين من المعماريين كانوا يبنون البناء ليدوم طويلا».

مؤسف ان نشوة الخمر تزول سريعا. ولكن القدمين لا تطيعان، لا تريدان الصعود الى فوق. والنوم يثقله. والقسم الداخلي في شارع دراغونسكايا يبعد ربع ساعة مشيا. وهناك سيفرغ الليلة سرير في الغرفة رقم ١٢٠. سيخلع حذاءه، ويمدد رجليه ويغمض عينيه و... اللعنة، اللعنة على كل شيء! ويستريح الدماغ مثل محطة كهرباء المدينة، وتنطفئ اتونات التهيج العصبي. نعيم! ولكن، لا! ان ابسط الاشياء هو النوم او الموت او الاجترار الابله. أمن المعقول انه جريء فقط حين يسري الكحول في اوعيته؟ هيا، دقّ الطبل! لا تخف! الطابق الثالث والرابع والخامس والسادس. واضغط على الجرس بقوة ووقاحة. وأوقظ الجميع! لا ترفع اصبعك عن الجرس! ها هم قادمون!

فتح الباب على نصف سعته. ولاح في الظلمة وجه فيسيلين الشاحب.

ـ ما هذا؟ من هناك؟ ماذا حدث؟

ـ تحية! ـ قال الكسي ـ هذا انا.

ـ تعذرني؟ ـ قال فيسيلين في تساؤل.

سيقول الآن: «ليس لي شرف معرفتك». لا شك في ان هذا الشخص سيتحدث مع المتقحمين من موقف ثقافة وراثية.

تمتم الكسي:

ـ هنا يوجد صديقي فلادكا كاربوف.

وسمع وقع حذائي على الارضية:

ـ دعه يدخل! يا آوليغ! ماذا اخافك؟

متى ستزايلك لجلجة اللسان ايها المسكين؟ متى ستستطيع اخيرا ان تنظر الى هذا الوجه في هدوء، وتمد يدك الى هذه اليد في سكينة وتصافحها (والاحسن ان تلثمها) وان تتحدث بشيء بانطلاق. مثلا: «اركع على قدميك ايتها المعبودة» او شيئا من مثل هذه التوافه؟

ـ مرحبا ـ قال الكسي في صوت اجش ـ هذا انا.

ـ الكسي! تعال ادخل.

ضبط نفس مذهل. ولهجة يسيرة مرحة وكأنها التقت بصديق الطفولة.

خلع معطفه في المجاز المظلم، ورفع يده الى رقبته ليخلع لفاحه. وضحك باقتضاب. اضاءت فيرا المصباح، وفجأة رأى صورته معكوسة على المرآة بكاملها. ولم يدخل هذا سرورا على نفسه.

– كم انا مسرورة يا اليوشكا من انك ذكرتني.

– صحيح؟ وانا ايضا مسرور لانك مسرورة. هل فلادكا هنا؟

– فلادكا تحمض. كان الجو مرحا، اما الآن فالجمع قد انفرط. انهم يتفلسفون. تعال ادخل.

– دقيقة واحدة.

وتلمس ماكسيموف في جيبه وقد اثلجه الرعب. أمن المعقول انه فقدها ايضا. لا. هذه هي الهدية. مضحك ومؤسف في آن واحد.

– فيرا... وانتم... اوليغ... لا اعرف اسمكم الكامل...

أومأ فيسيلين ايماءة احتجاجية.

– أوه. سمني اوليغ فقط.

– على العموم ارجو المعذرة على الزيارة المتأخرة جدا. ولكنني عزمت على تقديم التهاني... لفيرا...

و... انت يبدو... تذكرين... كنت تريدين أن تقتني هذه...

ـ اليوشكا! يا للسحر!

رفعت فيرا يديها، وجذبت اليها رأس ماكسيموف وقبلته في وجنته. قبلة صديق فقط. أم هي اكثر رقة من قبلة الصديق؟

كانت جميع قطع الاثاث قد سحبت الى الجدران ووضع جهاز التسجيل في ركن على الارض.

عشرون اصبعا عزيزا
لا اقوى على نسيانها، ـ

غنى بذلك صوت نسائي واطئ. وكان بعض الازواج يتنططون على ارضية الباركيه، وكان فلادكا بين الراقصين. كان يحتضن فتاة نحيلة وينظر اليها مثل حيوان كاسر واثق من نفسه. وحين رأى ماكسيموف توقف ولوّح بيده وصاح:

ـ اي، من هذا الذي تراه عيناي؟ ماكس، يا صديقي، يا اخي، اخي المعذب المتعب ـ وقاد الفتاة

نحو الكسي، ومسدّ على شعرها، وقال ـ هل رأيت في حياتك شبيها لها؟

ـ حذارك منه يا آنسة ـ قال الكسي، وذهب الى الغرفة المجاورة حيث جلس الجزء الاكبر من المدعوين مسترخين بحريتهم على المقاعد والاريكة. كان في الغرفة بعض من يعرفهم: طلاب صفوف الاسبيرانتورة، ومدرسون، وممثل مشهور. بينما وقف في الوسط فيسيلين وشخص طويل كثيف الشعر يرتدي سويترا مترهلا وقفة ديكين يتصارعان.

صاح فيسيلين:

ـ تفاهة! رعونة! لن يقبل الشعب بمثل هذا الفن ابدا.

ـ انت تعارض الرقي والتقدم والعصرية ـ قال ذو الشعر الكثيف في تراخ ـ يجب ان يقترب الرسم في ايامنا هذه من الموسيقى من حيث تأثيرها العاطفي على الانسان، فيجب أن يصبح اهتزاز الروح الانسانية.

ـ حسناً، واي اهتزاز هذا حين يسكب على الجنفاص جردل من الالوان، ثم يداس بالاحذية؟

ـ هذا تطرف، تجل وجداني. وضيق الافق لا يستطيع ان ينفذ الى سر عملية الخلق. يقولون ان

احد الكتاب كان يضع قدميه في حوض ماء اثنـاء الكتابة. فهل من المعقول انه كان ممسوسا؟ ان الانسان آلة اكثر تعقيدا مما يتصوره الفيزيولوجيون.

ففكر ماكسيموف: «ان هذا الظريف يخوض بأفكار مسلية!»

كان الرسم التجريدي حديث المدينة. كان الطلاب والمتقاعدون والاطبـاء والعمـال يتناقشون حوله في المعارض. وكانت الغالبية تعلن بكل ما في جعبتها من الالفاظ، وتتهيج. وكانت لماكسيموف افكار مضطربة حول ذلك: «الشيطان يعرف. ولكن ربما هناك فكرة ما زالت غامضة عليّ؟»

— تقول رقي؟ من فن ريبين وبولينوف الذي هو ارهف فن، من مدرسة المتنقلين الى القمامة؟

— أهوه. دائما نراوح على المتنقلين! عندنا ما يكفي من الطبيعيين. ان ما يسمى بالواقعية قد شاخت كليا. فعندنا في وقتنا السينما والتصوير الفوتوغرافي الملوّن. ليحاول فطاحل الواقعية عندنا الارتفاع الى مستوى تصاوير بالترمنتس الفوتوغرافيـة في مجلـة «اوغونيوك». ومع ذلك فما زال هناك من يجلس ليستنسخ الطبيعة بعناد — ثم دفع المحدث يده نحو

فيسيلين المرتبك وقال: — لن اجادلك اكثر. فان الشباب وحدهم يقدرون الجديد.

وصمت الجميع حيارى بعد ان فهموا اية ضربة وجهت لمساعد الاستاذ المتشبب. ولم يكن من العسير فهم ذلك بعد القاء نظرة على حركات فيسيلين المضطربة، وخديه الطيبين المرتجفين. انتفضت فيرا في غضب شديد. وصرخت على ذي الشعر الكثيف:

— فوما! لا تصور نفسك بطلا. ولا تزعم باسم الشباب. طبعا ان الطبيعية قد شاخت لا الواقعية! فروبيل، ماركيه، سيزان، ماتيس — من تحسبهم؟ هذا هو الفن! لا مزعومك براك او بلاك ممن لم تر لهما، بالمناسبة، الا لوحتين او ثلاثا مطبوعة في مجلة «كروكوديل» طباعة رديئة تحت عنوان «العم سام يرسم نفسه». وتحسب نفسك مجددا!

ضحك الجميع. وهنا قال ماكسيموف:

— مرافعتك مؤثرة جدا يا فيروتشكا. انك زوجة سوفييتية مثالية.

التفت فوما نحوه. واخذا يتصايحان ويلوحان بايديهما. اعترض الحاضرون عليهما وضحكوا منهما ولكنهما لم يسمعا اعتراضا. سيطرت روح المعارضة

على الكسي ماكسيموف وخيل اليه انه يتمرد على ترتيب شقة البروفيسور المتقن، وعلى رزانة فيسيلين ونفاق زوجته، معشوقته، وعلى الشتاء وعلى يارتشوك، وعلى عمله المضجر، وحتى على دامبفر آلانسان الذي احترمه والذي فكر بكلماته طوال هذه الايام. وحاول ان يتحاشى النظر الى فيرا. وتحدث بسرعة وحرارة متعاظمتين وكأنه يخاف من انه، اذا توقف، فهم الحاضرون الشيء الذي لم يشر اليه بكلمة واحدة. وتوقف حين قام ابو فيرا. وضع الاب على المنضدة قدح الماء المعدني الذي كان يمسك به. وصمت الجميع. لم يكن للبروفيسور ما يحتج به على الجدل بل كان يطمح دائما بان يجتمع الشباب في شقته ويتصايحوا. ولكن التدخل وجب الآن. والا فان الكسي الشاب الكدر اللطيف سيقول ما لا يعلم به الا الله. يبدو انه يحب فيرا قليلا، وغاضب عليها. قال البروفيسور:

– ليوشا، وانت ايها الرفيق، اتوسل اليكما ان لا تعتبرا نفسيكما رائدي الفن الحديث. قبل اربعين عاما تقريبا سمعت مثل هذه الكلمات من شبان مثلكما. والحق – وهنا رفع لحيته الصغيرة بحماسة – انا نفسي

كنت مستقبليا. حقا، حقا! بل استطيع ان آبرز لكما مجموعة فيها مقطوعاتي الشعرية:

ايها العمالقة الغلاظ
حطموا العالم
وانسوا
أهوه! أهوه!

مضحك؟ ولكن كنا ندافع حينذاك عن مثل هذا الشعر الركيك. ليست المسألة انكما تتصايحان وتتعاركان كالديكة. لكما ان تتصايحا ايها الصديقان. ولكن المسألة هي انكما يجب ان تفهما، في وقت ما، القيمة الحقيقية للاشياء والناس والحوادث. وبقدر ما يحدث ذلك اسرع يكون افضل لكما. وحينذاك ستفهمان الفن. لا كل الاشكال المنتهية بـ«ية» التي تفهمانها الآن، بل الفن! – وتحدث طويلا متحمسا مع كل كلمة، بل وأخذ يلوح يديه ايضا ثم قال – الخلود، الخلود ينظر الينا من لوحات ريبين. وانتم تقولون – فوتوغرافية! افهم ان لذلك بعض الوجاهة اذا كان يتعلق برسم المناظر الطبيعية، ولكن رسم الاشخاص

فهل يمكن استبدال ارهف سيكولوجيـــة بعمل الفوتوغراف؟

– وهل اللقطات السينمائية خالية من السيكولوجية؟

– قال ماكسيموف، واستدار دون كلفة، وذهب الى الغرفة المجاورة.

خرج فوما في اثره. كان كل شيء ابسط هنا. كان الجاز يعزف، وفلادكا يرقص مع الفتاة النحيلة. واقترح فوما ان يذهبا الى المطبخ «لاحتساء قدح من خمرة».

وقال وهو يصب الكونياك:

– خضنـــا، انـــا وانت، معركـــة مجيدة مع هؤلاء الظلاميين. ادركت في الحال انك ايضا نفس حية متطلعة.

والآن احس ماكسيموف، لسبب ما، بالغضب على فوما بصوته الشديد، ورأسه المهزوز المتهدل الخصلات، ورقبته الشاحبة العضلية البارزة من سويتر سخيف.

قال فوما:

– عندنا في المدرسة ايضا يكممون الفن المتقدم ولكن هناك، من حسن الحظ، اناسا لهم نفوس مرهفة متفتحة. أتدري انهم اعطوني في هذا الخريف مبلغا لا يستهان به من المال لقاء لوحة واحدة من لوحاتي.

قال ماكسيموف في عبوس:

- صحيح؟

- صحيح. عثرت على مقيم صورتي المنفذة في اسلوب المبالغة. صورت فيها في شكل غير عقلاني شريكي في الشقة.

- أهي «أداجيو سوداوي»؟

- هل رأيتها؟

- ألست مصابا بالشيزوفرينيا؟ - تساءل ماكسيموف.

- نعم. وما في ذلك؟ - وضحك فوما ومع ذلك فكان من الملاحظ انه قد استاء.

وفكر ماكسيموف مع نفسه: «الى الشيطان. مرة اخرى حماقة. لم تصايحت وكدرت فيرا واباها. فانا على اية حال افهم في الرسم بقدر ما يفهم الخنزير بالبرتقال. حقا، ان ال«اداجيو» بلاهة دون شك، متعة التافهين. وماذا عن بيكاسو وماتيس؟ هذا هو الفن، وانا مستعد لان اتعارك في سبيله. ولكن ليس كل أنسان قادرا على ان يرسم خطا فاصلا بين هذه الاشياء وانا ايضا يصعب عليّ ذلك. فلكي ترسم خطا يجب ان تفهم في ذلك حسب الاصول. يجب ان تعرف

كل شيء. اما انا فلا اعرف شيئا. ومع ذلك اتصايح. ولكن ما الفرق اذا كانت فيرا لا تحبني؟ أليس سيان ان اقوم بحماقات او باشياء نابهة، اصرخ او اصمت، احب او اكره؟ أليس سيان عندي انا الذي لا يحبه احد؟»

ورج الزجاجة، ونظر فيما حوله. كان وحيدا في المطبخ. يجلس على مقعد عند طاولة مثقلة بالمأكولات. وكانت الجدران المصفوفة بالبلاط تطوف حوله مرسلة رنينا خافتا. «ها هو الدوار يعود. سأنهار هنا» – فكر في فرح، واخذ يشرب الكونياك من الزجاجة رأسا. وفجأة توقف دوران الجدران: دخلت فيرا المطبخ، واقتربت من الكسي، وضمت رأسه على صدرها. للحظة، للحظة واحدة. وحدق في وجهها وقرأ فيه رثاء وحبا غريبا يكاد يكون مشمئزا.

«هكذا اذن؟ لا بد انها تفكر: «لماذا احببت هذه التفاهة، هذه الشخصية التافهة؟» وواضح انها تريد ان تقطع الصلة، ان تصفي كل ما كان بيننا». قال الكسي في حزم:

– اذن يا فيرا، يعني هذا نهاية كل شيء؟

ـ آه، انا لا اعرف. لا اعرف يا ليوشا! ـ قالت ذلك في يأس وجلست الى جانبه وقالت: ـ صب لي نبيذا.

وفرح. يعني انها لم تقرر بعد. بل لربما لا تعتبره تافها؟ لا بد من انها تدرك السبب في كونه هكذا! والحب والشتاء وهذه الافكار... سينتهي هذا يوما ما: بل وقريبا جدا. انه سيفهم كل شيء. وحينئذ سيكون قادرا على ان يتوصل الى شيء.

ـ هل اعد لك سندويتشا؟

ـ نعم، ارجوك.

ـ من السردين؟

ـ لا، الافضل من الجبنة.

انه هو جالس في المطبخ مع زوجته. التقيا بعد العمل لقاء اعتياديا. وهما يتبلغان بشيء من الطعام، ويتحدثان بهدوء. والشقة هادئة، بل ويسمع فيهـا تنفس ابنهما كيشكا في نومه.

وبلغت سمعهما عاصفة ضحك صادرة من الغرفة وصوت تلك المرأة مرة أخرى:

عشرون اصبعا عزيزة

لا اقوى على نسيانها..

يا الهي. ملايين من النسـاء والرجـال يلتقون في الامـاسي في مطابخهم ويتبلغـون بشيء من الطعـام، ويتحدثون. ولا يعرفون اية سعادة هذه!

– يعني انك لا تعرفين؟ ولكن الأمور لا يمكن ان تسير على هذا المنوال. أليس كذلك؟

– نعم. يجب ان لا نلتقي بعد الآن هكذا. أنا لا استطيع ان اخدع شخصين في آن واحد. انا لا استطيع ان آخدع احدا.

قال:

– يعني، النهاية.

صاحت:

– لا! لا استطيع ان اتخلى عنك! ولكنك تفهم، يا الكسي، انني اذا انفصلت عن فيسيلين فاضطررت الى ترك عملي في المعهد. لا لان فيسيلين سيضايقني. فهو نزيه جدا من هذه الناحية. بل...

– مفهوم.

– وهذا يعني وداعـا لصفـوف الاسبيرانتـورة، ولاطروحتي. وداعا لصغيري ميكي ماوس.

– ومن هذا ميكي ماوس؟

– ألم اقل لك حقا؟ هم خصصوا لي قردا لاجراء التجارب. وقد سررت...

– يعني الحب والواجب – قاطعها بسخرية – أو بالاحرى الحب والاطروحة. حكاية قديمة.

– ما اسهل عليك ان تسخر. ستسوح انت وأنا انتظرك. ها؟

وصمتا. واستمعا الى وقع اقدام مرح في الحجرات. وبعد دقيقة سأل ماكسيموف:

– قولي يا فيرا: لماذا تزوجته؟

– انت لا تعرف كم هو طيب. وقد مرّت بي ايام صعبة. فساعدني، كان الى جانبي دائما. ثم انه كان مغرما بعمله و... – وتلجلجت هنا – وبي.

فلم يتمالك نفسه ثانية وقال:

– أيعني ان نغرم بعملنا لتغرم الفتيات بنا؟

هزت فيرا رأسها في قنوط، وابتسمت. ولثمت خده بسرعة.

– عندي فكرة! – صاح ماكسيموف – انت تستطيعين الانتقال الى معهد آخر. هناك مثلا معهد الطب التجريبي.

— فكرت بذلك فعلا. اغلب الظن انني سافعل ذلك. ولكن هذا يمكن ان افعله في السنة القادمة فقط.

— يعني الانتظار فترة أخرى...

— ستة اشهر.

— وهل ستنتظرين انت؟

— نعم.

— انت تبدين ارادة في فقرك الى الارادة. مفهوم؟

— وليكن! — اجابت بحزم.

قفز ماكسيموف وأخذ يضع علبة السكائر والكبريت في جيبه.

— الى الشيطان! — همس، وذرع المطبخ وتوقف عند الباب مبرطما بسخرية:

— ارجو لك التوفيق! لك ولصاحبك... ميكي ماوس.

— ليوشكا! — صاحت بصوت خافت.

حينذاك عاد، ودفع رأسها، واطبق على شفتيها بقبلة طويلة.

— احبك، احبك، احبك — همس بذلك وخرج تاركا فيرا في ذهول اقرب الى الاغماء.

رأى فلادكا في فسحة المدخل. كان كاربوف يلبس

فتاته المعطف الفرائي الذي لم ير احد شبيها له من قبل.

وسأل فلادكا عما اذا كان الكسي يريد الخروج. واقترح ان يوصلا «هذه الطفلة» سوية. ونظر، وهو يقول ذلك، نظرة فاحصة حتى بدا لماكسيموف انه يعرف كل شيء.

الصديق وحده

خرج الصديقان والفتاة الى الشارع المحاذي للقناة. وكان الثلج قد كف عن التساقط منذ وقت طويل. وشاع ليل عذب ناعم. كانت اعالي اشجار الزيزفون المشذبة المتناثر عليها الثلج تشبه رؤوس الهندباء البرية. ولبرهة بدا لماكسيموف ان النفخ القوي كفيل بان يبدد هذا السجو الثلجي الذي لا وزن له، ويرجعه الى السماء ثانية.

كانت الفتاة تطيل النظر الى فلادكا طوال الوقت في حيرة وأسى. بل واحس ماكسيموف بالرثاء لها بينما كان فلادكا يرسل النكات في عناد وبشكل مضجر، ويصب كرات الثلج ويرميها باحكام على اعمدة المصابيح.

سأل ماكسيموف حين صارا وحدهما:

ـ وانت حتى تلفونها لم تكتبه؟

ـ لقد ضجرت من ذلك! ـ اجاب فلادكا بحدة، وعض على سيكارة باسنانه، وطق باصابعه اشارة الى انه يريد علبة الكبريت. وبعد ان اشعل سيكارته قال: ـ يبدو اننا شخنا قليلا ما دمنا تميل الى الاستقرار.

فضحك الكسي وقال:

ـ هذا يسمى سن الرشد.

وكان يود كثيرا ان يعرف اي استقرار يعنيه فلادكا، ولكنه خاف ان يسأل عارفا ان ذلك يتطلب صراحة متبادلة.

أمسك كاربوف بتلابيب معطفه، وقال في وجهه:

ـ أنا اليوم راض جدا. ايقنت ان ما كان قديما في نفسي قد احترق، ولم يبق الا الرماد. وأنا الآن هادئ وصاف كالزجاجة الفارغة. نعم، نعم. أنا اتحدث عن فيرا.

استولى على قلب الكسي فرح دافئ. ان فلادكا يعرف كل شيء عنه وعن فيرا! يعرف بل ويفهم بان لا شيء يهدد صداقتهما. يعني لا حاجة الى التخفي بعد

الآن عن واحد من اقرب الناس اليه. الا فليعش فلادكا كاربوف امرح وامكر خليل!

قال ماكسيموف:

— نعم. أنا وفيرا عاشقان. ولكنني خفت فقط انك...

— ابن كلبة! تحسب نفسك وعلا جبليا وحيدا، قنديل بحر في محيط! هل نسيت كم اكلنا من الشوربة سوية؟ اسكب الآن ما في مخلتك التي تسميها روحا!

كانا واقفين عند بيت الفتاة الجديدة. وكانت وآجهة البيت تظللهما مثل سيف صخري. وربّت احدهما على كتف الآخر، وضحكا. وسارا، على غير اتفاق، الى صوب فيبورغسكايا ستورونا. فقد كانت العودة الى مسكنهما في الميناء بلا معنى. فانهما سيصلان الى هناك عند الصباح.

... طلع صباح الأحد على فلادكا والكسي وهما في قاعة الانتظار في محطة فنلنده. غفا الصديقان متلاصقين بانتظار افتتاح البوفيه. وحين فتح اشتريا بعض السندويتشات وقدحين من القهوة الساخنة، وتناولا فطورهما على المصطبة. ثم اخذت المحطة تزدحم فجأة بمتزحلقين بملابس زاهية.

قال كاربوف:

– اسمع يا ماكس. كنا قد نوينا الذهاب آلى الكسندر لنتزحلق على الاسكي.

اجاب ماكسيموف:

– يجب الذهاب اليه حتما. اعتقد ان ايرينا ستعطينا اجازة لمدة اسبوع دون أجر.

– ذلك سيسر فارسنا!

– بالمناسبة منذ وقت طويل لم نزور والديه العجوزين. هل نذهب الآن؟

فتحت والدة زيلينين الباب لهما. كان مئزر المطبخ لا يناسب هيئتها الوقور. هتفت في فرح:

– يا اولاد! يا للاسف، يا للاسف.

– ما الخبر؟

– لو جئتما يوم امس لوجدتماها.

– من هي؟

– زوجة الكسندر.

صرخ كاربوف:

– يا الكسي، امسكني!.. امسكني عليك اللعنة!

فتمتم ماكسيموف:

– ما هذا؟ على شكل نكتة؟

قالت الأم:

– ليست هذه نكتة لنا. هذه مشكلة كبيرة. فان ساشا الآن رب عائلة. وقد يكون له اولاد، احفاد... – وتألق محياها.

قادت الشابين الى غرفة الطعام حيث كان زيلينين الأب جالسا امام قهوة الصباح. قال الأب:

– مرحبا ايها الصديقان! ما رأيكما في صبينا؟ تصورا في يوم لطيف نتسلم برقية تقول: «ابرقا لنا بتبريكاتكما. نقبلكما: اينا وساشا». ها هي وتيرة القرن العشرين.

– ولكنك يا دميتري توافق على انها فتنة – قالت الأم.

– بالضبط – قال الأب في جد – والآن انظرا الى هنا.

رأيا صحيفة محلية باسم «الشروق الشمالي». وفي صفحتها الرابعة خط بالقلم الرصاص تحت عنوان «هكذا يسلك السوفييتيون» النص التالي: «حدث هذا في ليلة شتائية كالحة. هاجم دب حارس غابة يعمل في مخشبة عند بحيرة شوم واسمه كوروتشكين واصابه بجراح بليغة. ووصلت اشارة عن المصيبة الى مستشفى المنطقة في كروغلوغوريه. وفي الحال

استقل الكومسومو ليان الطبيب الكسندر زيلينين خريج معهد الطب في لينينغراد والممرضة داريا غوريانوفا طائرة هليكوبتر لنجدته. ولم تستطع الهليكوبتر ان تهبط عند بيت الحارس. حينذاك نزل الشابان على سلم الحبال. واجريا عملية جراحية معقدة في بيت الحارس في ضوء مصباح الكيروسين. ولكن الصعوبات لم تنته عند هذا الحد. ففي الصباح اصيب الجريح بنزيف. وكان يجب اجراء المرحلة الثانية من العملية ولكن في ظروف المستشفى. ولم ينتظر زيلينين وغوريانوفا وصول واسطة نقل ووضعا الجريح في زلاقة، وانطلقا عائدين به غائصين في الثلج الى صدريهما. وعلى هذا المنوال قطعا اربعة عشر كيلومترا حتى التقيا بعربة المستشفى. وأنقذت حياة الجريح. وهكذا يسلك الشباب السوفييتي! هكذا يسلك الكومسومو ليون من الاخصائيين الشبان! وهذه هي بطولة حياتنا اليومية، هذه هي...»

قالت والدة زيلينين:

— قد يكون هذا مضحكا. ولكنني ودميتري...

وخلعت نظارة الانف واستدارت.

وقال زيلينين الأب:

— بالضبط.

وقال فلادكا وهو يلقي الصحيفة على الطاولة:

— هذا هو العمل!

وقال ماكسيموف في تفكير:

— نعم. هذه مسألة!

الفصل التاسع

اينا زيلينينا

كان القطار ينطلق باندفاع شديد في العراء الليلي بالقرب من مدينة بولوغويه وكأنه يريد تهشيم نفسه. وكانت دفقات الهواء تهب على فسحة العربة. ولكن اينا كانت واقفة هنا منذ عشر دقائق تحضن نفسها بذراعيها.

بعد بضع ساعات ستكون في موسكو حيث ينتظرها اهلها، وشقة في شارع غاغارينسكي، وعشرون عاما من حياة الماضي. آن تلك الاعوام تنتظرها في لهفة رغم انها شطبت عليها. ايها الاعوام الطيبة المرحة الخالية من الهموم! انه ليصعب عليها ان تفر منك،

ويصعب عليها ان تتخلص من عاداتك. ولكن يجب ان تجاهد، وليكن في حسبانها انها لم تعد مجرد ابنة والديها ورياضية وفتاة جميلة، بل هي الآن اينا زيلينينا، زوجة رجل مضحك ومتفان وقوي وبلا حصانة. وهي الاساس في اتحادهما. هذا ما حدث. وكان واضحا منذ البداية. كانت سريعة المبادرة وحاسمة تترك في نفوس الجميع انطباعا بانها فتاة عاقلة. ولكن الجميع على خطأ. نعم. وكان بوسعها ان تعترف بذلك بنفسها، وهي على فسحة العربة ليلا. انها ليست عاقلة مطلقا، قدر شعرة. في البداية تقدم على اعمال، ثم تبدأ بالتفكير فيها. انها مجازفة. أليس كذلك؟ لطيف انها كانت دائما تجد اناسا قادرين على ان يخفوا الى النجدة، ويصححوا الاخطاء، ويساندوها. اما الآن فسيكون كل شيء بشكل مختلف، سيسير كل شيء بطريقة آخرى.

وتمشت اينا في الفسحة، وقفزت على البقعة، وحدقت في زجاج الباب الخارجي الذي تعوي وتنوح وراءه الظلمة. لماذا لا تعود الى مقصورتها؟ لماذا هي مرتعبة على هذا النحو؟ اي أمر جلل قد حصل؟ تزوجت، وهذا كل شيء. نصف فتيات فصلها قد

اقدمن على نفس العمل. بل ان آدا مارغليان تزوجت وطلقت. ان ساشا هو الذي يميل الى اضفـــاء الجو الدرامي على الوضع. وما من دراما الآن ولن تكون. وما ضير في ان احدهما منفصل عن الآخر بمسافة بعيدة؟ فان اناسا كثيرين جدا يعيشون بهذا الشكل. وفي العام المقبل ستنتقل الى جامعة لينينغراد، وستكون اقرب منه. فما الداعي الى القلق؟ «آه، برد! ينفذ حتى من خلال السويتر».

ودخلت الى العربة. كانت ابواب المقصورات موصدة. وانزلت المقعد الجانبي قرب النافذة، وجلست عليه موسدة ذقنها براحتها. ومرت امام عينيها مناظر كروغلوغوريه واحدا اثر الآخر.

ليلتها الأولى في كروغلوغوريه مثلا. ليلة زرقاء. صقيع. وسكون بدا لها بعيدا عن التصديق بعد ضجيج موسكو الاعتيادي، وهدير القطار. وشقة غريبة بصرير ارضيتها الخشبية، وطاولتها القديمة التي رأت من قبل مثيلة لها في مخزن للعمولة في شارع اربات. وأخذت تذرع الحجرة. وتسربت الى ذهنها افكار مضحكة حمقاء:

«هنا سنضع صوان اوان. وهنا بيانو، وهنا بعض

المقاعد الوثيرة. وفي الامكان تقسيم هذه الحجرة بحاجز وترتيب غرفة خاصة بالاطفال. هنا...»

وفجأة خجلت، وشعرت، لأول مرة، بعدم اصالة مجيئها الى هنا. وكأنها صحت من حلم حملها خلاله احد من الناس الى بلد غريب. قبل مدة وجيزة جدا كانت تستعد للسفر في موسكو بشكل محموم غير ملتفتة الى صرخات الوالدين. والآن فقط تذكرت ان اباها وصفها بالبلهاء... ثم هذه محطة صغيرة مظلمة، واعرج مرح في فروة خروف. وفروة خروف دثروها فيها من رأسها آلى قدميها، وركض مجنون في طريق لا يتصوره عقل، وسكون بعيد عن التصديق، وانوار غبشاء في الليل، والشقة الغريبة. ثم ذلك الرجل، ذلك الرجل الذي ابتدعته هي، والذي تلهفت اليه هي ظهر انه طار في طائرة هليكوبتر الى مكان ما. والآن لم يكن في وسع أحد ان يصحبها، ولا احد بقادر على مساعدتها. كانت وحيدة. ولكن افزع الاشياء سيحصل فيما بعد: لقاؤها معه! كانت تعرف انه غير مخيف البتة، وانه طيب وفكه ومندفع... ولكن ماذا لو تبين لها فجأة انه ليس على تلك الشاكلة؟ وانه فارغ وبارد كهذه الشقة؟ وانه مضجر وجاف؟

واندفعت الى الحجرة التي وضع فيها سرير، وركضت الى المكتب الذي تناثرت عليه كتب، وفتحت جميع الادراج. فلتذهب الرسميات الى الشيطان! يجب ان تراه في هذه اللحظة! لا بد من ان له البوم صور! وبدلا من ان تعثر على البوم وجدت بعض مظاريف محشوة حشوا شديدا من تلك المظاريف التي تباع فيها اوراق الصور الفوتوغرافية. وسحبت، كيفما اتفق، صورة بحجم كبير لثلاثة شبان يكشفون عن اسنانهم، ويقفون متشابكين في وجه ريح شديدة كما يبدو، فقد كان شعرهم يتطاير. احدهم في فانلّة رياضية، والآخر عار حتى الخصر، وكان زيلينين وحده يرتدي قميصا وربطة عنق. وتذكرتهم اينا في الحال. ان هذا العاري هو الكسي، كما يبدو، الشاب الساخر، وفلادكا المرح (وكانت اينا محاطة بمثل هؤلاء الشبان دائما). وكان وجه زيلينين المعروق الشبيه بوجه منحوت من الخشب مرفوعا الى فوق، وعيناه متقلصتين حتى وهو بلا نظارة، يبدو قصير النظر جدا. ودفعت اينا بكوعها كومة من الاوراق من القطع الكبير المكتوبة بخط صغير، وعلى هوامشها رسوم لسفن منشورة

الاشرعة، ولفرسان، واشخاص مثل افراخ الضفادع، ورأت تصويرها الفوتوغرافي باطار مصقول بسيط. اخرجت من محفظتها صورة الكسندر، ووضعتها الى جانب تصويرها، واسندت رأسها على يديها، وغفت.

لم يظهر زيلينين الا بعد ان تجاوزت الساعة الواحدة بعد الظهر. دخل كالاعمى. كانت حوافي قبعته وحاجباه مغطاة بزغب الثلج. وساقاه في حذاء لبادي هائل. تقدم من اينا وخلع قبعته، وتمتم:

– مرحبا يا اينا. اعذريني.

وانهبد على السرير ثقيلا. وصرخت اينا واندفعت نحوه واخذت تخلع فروته، والحذائين اللبادين، وتفرك وجهه وقدميه ويديه. وانّ زيلينين في ضعف. ركضت الفتاة الى المطبخ، واشعلت موقد الكيروسين، ووضعت عليه قدر الماء. وحين عادت كان زيلينين جالسا. وعلى وجهه ابتسامة اسيفة. اقتربت اينا منه، وتنحى قليلا ومد يده.

– اعذريني مرة اخرى. الوضع قد تعقد... لم استطع ان اذهب لاستقبالك. – ونهض وقال بصوت يكاد يكون طبيعيا: – جئت لاسلم عليك فقط. يجب ان انشغل مع المريض. حالته صعبة جدا.

غضبت اينا وصرخت بشيء ما، وخاطبته عن عمد بـ «انت» دون كلفة. أمال زيلينين رأسه على جانب، واصغى الى صراخها في انتباه، واشرق بالتدريج. صرخت اينا:

ـ يداك مثلجتان تماما! ـ وامسكت يديه ثانية.

اتسعت ابتسامة زيلينين الهائئة ودمدم:

ـ لا شيء مطلقا. غير مثلجتين! سأعود سريعا. وسنشرب الشمبانيا.

وصافحها، وتقدم الى الباب.

تجمع الضيوف عند المساء. جاء يغوروف وزوجته ومعهما كعكة، ووصل شابان متزلجين بالاسكي: تيموشا ولاعب الكرة الطائرة بوريس، ومعهما زجاجة فودكا وحقيبة ظهرية من البرتقال. وصارت المائدة حافلة.

قال بوريس وغمز لتيموشا:

ـ هل يمكننا ان نعتبر هذه الامسية اعدادا نهائيا؟

فهمس هذا: «اسكت» ـ ولظر الى اينا في ارتباك وكأنه يعتذر عن جملة صديقه اللاذعة.

ابتسمت اينا ذاهلة، ونظرت الى ساشا، فالتقت عيناها بعينيه. كانا جالسين الى المائدة مع اربعة اشخاص آخرين، ويصغيان الى حديثهم، ويضحكان على النكات. ولكنهما لم يكونا عابئين لما يقول هؤلاء الناس. كانا جالسين على طرفي المائدة، والمسافة بينهما بعيدة، وصعب اجتيازها. ولكنهما شعرا بانها ستذلل ولذلك لم يكن لهما شأن فيما يحدث حولهما.

وفتح بوريس جهاز الراديو، والتقط محطة «المنارة». واخذوا يرقصون على رقصات «فوكستروت» قديمة، ورقصات سريعة، ورقصات «الفراشات» البولونية.

ورافق زيلينين واينا الضيوف الى البريد. سار يغوروف الاعرج وزوجته بنشاط على الممشى الخشبي المغطى بالثلج. وسار بوريس وتيموشا في حراسة وسط الشارع يتزحلقان ببطء على آسكيهما. وكان القمر يتدلى في السماء في دوائر برتقالية مثل مصباح صيني.

وحين عادا الى البيت نظفت اينا المائدة، ووقفت وسط الغرفة. كانت ترتدي فستانا اسود ضيقا له

فتحة عنق كبيرة. وخفتت المصابيح الكهربائية بعد الساعة الثانية عشرة. فتراقصت بقع من النور الاصفر وظلال على وجه الفتاة. جلس زيلينين على طوار النافذة، واخرج سيكارة باصابع مرتعشة. لم ينظر احدهما الى الآخر. كان موقفهما مقيدا وحرجا. فاعتصما بالصمت. وتضخم هذا الصمت وتحول الى حاجز عسير المرقى. وسارت اينا نحو الحائط، ثم من الحائط الى الموقد. وصرّت خشبات الارضية عدة مرات. وصارت دقات ساعة الحائط المضطربة مسموعة.

– بررر! – قالت اينا في ضحكة مصطنعة.

– ماذا؟ – صاح زيلينين وقفز.

– اصطك من البرد.

– ربما يحسن ان نحرق الموقد؟ انا واثق من ان في البيت وقودا – تمتم ساشا بذلك واندفع الى المجاز حيث يضع فيليمون كل أسبوع كومة من خشب البتولا.

وفكر: «ماذا بي؟ انا اتحدث كالابله. لماذا قلت «نحرق الموقد» بدلا من «انشعل» و «وقود» بدلا من «حطب»؟

ولكن اينا لم تبتسم لكلماته الغريبة وحركاته

المضوضئة. بل قالت: «نعم. هذه هي الفكرة» — واندفعت الى المجاز في اثره. وهنا اصطدما. وليس من الصعب الاصطدام في الظلمة. اسقط زيلينين قطع الخشب فوقعت احداها على قدمه موجعة. ورمى ذراعيه على كتفي اينا العاريتين تقريبا. وفي الحال التصقت به في طواعية اذهلته. ووخزت هذه الطواعية الخاطفة زيلينين وخزا غير مريح. ولكنه فهم في الحال ان ذلك له، وله وحده. فهم ذلك في الحال وعرف انه غير مخطئ في ذلك.

قبلها قبلات كثيرة. ولم يتركها من بين ذراعيه. وأخيرا حررت اينا نفسها بحركة قوية. وفتحت الباب — فسقط شعاع اصفر على وجه زيلينين — واختفت في الغرفة. وتحرك زيلينين في حجرة المخزن الضيقة ممسكا رأسه في يده مرتطما بالخشب، وبقائمة الباب، وردد مع نفسه: «يا للسعادة، يا للسعادة!» ثم جلس على زكيبة، وقرر ان يدخن ويفكر. ولم يسمح لنفسه حتى التفكير بانه يخاف من ان يراها مرة اخرى، هي التي قبلها منذ دقيقة في الظلمة.

— هاي، اين انت، يا سنيور؟ — صدر هذا النداء الحاد من الغرفة.

وقفز ساشا، واختطف ضمة من الحطب، ودخل آلى غرفة الطعام، فرأى اينا جالسة على الارضية تنظر في الموقد مثبتة بصرها في اكوام الرماد. لم تدر رأسها نحوه، ولم تتحرك عضلة من عضلات جسمها. انها حالة من الذهول يعجز البصر فيها عن ان ينتزع نفسه من شيء ضئيل للغاية، ولا يقوى الجسم على الحركة. والناس في مثل هذه الاحوال لا يفكرون عادة ولا يحسون. ولكنه كان ظاهرا من انعطاف جسم اينا، وانحناء كتفيها انها كانت خائفة بعض الشيء في تلك اللحظة. ركع زيلينين على ركبتيه وراءها، ووضع قطع الخشب على الارضية، ونظر الى الموقد ايضا. بدا له ان الموقد يزفر بردا ونتانة مثل شدقي عجوز بلا اسنان. يظهر انه جلس امام الموقد يوم امس الأول مثل هذه الجلسة والسنة النار تفرقع في الموقد بضراوة، وتطقطق وتتصاعد. اما آلآن فقد لاح له ان اينا تنظر الى الموقد وكانها تحاول ان ترى فيه مستقبلها. واستولى عليه ذعر خاطف. ولكنه رأى على بعد عشرين سنتمترا من وجهه خصلات ناعمة من شعر اينا المقصوص قصة قصيرة، وبعد لحظة انغمر انفه في تلك الامواج الذهبية.

... سيتوهج المستقبل كاللهب! ستكـون سعـــادة للشخصين الجالسين في عناق قرب الموقد! ها قد اقبلت وغمرتهما وافعمت صدريهما واستحوذت على قلبيهما، وشلّت عقليهما ـ ارفع سعادة لسحر الحب. ألعلهما سيعذلان على اندفاعهما للقاء سعادتهما دون ان يلتفتا ودون آن يتريثا، على انهما قطعا، بسرعة بالغة، الطريق الذي يفصل احدهما عن الآخر؟ فليكن، وليحكم عليهما بادراك سليم، وليذكّر بـ«الزمان القديم الطيب» حين كانت الخطوبة تعلن، ويتبادل الخطيب والخطيبة خاتميهما، وينتظران وينتظران... ان الشابين الجالسين قرب الموقد لا يعنيهما شيء من احكامكم. لقد هاما مثل جزيئتين في فوضى حركة الفيزيائي براوون ثم التقيا، وعرف احدهما الآخر، وفي الحال مد احدهما يده الى الآخر.

أعلن ساشا في حزم:

ـ غدا سنذهب لمكتب عقود الزواج!

ـ يا طائش! ـ وضحكت اينا ومسدت على رأسه ـ وهل هذا مهم جدا؟

ـ وليكن. سنذهب غدا الى مكتب عقود الزواج.

ـ اهوه! ـ وضحكت ثانية، وابتعدت قليلا ـ هل تعرف يا ساشا انك قد تغيرت كثيرا.

زوجة الطبيب

اينـا ذاهبة للتسويق. في الحاضرة ثلاثة مخـازن للبقالة معروفة بين ربات البيوت باسماء البائعات فيهـا: «من ستيشـا»، «من نينـا»، «من بولينـا ايفانوفنا».

– من اين اشتريت هذه السمكة الرائعة يا عمة مانيا؟

– من نينا.

– اقترح عليك ان تذهبي الى «بولينـا ايفانوفنا»: فهناك جاؤوا بسجق.

اينا ربة بيت. تطبخ الغداء لزوجها، وتقرأ «كتاب الاطعمة الشهيـة والمفيدة للصحة»، وتهيء لساشـا تغذية معقولة. وهو يقدر ذلك. وينظر الى كل قطعة كفتة خارجة من بين يديها كما ينظر الى معجزة. يأكل حساء الكرنب باحترام. واينا فخورة بانتاجها. اينـا سعيدة.

تنحني اينا، وتوثق سيور الاسكي. ثم تهبط طائرة الى الاسفل في المنحدر ألاملس مميلة جذعها الى اليمين

تارة، والى اليسار أخرى متحاشية الاحراش. وعلى جانبيها ينطلق الاولاد بصرخات مبتهجة، ويتساقطون وينقلبون. وتصل اينا الى نهاية المنحدر بروعة منعطفة انعطافا حادا. ويسير قاطعو الاخشاب في الدرب الضيق وعلى اكتافهم المناشير والفؤوس. وتسمع اينا احدا يقول خلفها:

— آه، ان زوجة الطبيب جميلة جدا!

وتتصاعد نفثات فوق قاطعي الاخشاب: نفثات تبغ زرقاء وانفاس بيضاء. ويلمع المنحدر الاملس، وتلتمع الاحراش المغطاة بالثلج. تلوح وكأنها ترن في تنغيم من اقل لمسة، من نسمة لا تكاد تحس، من اشعة الشمس. ان اينا سعيدة.

... وتتعرف اينا على الحارس لوكونيا. انه يسير على الجليد قرب الشاطئ تماما، ويحمل في يديه قرمة كبيرة. وتحت الجليد سمكة تسير وكأنها في حوض زجاجي لحفظ السمك، وتحرك ذيلها بشدة. ويباعد لوكونيا ساقيه، ويرفع القرمة. وتتقدم السمكة منه تماما. هاه! يضرب لوكونيا الجليد بقرمته.

وتصيح اينا:

ـ آه!

وتنتشر الفلوع البيضاء الملتوية في شتى الاتجاهات من تحت القرمة. وتقف السمكة بلا حراك. ويركض لوكونيا ليجلب المخل.

ـ ها هي ـ يقول ذلك ويرفع فوق رأسه سمكة متلألئة.

وتسأل اينا:

ـ أليس هذا صيدا حراما؟

وينظر لوكونيا اليها في حيرة ورموشه تختلج. يفكر. ويقول وهو يمد نحوها السمكة:

ـ خذيها! وتحياتي الى الدكتور.

مفهوم انها شريكة الآن في هذا الصيد الحرام. وتحمل اينا السمكة الى البيت في مهابة. كم سيضحك ساشا حين تحدثه بذلك. ان اينا سعيدة.

هذا يوم آخر. في الغابة ترتعش قليلا بقع الشمس المتساقطة على الثلج الازرق، وقد نشرت اشجار الشوح اجنحتها الوبرية، وتوشك ان تطير. واينا سعيدة اليوم بشكل خاص: اخذها زيلينين في عيادة، وعليهما

آن يقطعا ستة كيلومترات في هذه الغابة، وفيما بعد، حين ينتهي ساشا من عمله سيتزحلقان سوية من التلال. وتلتمع امامها سترته زرقاء، وتتحرك العصوان في ايقاع. ويستطيب لاينا ان تسير في الدرب الذي شقه، ويستطيب لها ان ترى الى الامام قامته النحيلة التي تبدو لطيفة وهو يتزحلق على الاسكي، ويا للغرابة. نعم. ان التزحلق على الاسكي يجعله في منظر بهيج. وهو، على العموم، قد اصبح اكثر وثوقا مما بدا لها، آنذاك في كوماروفو. وغلظ بعض الشيء. حين ذلك كان شابا مرتعبا من جرأته ذاتها ارتعابا لا حدود له، وكأنه كان يتضرع بأن لا يحكم عليه من الانطباع الأول، كان متعثرا ملوحا بذراعيه بعنف حين يتطرق الحديث الى الطب او الاشعار. ولكن هذا الانسان بدا حتى في ذلك الحين عازما على شيء ما لا يحيد عنه. ألعل هذا العزم غير المفهوم قط هو الذي جذب اينا اليه؟ لقد كانت دائما تعجب بالشباب الحازمين وحتى المعتدين بانفسهم، والمرحين والبخلاء في اظهار مشاعرهم! لا، كانت توجه رسائلها الى رجل غريب الاطوار حالم ذي فائض من الاخلاص، والى نموذج لنوع معين من الناس الذين كانت تعتبرهم من قبل

فاترين. الا انه ليس من هذا الصنف ولا من ذاك. فمن هو؟ ولكن وقت التفكير في هذا كله قد فات. الآن تسير في اثره.

وتأخرت اينا كثيرا عنه وهي غارقة في افكارها. رأت زيلينين قد خرج من الغابة، ووقف على تلة معتمدا على عصويه. الآن كان في هيئة حالم حقا. وعلى هذا ستحبه! على انه يتغير باستمرار في كل دقيقة وفي كل يوم. ويبقى نفسه في ذات الوقت.

– آه، هرأء! – صاحت اينا. وكان هذا يعني: الى الشيطان هذا التحليل المضطرب وهذه الشكوك. انها ستحب هذا الشخص باية صورة كان، وباية هيئة يكون.

ومع ذلك يجب ان تأخذ القيادة. وما يعني هذا؟ انها الطرف الرئيسي على اية حال. ثم انها رياضية من الصنف الثاني في التزحلق، وهو من الصنف الثالث التعس!

حركت اينا يديها ورجليها اسرع. وارتقت التلة، وبعد ان حدجت ساشا بنظرة ماكرة سارعت بالهبوط منها. وحملها اسكيها على قشرة الثلج الصلبة الى وهدة تقع عليها قرية «جورافلينيه فيسيلكي» التي كانت تتصاعد من مداخن بيوتها اشرطة الدخان.

حين وصلا الى بيت المريض خرجت ربة البيت الى مقدمته.

— من المريض عندكم؟ — سأل زيلينين منحنيا وفاكا سيور الاسكي.

لم يتلق جوابا. فنظر الى ربة البيت وبدا له انها مرتبكة بعض الشيء.

— هل ابتلع فانيا الثلج مرة اخرى؟ لقد حذرتك يا ماريا فلاديميروفنا من ان لوزتيه ضعيفتان جدا. أم نينوتشكا هي المريضة في هذه المرة؟

— الاطفال اصحاء — اجابت ربة البيت في ارتباك وأضح الآن.

— هل المريضة انت؟

— لا، يا الكسندر دميتريفتش! تفضل بالدخول.

وما ان تركته يدخل الى المجاز امامها حتى قالت بصوت خافت:

— زوجي مريض.

— زوج؟ — سأل زيلينين مندهشا. — اسمحي لي...

كان يعرف ان هذه المرأة الممتلئة الشابة نسبيا أرملة. وازدادت دهشته حين رأى ابراهيم ينالييف وراء الستارة المؤردة.

كان ابراهيم يرقد مغمض العينين، وعلى وجهه تقطيبة الالم. جفل حين شعر بان الانظار متجهة اليه، وقعد على السرير فوقع بصره على زيلينين فصرخ بالمرأة:

– اذن فقد دعوته رغم ذلك؟ لماذاً لا تصغين؟ لماذا؟

– ماذا تشكو يا ابراهيم؟ – سأله زيلينين.

قالت ماريا فلاديميروفنا:

– يشكو من بطنه يا الكسندر دميتريفتش. اليوم كان يصرخ الما.

جلس زيلينين على السرير، ووجه لابراهيم اسئلة؛ وفحصه. وبعد انتهاء الفحص اقترح بان يدخل المستشفى. فنظر ابراهيم الى ماريا فلاديميروفنا، ثم الى زيلينين مرة اخرى.

– هل ستشق بطني؟

– لا.

– حسنا. سأدخل المستشفى.

خرج زيلينين من البيت مستغرقا في تفكير. كان يفكر مع نفسه: «اعراضه تشبه آعراض القرحة المعدية. يجب ان يلتزم بنظام خاص للطعام. فهل يطيق ذلك؟» وشغل مصير ابراهيم بال زيلينين اكثر

مما شغلته اعراض مرضه. وفي المرة الماضية حين فحص المتمارضين من العنبر الثالث ادرك ان انفعال ابراهيم كان صادقا. وكان ذلك بالنسبة لزيلينين اختبار انسان. وفيما بعد قال تيموشا مرة ان آبراهيم اخذ يعمل بشكل لا بأس به، كما يبدو انه ابتعد من شرذمة فيودور. والآن يتبين انه قد تزوج ومن امرأة يعتبرها الجميع قاطبة «ذات شخصية مستقلة». فمثل هذه المرأة لا تقبل بالزواج من صعلوك.

قلّص زيلينين عينيه في وجه الشمس، وظللهما بكفه. فرأى اينا تصعد المرتفع.

وتزحلقا سوية الى ان هبط الظلام، وعادا الى البيت يجرجران اقدامهما.

جلست اينا وزيلينين واقدامهما على التخت. ولا ضوء في الغرفة الا زجاجة الراديو المؤشرة عليها المحطات، والا سيكارة زيلينين.

وضعت اينا رأسها على كتف زوجها، كانا متعانقين ينتظران. حملت لهما امواج الراديو من موسكو انتظار الناس المتوتر في الصالة الكبيرة.

وتقع المعجزة. ويخيل اليهما ان انسانا مرهف الاحساس رائعا قد جلس بقربهما، ووضع على اكتافهما

يدين كبيرتين محدقا بعينين هائلتين تحتضنان العالم كله، وتخلبان العقل. ويعزف بيانو.

ويتذكر ساشا:

ضربة واخرى ثم لحن وفي الحال
تطوف عبارة شوبان الجنائزية
في الاكوان كالهالة البيضاء
كنسر جريح.

ــ نعم. ــ همس اينا.

ولا حاجة الى كلمات اكثر. الحاجة الى الصمت.

ولكن ساشا يهتف:

ــ يا الهي. اية سعادة في ان يكون للانسان ولو علاقة بسيطة بالفن! ولو ان يدفع البيانو على المسرح!

ــ اسكت! ــ تقاطعه اينا بذلك.

وينهض من جاء اليهما، ويتمشى في الغرفة المظلمة ويطل من النافذة، ويبسط يديه في استفهام صامت، ويهز قبضتيه في حنق، ويضغط يديه على صدره وكانه سيختنق من السعادة. واخيرا يختفي بعد ايماءة وداع مهيبة.

وتقول اينا بعد دقيقة:

— اتعرف يا ساشا أنني اعزف...

ادرك في الحال انها تعزف بشكل جيد. ما دامت قد تجرأت على ان تقول ذلك الآن، يعني، انها تعزف بشكل جيد.

— كم احب ان استمع الى عزفك!

بلا ابتسامة

كان ابراهيم يتمشى في حرش البتولا بانتظار زوجته. كان في قرارة نفسه يعترف بان هذه العلاقات الجديدة غير المألوفة له مع المرأة ما تزال تربكه، وتخجله امام الناس. ولهذا كان ينتظرها دائما في حرش البتولا قرب المستشفى. سار جيئة وذهوبا في الدرب وقلق وتذكر كيف كان، قبل سنين كثيرة وفي الحياة الاخرى، يتمشى في شارع الكورنيش في مدينة باكو، وهو فتى في الثامنة عشرة، ويعاني نفس هذا القلق.

وبغتة رأى شخصا يقترب منه في مشية منفرجة. كان ذلك فيودور بوغروف. صاح في فرح:

— مرحبا يا ابراهيم! — وربت على كتفه.

اجاب ابراهيم في حذر:

ـ مرحبا، اذا كنت لا تهزل.

ـ كيف تتعالج هنا؟

ـ احس بتحسن قليل.

دفعه فيودور نحو مصطبة، ومسح الثلج بقفازته، وأخرج زجاجة فودكا من جيبه، وبسط جريدة لفت فيها قطعة من الجبنة، وخيار مملح.

ـ نخب شفائك يا ابراهيم؟ مصّه!

تنحى ابراهيم.

ـ لا، لا. انا التزم بنظام خاص للأكل يا فيدكا.

ـ ماذا؟

ـ نظام خاص. لا يجوز ان آكل شيئا: لا خروف ولا رنجة، ولا فودكا. لا يجوز اي شيء من هذا. منعني الدكتور.

تجهم فيودور.

ـ تصغي لهراء الطويل الاذنين ذاك!

ـ لا يجوز اي شيء، ـ كرر ابراهيم وقال في اهتمام ـ عندي قرحة في الاثني عشري.

ـ هكذا! ـ قال فيودور في عداء ساخر ـ كما تريد. نخب صحتك!

ودفع رأسه الى الوراء. وجرع الفودكا. وقضم الخيارة بتلذذ. بلع ابراهيم لعابه في عذاب، وانتزع زجاجة الفودكا من يد فيودور. بعد خمس دقائق كانا جالسين على المصطبة يضع احدهما ذراعه على الآخر، ويغنيان اغنية غير معروفة «في غابة مظلمة فظيعة». كان ابراهيم ثملا حقا بينما كان فيودور يتظاهر بالسكر، ويردد الاغنية ويحرك عينيه بمكر. وبغتة سمعا اصواتا وضحكا. كان رجل وامرأة قادمين في الدرب من جانب البحيرة يحملان عدة التزحلق. وبعد دقيقة عرفا الطبيب وزوجته. كانت اينا تقص شيئا في مرح بينما امسك زيلينين بطنه، وقهقه غاصا بانفاسه. ولو لم تلكزه اينا لمرّ بابراهيم وفيدكا دون ان يلحظهما. توقف الطبيب ومسح نظارته، وحدق في أبراهيم الذي كان جالسا بلا حراك.

— اذن عندك ساعة كوكتيل؟ — غمغم زيلينين ثم صاح: — الا تخجل يا ابراهيم! فودكا وخيار مملح! طعام لا بأس به لمصاب بقرحة! انا متأسف جدا! ولكن يجب ان اطردك من المستشفى لمخالفتك للنظام. اما انت — وتحول الى فيدكا — ارجو ان تكف عن المجيء الى منطقة المستشفى.

قال ذلك وكأنه لم تكن بينه وبين فيدكا اية علاقة معينة. وصمت بوغروف دون ان يتحرك من مكانه.

وضحكت اينا حين ابتعدا بضع خطوات:

– يا لك من دكتور صارم! أحقا انك ستطرده؟

قال زيلينين بصوت خافت:

– اينا، ان ذلك الرجل الذي كان مع ابراهيم هو عدوي اللدود.

كان في صوته شيء حمل اينا على ان تعود الى الجد حالا:

– من هو يا ساشا؟

– قاطع طريق.

– ما علاقتك به؟

– لم ارد ان احدثك في هذا...

توقفت اينا، وامسكت بلفاح الكسندر وقالت قلقة:

– يجب ان اعرف كل شيء.

– حسنا. انت تعرفين داشا غوريانوفا؟ ان فيدكا مغرم بها، وكان يظن انني ايضا... قفي ما دمت قد تحدثت فلاتحدث لك بكل شيء.

سألت اينا بلهجة في غير مبالات:

ـ وهل كنت مغرما بها حقا؟

ـ لا. ولكن بدأ لي ذات مرة ان شيئا بيننا قد نشأ. انت تعرفين ان الانسان يصعب عليه احيانا ان يفهم مشاعره، ويصنفها: حب وصداقة، وكره الى آخره. وهكذا بدا لي خلال فترة قصيرة انني احمل لداشا ليس مجرد شعور الصداقة بل شعورا دافئا.

فقاطعته اينا:

ـ أكان ذلك في الفترة التي اخذت تصف فيها الطبيعة في رسائلك؟

ـ نعم، في تلك الفترة تقريبا.

ـ في الرسائل الاخيرة؟

ـ نعم. ولكنك كنت بعيدة جدا! وفي الحقيقة انني لم اكن اعرفك تماما ـ قال ذلك وفكر هل يخبرها بما حدث في بيت حارس الغابة. لا. ليست له الشجاعة على ذلك الآن. سيحدثها فيما بعد. ربما بعد عام.

قاطعته اينا قائلة:

ـ كف عن الكلام. لست حمقاء!

قال زيلينين مواصلا حديثه:

ـ وهكذا كرهني فيدكا أولا لأنه اعتبرني منافسا، وثانيا لانني كشفت انه متمارض، وثالثا لانني لكمته

ذات مرة. وهو الآن يكرهني لكل شيء: لانني طبيب، لانني البس نظارة ولان الناس يحبونني هنا.

— وهل انت غير خائف يا ساشا؟

— كنت خائفا. اما الآن فلست ادري لماذا يبدو لي ان فيدكا نفسه يخافني. ربما ذلك اعتداد بالنفس زائد.

وانحرفا عن الدرب، وقطعا الخطوات القليلة الى البيت صامتين، رافعين اقدامهما من الثلج بصعوبة.

— على اية حال لن اتراجع امامه خطوة واحدة! — صاح زيلينين بحماس، ونظر الى اينا متوقعا ان يرى ابتسامة، ولكنه لم ير.

... حين غاب زيلينين واينا عن مدى البصر قفز ابراهيم، وأخذ يشتم باللغة الاذربيجانية همسا. قال فيدكا:

— ماذا اثارك؟

كان يجلس بادي الكدر وعقا متكورا حزينا. وقد تحطم شيء في نفسه. واختفى الشاب الحاذق. وبسبب وضعيته هذه او لشيء آخر ذكر الآن فيدكا ابراهيم بجاره في العنبر سوتشوك اللص العجوز الذي كانت رائحة الدهن الكريهة تفوح منه دائما.

قال ابراهيم في اسى:

ـ كيف ماذا اثارك؟ ضاع نظامي الذي التزمه في الطعام كليا! كم اريد ان تأتي زوجتي في وقت ابكر! سنتوسل الى الدكتور. اما انت يا فيودور فارجو ان لا تأتي الى هنا. اذهب الى الشيطان!

ـ آها، ايها السنّور النتن! ـ قال فيودور ذلك بكل غيظ، وبصق عند قدمي ابراهيم، وانصرف.

سار في الشارع المقفر، ونظر آلى الانوار الدافئة تحت السقوف البيضاء الحادبة، وشعر لأول مرة في حياته بالوحدة والتعاسة. ولأول مرة رغب في ان يهرع الى مكان ما، ويدفن وجهه في حضن، ويسكب عبراته. لقد جاء الى موقع البناء هنا لغرضين: ان يتزوج محبوبته، التي كان مغرما بها منذ زمن بعيد، وان يجمع حوله جماعة معتمد عليها لايجاد «عمل حقيقي» في لينينغراد. ولكن داشا لا ترغب في رؤيته، واصبح الفتيان جميعا اطهارا وحتى اولئك الذين كانوا يشربون بفرح على حسابه يديرون له ظهورهم الآن وكأن ذلك هزءا به. جرذان، وأغرآر! يريدون ان يكونوا طليعيين وان تكتب اسماءهم على لوحة الشرف الحمراء. يفتحون افواههم ويصغون الى وعظ الكبير

الاذنين ذاك. والشيء الرئيسي ان فيودور لا يحس بما كان يحس من قبل. تحطم شيء فيه. غريب انه اصبح يخاف من ذلك الكبير الاذنين! لا يستطيع ان يصفي حساب حادثة النادي معه. وابسط شيء ان يحرك يده ويضرب به على وجهه. ستتطاير شظايا نظارته! او يدغدغه بسكين مطواة! لا يستطيع، تأخذه الرجفة، يستولي عليه الذعر. ولكن افكار الليل الجنونية، تسلب الطمأنينة منه. ويريد ان يبكي في الليل كما يريد الآن. وكأن هاجسا يهمس له: «انت احمق يا فيودور. ان الحياة تمر بك راحلة! وتبقى وحيدا كالبومة». ويريد ان ينزوي، يختفي في ركن مظلم ويستلقي هناك حتى تجره الى النور يد طيبة كبيرة.

ترامى الى الحاضرة ضجيج خافت قادم من رأس ستكلياني. وسار فيودور بوغروف على الدرب الخشبي المتجمد منكمشا. كان يخاف من ان يرفع رأسه، وينظر الى فوق حيث يسبح القمر العديم الرحمة.

وحين وصل آلى بيته الفارغ غير المدفأ شتم واخرج علبة فارغة مسودة بالسخام، وافرغ فيها كمية كبيرة من الشاي، وفوّر شايا قويا. والشاي القوي دائما كان في عونه اكثر من الفودكا. دبت القوة في جسمه،

واختلج قلبه غبطة وتهيجا، وتملكته الرغبة في ان يتعارك. وليقع الآن في يده ايا كان. أهوه! وسار فيودور من ركن الى آخر، وهدر، وغنى، وضم قبضتيه.

قبل اسبوع كان قد بلغ الثالثة والعشرين من عمره.

... قال ابراهيم لاينا:

ـ اينوتشكا، بلغي شكري الى الدكتور رجاء. لن اشرب الفودكا بعد الآن. سأراعي نظامي الخاص في الاكل. وسأتعالج. فانا رب عائلة، وعندي اطفال صغار. وسأعيش!

التسبيح الليلي لشوبان

يوم الأحد جرّ زيلينين اينا معه الى النادي. قالت له متوسلة:

ـ اذهب وحدك يا ساشا. من الافضل ان ابقى في البيت لاطالع. اليوم وصل العدد الجديد من مجلة «نوفي مير» («العالم الجديد»). والله لقد ضجرت من هذه النوادي وانا في موسكو! اليوم اريد فقط حياة

ريفية هادئة ـ ثوب البيت الفضفاض، وشمعة ايقونة، ورواية فيها افكار جريئة. اريد ان اكون تاتيانا*.

قال زيلينين:

ـ فات آوان ذلك. انت الآن «منذورة لشخص آخر، وستكونين وفية له الدهر كله»**. وهو اليوم يلقيك في دوامة التسليات الدنيوية.

ـ وما برنامج اليوم؟

ـ في البداية محاضرة عن «كيف تتعلم ان تلبس بشكل جميل». ماذا بك؟

كانت اينا تهتز من ضحكة مكتومة.

ـ يا ساشكا، يا حبيبي الا يجوز ان تعفيني من الذهاب؟ ربما ساشعر بدوار فجاة؟

نشق زيلينين من انفه في تكدر:

ـ انت تضحكين في غير وجه حق! المحاضرة طريفة وتستعرض ازياء تشيكوسلوفاكية في المصباح السحري.

وفي الطريق الى النادي لم يصمت لحظة واحدة.

ـ انني يا اينا لاشفق على الناس. لدى غالبيتهم

---

* بطلة رواية «افغيني اونيغين» الشعرية لبوشكين.

** اقتباس من رواية «افغيني اونيغين» لبوشكين.

ذوق ولد معهم، واحساس بالتوافق. انظري اليهم وهم يعملون. لباسهم منسق كليا: ستر العمل، ومناديل الرأس بل وحتى جاكتات مبطنة. وفي يوم العطلة يتباهون خيلاء خاضعين لموضة سخيفة ويخرجون بمثل الاغوال. حذاء جلدي طويل متجعد ومعطف طويل ولفاح حريري ابيض يكاد يمس الارض. اما الفتيات فيرتدين فساتين لها حواشي القرون الوسطى وقبعات مثل المروحة، وحق الشيطان... شيء مؤذ. ولهذا قررنا ان نشن حربا من اجل الذوق السليم.

– ومن «نا» هؤلاء؟

– أدارة النادي.

– وهل انت في الادارة ايضا؟

– بالطبع! انظري يا اينا. وعلى هذا اعلنا الحرب.

واشار الى نافذة بيت لاح وراء ستارتها المفتوحة كلب من الطين له وجه منشرح بشكل مخيف ملوّن بالابيض والاحمر والازرق.

كان الجو في النادي مكتظا صاخبا مرحا. ربّت بعض الناس على كتف زيلينين، وصافحه آخرون وصاحوا: «مرحبا يا ساشا!» «السلام يا الكسندر دميتريفتش». وتقدم منه بوريس وتيموشا. قال بوريس في صرامة:

— اختزلتما حفلة الزفاف، أيها الطفلان.

قالت اينا:

— لا، البتة ستكون حفلة الزفاف مع حفلة وداعي في وقت واحد.

فغمز بوريس تيموشا في مرح وقال:

— انهما يريدان الاقتصاد في النفقات. ليكن في علمك يا تيموشا!

قال تيموشا بصوت عميق:

— وماذا في ذلك؟ انهما ربا عائلة!

أجلس زيلينين زوجته في الصف الأول وقال ان عليه الآن ان يقوم بنشاط شديد وراء الكواليس. فسألت اينا هل هو الذي يوجه الرقص في النادي:

— اضمامة ورد في عروتك، ومفرق مستقيم. وتنادي: أيها الفرسان، ادعوا السيدات الى الرقص! هذه أول جولة. يا للفتنة. ان ذلك يناسبك.

ضحك زيلينين في عصبية، واختفى. وازاح شخص الستارة. ورأت اينا لجزء من الثانية، زوجها يتحدث في حمية الى داشا غوريانوفا التي كانت ترتدي اعرض فستان يصل الى الارض واكليل رأس فكانت تشبه الدمية الروسية. وانتفض قلبها وتحرك في داخلها شيء

غير مريح وفكرت: «خداها متوردان للغاية، لا شك في انها تدهنهما». ولكنها ضحكت من نفسها في الحال وزفرت: «آه، سخيفة!» — وأخذت تراقب المسرح.

واستمع الناس الى المحاضرة باهتمام مؤدب، ولكن حين بدأ عرض الصور في المصباح السحري ترددت ضحكات في القاعة.

— لن البس طوال عمري مثل هذا المعطف القصير! — اعلن ذلك رجل ملتح جالس وراء اينا ناظرا الى شاب ظهر على الشاشة في معطف قصير يصل الى ركبتيه.

— انها نزعة شائعة — قالت المعلمة المحاضرة من على المسرح بوقار — هي الاعراض عن الالوان الصارخة، والتحول الى آشكال بسيطة ومريحة من اللباس.

— انت لا تفهم النزعة يا تيخون! — همست امرأة في ضيق. وهي كما يبدو زوجة الرجل الملتحي.

نظرت اينا من طرف عينها فرأت عينيها الجادتين الثاقبتين.

وبدأ برنامج الرقص والغناء بعد المحاضرة. كان زيلينين يظهر على المسرح بين الحين والآخر. ويقوم بدور عريف الحفلة، وبعد ان لصق لحية صغيرة على وجهه قام بدور بروفيسور هو أب لابن فاسق.

وانشد اشعارا بنمرة انفرادية. وبدت قامته طويلة بشكل مفرط وهو على المسرح الصغير فكانت مضحكة في حد ذاتها. الا ان المشاهدين، وقد استغربت اينا لذلك، ضحكوا حين كان هناك موجب للضحك، وصمتوا حين كان هناك موجب للصمت. وفجأة احست اينا بالفخر بزوجها. وكانت قد عرفت منذ وقت قصير فقط ان المسرح هو ولعه السري. وقص عليها انه منذ السنة الأولى في المعهد اعتبر نفسه ممثلا لسبب لا يدريه واخذ يتردد على المسارح، وقام بدور كمبارس، وسحب الديكورات على المسرح، بل وعقد العزم ذات مرة على ان يهجر المعهد الطبي ويدخل معهد المسرح. وابتسمت اينا وفكرت بانه مبعث فخرها ليست نجاحات زيلينين على المسرح مطلقا.

انشد زيلينين شعرا، وعزف تيموشا على الاكورديون الحان فالس حالمة، وغنت داشا طقطوقات. وقام بوريس وفتاة نحيفة وصفوها من صفوف خلفية بانها عاملة خرسانة، بمشهد بهلواني. وفجأة تقدم زيلينين من حافة المسرح وقال بصوت جهوري:

– النمرة التالية هي التسبيح الليلي لشوبان...

- هذا ممتع جدا! - قالت اينا في سرها.
- ... تعزفها اينا زيلينينا.

لم تحزر في الحال من يقصد بذلك، وحين عرفت تأوهت وانتفض قلبها. وبعد ثانية استبد بها الغضب الشديد على ساشا وضربت الارض بقدمها، وتلفتت. ولكن القاعة كانت تصفق في مودة والزمتها على النهوض. ولم تتذكر كيف ارتقت خشبة المسرح، وكيف جلست الى البيانو. وللحظة التمعت ابتسامة زيلينين المعتذرة، فهمست له اينا:

- لن اغفر لك هذا ابدا.

وفيما بعد ذلك لم تر آلا مفاتيح البيانو. ثم اختفت المفاتيح هي الاخرى، واخذت ترى ما لم يره احد غيرها. وفجأة انبعثت الى الحياة بلاد كانت تعرفها هي وحدها. ونسيت اينا تماما ان مائتي عين غريبة تنظر اليها، ولم تفطن قط الى ان الشخص الطويل النحيل في بدلة سوداء كان واقفا بين الجمع ممتقعا انفعالا شادا قبضتيه. وافاقت على عاصفة التصفيق وانحنت في ارتباك، وركضت الى وراء الكواليس. وسار زيلينين في اثرها ذارعا المسرح كله. وتمتم لها:

ـ هل انت غاضبة؟ ارجو ان تفهمي يا اينوتشكا...
ـ كفى! ـ قالت هي وجلست على مقعد مولية له ظهرها.

استدار ساشا حول المقعد، وجلس على الارض امامها. وقال في تضرع:

ـ اعذريني! كنت اود كثيرا ان اسمع عزفك. ربما لا تتاح فرصة آخرى. ثم... ـ وصمت قليلا واشار برأسه الى القاعة ـ هل لا يستحقون سماع شوبان؟

ـ تعال الى هنا ـ قالت اينا بصوت اجش. وحين اقترب جرّت اذنه بقوة، وضحكت. فصاح زيلينين في سعادة:

ـ انا احبك الآن مائة مرة اكثر!

الوداع... كيف يستطيع الناس ان يتحملوا ذلك؟ كيف يمكن تبادل النكات والضحك قبل خمس دقائق من الفراق؟ لماذا صار الناس يهلعون من الدموع؟ ان البكاء اسهل على النفس من الضحك عند الوداع. ان الوداع شيء غير انساني. ومصباح قطار مورمانسك السريع ينبعث من الظلمة ويشق الحب شطرين. لي ولك نصف قطعة نقود للذكرى. الثواني الاخيرة حين

يتوقف المزاح انما هي اخوف اللحظات. عندها يجب ان تكبح نفسك قدر ما تستطيع.

– زوري ابويّ العجوزين بالتأكيد!

– بالتأكيد! وارسل لك برقية من موسكو.

– لطيف اينا!

– ماذا؟

– تجلدي يا عزيزتي. قريبا نحن!..

– قريبا؟

– الوقت يمر بسرعة.

– حان الوقت. وداعا!

وانتهى كل شيء. وفي ممشى القطار تتدلى اقدام بجوارب صوفية، وجوارب من الكابرون.

«البستوني... والسباتي». وشخير وتمطق. وتبدأ كلمات اخرى تتخلل الحزن الكدر المخيم على الدنيا كلها: «ماذا؟ فراش؟ نعم. بالتأكيد. لا توجد عندي نقود صغيرة. شاي؟ تفضل. قدح واحد».

والظلمة وراء النافذة. وكأن القطار يهدر ويهتز في بقعة واحدة. ولكن انوارا نادرة تظهر في الليل، وتبتعد الى الخلف مسرعة مثل شرارات من مدخنة القطار، مثل آخر كلمات الوداع.

الفصل العاشر

في مارس تصدر القرارات

في اجتماع كومسومولي للدائرة الطبية الصحية نوقشت قضية الطبيب الكومسومولي ستولبوف. امتلأت القاعة الصغيرة للغاية بالممرضات ومستخدمات المختبر والسواقين، وعمال التطهير والاطباء الشبان. منذ دقائق فرغ ستولبوف الذي اتهم باساءة استغلاله لوظيفته وبالرشوة من الادلاء بافادته. ساد الصمت القاعة، لم يستطع الحاضرون ان يتخلصوا بعد من شعورهم المشترك بالرثاء الاحتقاري. لقد كان هذا الفتى الضخم يتصرف الآن مثل نشال لم يبلغ بعد الرشد، كان يتحايل تارة، ويتذلل اخرى ناطقا بعبارات عن الاشفاق، ثم يتوقح فجاة وكأنما بفعل قوى عفوية ويقهقه ويصيح في تحد. ولما نضب رصيده من الكلمات وجلس كان مظهره معذبا مطاردا، وحتى نظرته كان فيها قليل من الانسانية. وعلى اية حال كان النظر اليه يثقل على النفس. وكان الكسي وفلادكا ممتعضين بشكل خاص. فقد كانا يعرفانه

اكثر من الجميع: فان ستولبوف، على اية حال، كان زميلا لهما في المعهد طوال اعوام ستة. اما لسائر الحاضرين فقد كان بيتيا ستولبوف مجرد مرتش. واخيرا سمع صوت من فوق منصة الرئاسة:

— هل هناك من يريد الكلام ايضا؟

نهض الدكتور دامبفر ممثل المكتب الحزبي. واغمض عينيه الى النصف كما هي عادته، وصار وجهه يشبه قناع راهب. وبدأ يتحدث:

— ايهـــا الرفـــاق. لقد عرفتم الآن قضية الكومسومولي ستولبوف بحمية ومبدئية. وقد كشفتم التفاصيل ولكن دون ان تفكروا بان ذلك ليس هو الشيء الرئيسي. ان التفاصيل من شأن قسم النضال ضد سرقة الملك الاشتراكي. ولكن المهم شيء آخر هو كيف وصل كومسومولي وهو اخصائي شاب الى مثل هذه الحياة؟ هل انه فسد في دائرتنا بغتة؟ هنا يوجد بعض الاطباء الشبان زملاء ستولبوف في الدراسة في المعهد. اغلب الظن آنهم يتذكرون الآن سلوكه ويحاولون ان يتوصلوا الى استنتاج بشأن هذا العمل الفظيع. لا اعرف ماذا يتذكرون. ولكنني اطلعت على اوراق ستولبوف الشخصية، والشهادات

المختلفة التي اعطيت له، وقد تكونت امامي صورة بطل مثالي لعصرنا الحديث: «متواضع، صاحب مبادرة، منتبه، متعلم سياسيا». لقد دخل الكومسومول منذ السنة الثانية من المعهد. وددت لو كنت حاضرا اجتماع اللجنة الذي قبل فيه ستولبوف عضوا في المنظمة، لاسمع عم تحدثوا معه واية اسئلة وجهوا اليه.

سعل كاربوف في القاعة.

— ماذا؟ — سأل دامبفر واضعا راحة يده وراء اذنه في اهتمام.

— لا شيء — تمتم كاربوف في ارتباك — سألوه عن النظام الداخلي فقط.

— هكذا! — هتف دامبفر في فرح ورفع اصبعه الى فوق — هذا ما يحدث ايها الرفاق. لا يحتاج المرء الا الى استظهار النظام الداخلي حتى تنفتح امامه ابواب الدخول الى اتحاد الشبيبة الشيوعي. لم يهتم احد آنذاك بمشاعره الحقيقية وبافكاره، وبآرائه الخفية في الحياة. وانا لا اريد ان الزمكم بقرار الآن. ولكنني اريد ان ادعوكم الى الاخلاص في قضاياكم الكومسومولية.

وجلس دامبفر، ولكنه نهض ثانية في الحال، وبحث عن ماكسيموف ببصره.

– اريد ان اتحدث ببضع كلمات اخرى عن كومسومولي آخر.

جمد ماكسيموف وشدّ قبضتيه.

– عن الطبيب الكسي ماكسيموف. ان المنظمة الحزبية تعرف انه تعرض من جراء هذه القضية للتهويل والتهديد. وقد افرحني فرحا عميقا وانسانيا انه هو وهو بالذات لم يخف من هذه التهديدات، وقام بواجبه ككومسومولي.

ولمعت عينا دامبفر فجأة. ولثانية تجمد على تلك الحالة غير المعتادة له. وفكر ماكسيموف: «سيكون ساشا زيلينين بهذا الشكل في شيخوخته». ثم اغمض دامبفر عينيه واطفأ اللمعان. وضحك الكسي وقال لفلادكا:

– يتصور العجوز ان موعظته اثرت فيّ!

لم يجب كاربوف بشيء، ومدّ اليه قصاصة ورق. وكانت مذكرة من فاليا سكرتيرة الرئيس.

«ايها الولدان، انتما مدعوان الى الحضور الى قسم الملاكات في الساعة الخامسة. سيبت في القضية».

... لماذا يجب الناس ان يبتوا في الامور في شهر مارس بالذات؟ هل هو تأثير الهواء ام عبق الربيع؟ في مارس يتأوهون ويتصفحون اوراق التقويم. في مارس تجري الاستعدادات للابحار، ويقتحمون خطة أول ربع من العام. في مارس تستخلص النتائج، وترقب التبدلات. في مارس تصدر القرارات.

- نعم، ايها الرفيق ماكسيموف، نحن موافقون. فماذا تقول؟

- موافق.

- قالت كبيرة الاطباء انك تريد ان تبحر على...

- نعم، على باخرة «نوفاتور» اذا كان هذا ممكنا.

- مفهوم انها تحت وصايتك. يا تروفيموف، انظر اين «نوفاتور» الآن؟

- «نوفاتور»... «نوفاتور»... هذه هي. ابحرت من كلكوتا الى فلاديفوستوك. وستبقى هناك لاجراء تصليح صغير.

- املأ الاستمارات، ايها الرفيق ماكسيموف، وتسلم فلوس الطريق. رحلة ميمونة!

- شكرا لكم. والى اللقاء.

وبينما كان يهبط السلم صاح فجأة «اهوه!»

وقفز خمس درجات الى الارضية في الاسفل. وابتعد عن طريقه شخص، وادار له آخر اصبعه على صدغه. ولكن الكسي نسي كليا «هدوءه البارد» واندفع نحو المخرج تستحوذ عليه الرغبة في ان يعدو خببا.

في مدخل بناية ادارة الملاحة اندفع نحوه فلادكا زاعقا.

وتبين ان فلادكا يجب ان يستقل الباخرة في مورمانسك.

احدكما يذهب الى الشمال
والآخر الى الشرق الاقصى —

غنى فلادكا ونظر الى صديقه في انفعال.

ونظر ماكسيموف اليه، وفجأة شعر بالم. ان التدخين مضر بالصحة. ذلك صدق. ولكن ما اكثر ما تسعف السكائر الرجال. حقا ان اعواد الثقاب تنطفئ احيانا دون جياء.

— ماذا تظن؟ هل سيعطوننا اجازة اسبوع دون اجرة قبل الابحار؟

ويهتف كاربوف:

— نطير الى ساشا. صحيح؟

اجتماع الشمل من جديد

كان ماكسيموف يراوح قرب عربة القطار، ويتطلع الى ساعته والى الحشد. واخيرا لمح في نهاية الرصيف شخصا رياضيا مألوفا له يتنكب اسكي. ومشى كاربوف مرحا منشدا نشيدا طلابيا.

وضعا عدة التزحلق والحقائب الظهرية على الرف الاعلى، وتحرك القطار. وخرج ماكسيموف الى فسحة العربة.

فتح باب العربة فاندفعت دفقات الهواء القارس الى الفسحة، وشملته من الرأس حتى القدمين، وللحظة بدت وكأنها رفعته آلى فوق. ما اغرب ما تبدل السرعة من اشياء! هذا صف نحيف من اشجار الحور الرجراج والبتولا يلوح ثم يختفي الى الخلف، ووراءه تتدلى الشمس مثل عين حمراء لجنرال يستعرض جنوده. وما ان تنقل بصرك حتى تجد اشجار الحور الرجراج والبتولا واقفة في مكانها، والشمس بملازمتها القطار تخترق سياج الاغصان في اندفاع مثل حيوان ضار جريح. وحين تدير رأسك الى زجاج الباب المفتوح تجد جميع بهرجة الالوان -

الاحمر والابيض والازرق والاخضر والبرتقالي – جميع هذا الخليط المجنون يندفع الى مكان ما يسارا. وللحظة يلوح لك وكأن الفضاء ينشق شطرين مثلما ينشق المنديل الممزق، ولا يبقى في الوسط الا انت انسانا مصعوقا لا حراك به. ولكن ذلك للحظة واحدة فقط. فان الانسان خلق بشكل رائع: انه قادر في آية لحظة ان يرى الاشياء كما هي. فليست الشمس عينا ولا حيوانا، بل نجم في حجم متوسط. والارض تدور حول الشمس وحول محورها. واشجار البتولا والحور الرجراج ثابتة في اماكنها. وهذه الالوان المندفعة جانبا هي صورة للغروب الشتوي غير واضحة لان الزجاج مغطى بالجليد والسخام. والقطار منطلق في الفضاء بالفعل بمعدل خمسين كيلومترا في الساعة. وبين ركابه الاربعمائة شخص يفكر في هذه اللحظة: هل هو سعيد ام شقي؟

لم يكن الكسي في يوم من الايام سعيدا سعادة كلية. كان دائما ينقصه شيء. سيطير قريبا الى فلاديفوستوك ثم يرى البحر والمناطق آلاستوائية، وسيعمل (وفق وصاياك ايها الاب الغالي والمعلم دامبفر) وينظم الاشعار، ويمارس التصوير الشمسي،

ويحلم باللقاءات. أهذه سعادة؟ نعم. ولكن فيرا...
هل كان سعيدا لو كانت علاقته مع فيرا على ما
يرام؟ امر مشكوك فيه. اذن لوجد شيئا آخر
ينقصه. فليس في مقدور الانسان ان يكون سعيدا
سعادة كلية، لانه يجب ان يرقى.

رمى ماكسيموف عقب السيكارة، وصفق الباب
ووقف ثانية في غسق الفسحة الضارب الى الحمرة،
ثم دخل الى العربة. ورأى جمعا من الناس يحتشد
حول مكانهما، وسمع عزف قيثار. وكان كاربوف يغني
«فتى من بيتروغرادسكايا ستورونا». وقد جلست
الى جانبه امينة العربة وهي فتاة بدينة ذات شعر
كتاني وعينين زرقاوين.

صاح فلادكا:

– يا ماكس! التفت الى هذه الطفلة من اهل
شاطئ البحر! فتاة شمالية. هل اسمك سولفيغ؟

– آه، يا لك! – وتوردت الفتاة وركضت.

... لم يكن لمحطة القطار الريفية الصغيرة رصيف.
شد الشابان حقيبتيهما الظهرية على ظهريهما، وحملا
عدة التزحلق في ايديهما، واخذا يقفزان الى الاسفل
مثلما يقفز جنود المظلات من طائرة. لوّح لهما من

العربة اصدقاء جدد بايديهم ونادوهما. انهم عمال مناجم من الدنباس مرسلون الى العمل في جزيرة شبتسبرغن. وعلى مقربة وقفت امينة العربة تحمل علما اصفر. نظرت الى المسافرين المرحين بحزن وهما يقفزان دون ان يلتفتا اليها. هكذا يحدث دائما.

تحرك القطار، وتوالت ضربات عجلاته على السكة، ومد رأسه في الغابة، وصفر مودعا، وبصبص بذيله واختفى. واندفعت في اثره سحابة ثلج. تلفت الصديقان. كان على مقربة من مبنى المحطة الخشبي زهاء ثلاثين بيتا ترسل مداخنها سحبا صغيرة من الدخان الازرق. وكان خط آلافق متكسرا: ان غابة من الاشجار الصنوبرية تنبسط بكل عظمتها في كل مكان حولهما. وثمة درب مطروق يمتد اليها.

اسبل الصديقان قبعتيهما، وتنكبا عدة التزحلق، وسارا نحو المحطة متزلقين في حذائيهما الثقيلين. ودخلا المشرب في ضجيج، وايقظا نادل المشرب الذي كان يهوم وراء الحاجز. وكانت تلوح من تحت مريوله الابيض سترة مبطنة قذرة، وعيناه تومضان وميضا ضعيفا في وجه لم يحلق منذ اسبوع. وكانت في المشرب

آثار ذباب. وخلف الزجاج بعض زجاجات الشمبانيا. وعلبتان او ثلاث علب من الطعام المعلب.

– من اين والى اين ايها الشابان؟ – قال نادل المشرب وغمز في ريبة.

– نحن، يا جد، من رأس تشاستايا بيلا – اجاب ماكسيموف.

– ها. وكيف الحال عندكم؟

– ماذا؟

– كيف حال البضائع الصناعية هنا؟

– روعة! – اغلِ لنا يا جد قدحين من الشاي وزن لنا نصف كيلو من السجق. متى سيأتي الباص الذاهب الى كروغلوغوريه؟

ذكر النادل ان الباص لن يأتي قبل ساعة. وسيمكث هنا نصف ساعة ثم يعود.

– الطريق هنا وعرة. وفي كروغلوغوريه كل شيء جيد. وهناك زبدة وسكر بانتظاركما! كل شيء يأتي عبرنا، ويتجاوزنا اليهم. هناك يجري بناء.

واستقر رأي الشابين على ان يتزحلقا بالاسكي في الطريق حتى يلحق بهما الباص.

... قضيا اكثر من ثلاث ساعات في السير بالاسكي، والغابة ما تزال بلا نهاية. كانت اغصان اشجار الشوح تتدلى فوق خط الاسكي بمهابة. شوح، في كل مكان شوح... فصيلة جبارة في فراء اخضر ثري له حواش من الزغب الابيض، وفي وسطها اشجار الحور الرجراج والبتولا متثلجة مثل اقارب لها فقراء. وبين مسافة واخرى تهبط الغابة في تجاويف ارضية في قعرها جداول متجمدة. وحينذاك كان فلادكا الذي يسير في المقدمة يسرع في تزحلقه، ويميل جانبا، ثم يبدأ بالانحدار الى الاسفل.

تعب الكسي كثيرا. وكان اقل من كاربوف مقدرة على التزحلق. تعب من الجري والسكون المطبق، واوحشه القفر حين لاحت في خلفية الخضرة الصنوبرية المتماسكة رقعة محطة الباص الحمراء الصفراء – بطاقة الحضارة.

– كفى! – قال ماكسيموف وغرز العصوين في الثلج – ولتغمرني العاصفة بالثلج. و«آخبر زوجتي بكلمات الوداع» . – واتكأ على العمود بشعور مريح. وكان الناس قد قطعوه ونحتوه، وركزوه في الارض. اغلب الظن انهم تحدثوا ودخنوا حين فعلوا ذلك.

سأل كاربوف:

ـ هل تعبت ايها البطل؟ حسنا لنبحث عن بيت. ما دامت هنا محطة باص فلا بد من وجود بيوت في مكان ما.

ـ انا اشم رائحة ـ صاح ماكسيموف واضاف بهيئة جادة ـ رائحة دخان. حساء كرنب.

ـ رنجة مملحة! ـ قال كاربوف متوجعا.

ـ فودكا مفلفلة! ـ هتف ماكسيموف.

ـ وقد يكون سكان هذا المكان من ذوي القرون والذيول؟

ـ اراهن على حياتي! ـ هتف ماكسيموف بذلك.

وظهر من وراء المنعطف لوري مغلق الحوض. سار ببطء يغوص ويصعد في الاخاديد مثل زورق في موج متلاطم. لوح الشابان للسائق بالعصوات والقفازات. وحين اقتربت السيارة منهما فتح السائق الباب، وحدق بهما صامتا. سأل ماكسيموف:

ـ هل انت ذاهب الى كروغلوغوريه؟

ـ ذاهب الى رأس ستكلياني ـ وكان وجه السائق ينم على فضول مكبوت وصرامة رجولية.

ـ مع الاسف!

ـ لماذا؟ ادخلا وسأوصلكما.

وخرج من مكانه وتخبط في الثلج، وحين كان الشابان في الحوض سألهما في عدم اكتراث:

— هل جئتما للدعاية؟

— لا، نحن طبيبان.

— نعم! — قال السائق وكأن كل شيء اصبح واضحا له الآن، وكأنه قد الف رؤية الاطباء الذين يتزحلقون في الغابة ازواجا.

بدأ اللوري يتغلب على الحفر بشدة. وتقلب الشابان على اكياس غاصين بالضحك. وفجأة سار اللوري في طريق مستوية. زحف كاربوف الى الحاجز الخلفي، ورأى في الاسفل مقلعا هائلا، واكوام رمل صفراء، واناسا رائحين غادين، ولوريات، وبولدوزرات... اندفعت السيارة بسرعة جنونية، وبعد ساعة ونصف الساعة وصلت الى الحاضرة وتوقفت. وظهر وجه السائق الاحمر والسيكارة بين شفتيه. وقال:

— محطة «النزول». هل انتما ذاهبان الى ساشا؟

— ماذا؟

— اعني، هل انتما ذاهبان الى طبيبنا في المستشفى؟

— هل تعرفه؟

— ومن لا يعرفه!

قفز الشابان خارج اللوري.

ـ مكانه قريب من هنا . انصحكما بان تسيرا على الجليد. ان المستشفى يقع في حرش اشجار البتولا.

قدم ماكسيموف فلوسا له، الا أن السائق نظر الى الفلوس بطرف عينيه، والقى عقب سيكارته وسار نحو السيارة:

ـ آه يا اطباء! ـ تمتم بذلك وكأنه قد خاب ظنا.

وارتبك الكسي، ولفّ الورقة النقدية وحشرها في جيب كاربوف لسبب غامض.

كانت السماء فوق كروغلوغوريه صافية الا أن سحبا صغيرة نحيلة كانت تسبح كالزوارق مسرعة نحو الشمال وكأنها تحاول ان تلحق بقافلة جبارة من السفن تسير بنفس الاتجاه. وكانت هناك ريح شديدة تعربد، وتصفر خلال الاسلاك، وتميل اشجار الشوح، وتدخل المرح الى قلوب الناس. وكانت الشمس تتدلى وراء كنيسة قديمة مضيفة الغموض عليها. وكانت الاشعة المائلة تضيء مقبرة على رابية شديدة الانحدار لاحت الصلبان عليها وكأنها من صفائح قصدير، كأنها ترتعش في الريح.

سار الشابان على الدرب الخشبي متلفتين حولهما في اهتمام مثيرين فضول السابلة القليلين. حدق الناس فيهما وتهامسوا وراءهما. وحين تزحلقا على جليد البحيرة ركضت مجموعة من الاطفال صوب المنحدر.

... في تلك الساعة خرج زيلينين يتزحلق على الجليد. اصبحت هذه النزهات الفردية نظاما له. ولكنه كان يعاني حنينا عارما كلما نزل من الشاطئ. انقضى اكثر من شهر منذ رحيل اينا. الا انه لم يستطع حتى الآن ان يسلم بوحدته. والآن يذكره كل شيء بزوجته: الشقة والكتب والنادي والاسكي وكأنه عاش معها ردحا طويلا من العمر. كان يعمل في ذلك الوقت بشكل آلي، ونادرا ما يلتقي باصدقائه. كان يكثر في محاولته للخلوة بنفسه ليتذكر كلمة اخرى من كلماتها، ايماءة، نظرة. وعادت الرسائل والمكالمات التلفونية من جديد، هذه البدائل الاسيفة عن القرب. ونحف الكسندر، وصار يدخن دون انقطاع، ويطيل الجلوس في السكون، ويحلم ويتذكر.

والآن حين تزحلق على الدرب الذي شقته الاسكيات نظر الى قدميه، فرأى اسكيّ اينا الاصفرين بحواشيهما السوداء. توقف وخلع قبعته، ورفع وجهه للريح.

كان شخصان يسيران على الجليد بمحاذاة الشاطئ يحملان عدة التزحلق على كتفيهما. وقف زيلينين في الظل بينما سار هذان الشخصان على حافة الق ذهبي ملقين ظلين طويلين. انهما شابان لانهما يسيران في خفة، ومرحان: احدهما ربت على ظهر صاحبه فقرفص هذا لحظة وكأنه تلوى من الضحك. وليسا من سكان هذه الناحية لانهما انيقان للغاية (بنطلون ضيق، وقبعة لها ظليلة امامية عريضة، وسترة جلدية). انهما... وندت عن زيلينين صيحة اندهاش، وقذف بقبعته الى فوق، ودون ان يلقفها انطلق الى الامام.

... نهض كاربوف، وعدّل ربطة عنق وهمية، وأصلح عليه بدلة «الفراك» الوهمية، ونفض عن كتفه ذرة غبار باصبعه، وبدأ يلقي خطابه:

– ايها السادة! انت يا مضيفنا المبجل الكسندرو كروغلوغورسكي، وانت، يا اليوشا بوبوفتش*، يا شمس رأس تشاستايا بيلا، وماحق حشرات المخازن الغذائية الضارة، وأنا، خادمكما المطيع انبل

---

* بطل اسطوري روسي.

النبلاء واشجع الشجعـــان المعروف لدى الشعب بفلاديسلاف المعصوم! اطبق فمك يا ليوشكا! ادعوكما الى ان تظهرا نكران ذات وشجاعة، وتصرفا عيونكما الشرهة عن هذه المائدة التاريخيـة المثقلة بلحوم الخنزير المدخنــة، وسرآطين البحر وسمك الرنجـة والمصفوفة عليهـا زجاجات البورغوندي والكاخيتيني. ادعوكما، ايها السادة، ان تحولا ابصاركما الى الماضي، والى المستقبل على حد سواء. لان... الا تستطيع ان تترك احدا يتمم ما عنده من كلام؟

– اغلق الحنفية! – تمتم ماكسيموف مهددا.

– ايهـا الاصحاب، لنشرب نخب الصداقة – قال زيلينين بصوت خافت ونهض.

– فيفا! – صاحوا جميعا في آن واحد. وفكر كل واحد منهما كم هو لطيف ان ساشا خف لنجدتهما من جديد وقال ما كان في ذهن كل واحد دون ستار من المزاح.

... تحدث زيلينين الى ماكسيموف عن حياته. وخرج كاربوف الى الشارع لـ«يتبرد». قال الكسندر:

– ... كنت محقا في شيء واحد يا ليوشكا. يجب ان يعيش الانسان حياة ممتلئة، ويحصل على الحد

الاقصى من دورات الآلة. ولكن الشيء الرئيسي هو الى اين يوجه طاقته. انا لا اقول ان كل شيء قد اصبح واضحا لي. ولكنني ادركت انني سأعيش دائما بين الناس ومن اجل الناس. ان هذه الاشهر كانت لي بمثابة تجربة. أتضحك؟

– لا – أجاب الكسي.

– انني الآن احس بالوحشة وبالحنين الى اينا. ولكنني في بعض الاحيـان ارتجف وكأنمـا اصبت بقشعريرة احساسا بالسعادة. لا استطيع ان اشرح لك. فمن الصعب بوجه خاص ان اشرح لك هذا. اغلب الظن انك ستعود الى استهزائك بالكلمـات الرفيعة. وليس بوسعي ان اعبر عن هذا بكلمات غيرها.

– لست على حق في ان تظنني ساضحك. كنت اجرب انا ايضا طوال هذا الوقت، ولكن بطريقة اخرى. والآن يبدو انني آخذ بتعلم بديهيـات وقد تأخرت عن موعد تعلمها بعشر سنين. ان السخرية درع ملائم يا ساشا ومن الصعب التخلى عنه. ولكن لكل شخص، كما يظهر، ميقاته المرهون الذي سيدرك فيه ان المعتذر عليه ان يظل متفرجا. وانت سعيد لانك

دخلت كالمسمار المصومل في هذه الآلة المعقدة التي نسميها «الحياة». هل انا مصيب في فهمي؟

– نعم! – هتف ساشا. وقد هزّته كلمات صديقه بفرح. يبدو ان ليوشا اصيب بكدمات وهو يبحث عن طريقه. – كم انا سعيد يا الكسي لانك فهمت كل شيء!

قاطعه ماكسيموف في حدة:

– كفى! انا لم افهم كل شيء، واشك في انني سافهمه. في بعض الاحيان يستولي عليّ ذعر سخيف.

رد زيلينين بكمد:

– هذا يحصل لكل الناس. ولكننا نملك الشجاعة!

– وما نفع الشجاعة لنا؟ وما جدوى كل خصالنا الرائعة؟ في «ثورة الملائكة» لاناتول فرانس شخص يشعل عود ثقاب وينظر الى الشعلة الصغيرة ويفكر: ألعل في هذه الشعلة مليون مجموعة شمسية، وعددا لا يحصى من النجوم والكواكب حيث تنهض الحضارات، وتسقط، حيث تنقضي ملايين السنين؟ وبعد ثانيـــة تنطفئ الشعلة، وفي هذه العوالم كارثة كونية. أتسمع يا ساشا؟ ان هذا غير مفهوم بشكل يشل اليدين.

سمع ماكسيموف ضحكة دون آن يتوقع. كانت في

البداية مترددة، جشاء، ثم هادرة. قال زيلينين متقطع الانفاس:

ــ آه، ليوشكا. اذهب الى الشيطان! أتقترح ان يستلقي سكان الارض في هدوء، ويفكروا بجوهرهم ويذوبوا حسرات على اسرار الحياة؟

حاول ساشا لأول مرة في حياته ان يسخر من ماكسيموف. وكان ذلك شيئاً لا يصدق، الا ان ماكسيموف اكتفى بان سعل متحيرا وقال:

ــ سخافة، بالطبع، انا افهم ذلك بنفسي. انه شيء بليد ومضحك واناني بشكل مفرط. ولا يلائم روح العصر. ولكن ما العمل؟ في داخل نفسي يجري صراع.

وسمعا صوت كاربوف.

ــ ايها الحضريان التعسان! ــ ودخل واشعل عود ثقاب دون كلفة ــ ايها الحضريان! تأويان الى الفراش في مثل هذه الليلة!

ــ ماذا تقترح؟ ــ سأل ماكسيموف بلهجة جدية.

ــ اقترح ان نتجول ككوكبة خفيفة من الفرسان فيما حولنا ونغني اغنية ليلية لـ «ملكة الثلج». ثم نصطاد سمك من خلال ثقب في الجليد.

ـ فكرة صائبة ـ صاح الكسي، واخذ يرتدي ملابسه.

كانت ليلة اسطورية رسمت بالوان بيضاء مزرقة على خلفية سوداء. بهرت ابصارهم حين خرجوا الى مدخل البيت، وجذبتهم الى اعماقهـــا. وبعد دقيقة تعودت عيونهم فلمحوا رسم ضوء القمر التجريدي على الثلج ونثر النجـوم المتلألئ، وخطـوط البيوت. ونشق ماكسيموف الهـواء، وشعر برائحــة الربيع الغامضة التي لا توصف. واحس عمق الليل، ورحابة الارض واقتراب الربيع، ودنو الحب، والطريق البعيدة. واحس بشبابه وبقوته.

الزملاء

دخل زيلينين عليهما في الساعة الحادية عشرة صباحا حين كانا يتناولان فطورهما. وكان قد نهض على عادته في الساعة السابعة، وفرغ من دورته على المرضى. قال:

ـ مرحبا. ماذا تنويان ان تفعلا؟

ـ ماذا؟ نذهب للتزحلق.

ـ احسدكما. اما انا فعليّ ان استقبل المرضى.

– تعال! – غمغم كاربوف الذي لم يشبع نوما.
راوح زيلينين مرتبكا، وسعل وتنهد. وقال:
– عندي مرضى يثيرون الاهتمام الكبير.
– ناولني الزبدة يا فلادكا – قال الكسي.
– انتما لا تتصوران اية حالات مرضية معقدة!
– أهذا سردين؟ ناولني اياه.
– أنا واثق ان اي طبيب جدير سيهتم بمثل هؤلاء المرضى.
– السردين، ايها الرفيقان، يفضل ان يكون في قليل من الزيت.
– عندي مثلا ايفان كليماكوف.. تحليل بوله غريب جدا ولكن بلا اعراض كلينيكية تقريبا.
– صب لي شايا يا فلادكا. وليكن اقوى قليلا.
– بول غريب جدا – وتنهد ساشا في يأس.
– اسمع ايها المضيّف – قال كاربوف في استياء – هل يمكن ان تتحدث الآن عن الدزانتري ونحن نشرب الشاي؟
– ماذا تريد يا فارس؟ قل بصراحة – قال الكسي.
– اعتقد – ردد ساشا في حيرة ثم تدفق وكأنه استجمع شجاعته – ربما نتفقد المرضى سوية يا اولاد؟

لنقل انها استشارة اخصائيين من العاصمة. انت يا ليوشا اخصائي بالغدد الصم، فقد احرزت نجاحا في هذا المضمار. وانت يا فلادكا جراح واخصائي بالامراض البولية ذو كفاءة عالية.

صاح كاربوف:

– ما رأيك في هذه الوقاحة؟ يسمينا بهذه البساطة «ليوشا»، «فلادكا». أنا اعتبر هذا محاولة لاستغلال سائحين طارئين بشكل وحشي.

– ليس هذا صحيحا يا صديقي – قال زيلينين وقد اسقط في يده.

– في رأيي ان ذلك مسل – قال ماكسيموف.

– بالطبع – وعاد ساشا فرحا – مبهج بشكل هائل. يعني اتفقنا؟

– ومسألة الاجور؟ – سأل فلادكا وهو يغمز لالكسي. ورمش ساشا في ارتباك.

– الاجور؟ بالطبع سندفع. انا لم افكر بذلك – ولما فهم النكتة اجاب بلهجة فلادكا – سنفكر بشيء. ساذهب الآن الى المحاسب. ربما نأخذ من المخصصات للوظائف الشاغرة.

قهقه فلادكا.

- انا احب هذا ألابله ساشا زيلينين!

كانت الممرضات والمشتغلات الصحيات قد ارسلن الى الحاضرة ليجمعن المرضى. وسرعان ما تجمع في غرفة العيادة طابور «الحالات المعقدة». وفي الطريق واصل الصديقان مناكدتهما حول «العناكب القابعة في اعماق الغابة، والجاذبة الى شباكها...» ولكنهما التزما الجد حين دخلا غرفة العيادة، ورأيا المرضى. فالمسألة هنا لا مزاح فيها - والطب هو الطب. لبسوا المريولات البيضاء، وجلسوا امام المكاتب. نظر كاربوف الى داشا بعض الوقت مصعوقا، ثم تنهد بعد ذلك وانشغل بتواريخ الحالات المرضية. واسترجع ماكسيموف في ذهنه، بشكل محموم، كل معلوماته عن الغدد الصم. وكانت ابعد الاشياء عن مجال تفكيره اثناء عمله في الميناء.

كان زيلينين سعيدا. وكان يسمي صديقيه باسميهما الكاملين احتراما ويخبرهما بالتفصيل عن المرضى، ويعبر عن آرائه، ويلتزم الصمت باحترام حين يبدأ فلادكا او الكسي بالتقصي. ثم انغمروا فيما بين ايديهم، وتناقشوا في كل حالة حتى بحت اصواتهم،

وتوضحت اشياء كثيرة لزيلينين. فثلاثة عقول احسن من عقل واحد.

في ذلك اليوم فحصوا جميع الحالات المرضية المعقدة للمرضى الذين وفدوا من الحاضرة. ووضع زيلينين برنامجا لما سيفعلون فيما بعد: ان يطوفوا ثلاثتهم، على الكولخوزات المجاورة وبعثات الغابات ومواقع البناء متزحلقين بالاسكي. قال:

– سنجمع ما بين الممتع والمفيد.

– رحلات تشخيصية – قال ماكسيموف ضاحكا.

في اليوم الثالث من الوصول الى كروغلوغوريه كانوا عائدين من بحيرة غيم البعيدة. ساروا مقتفين آثار تزحلقهم على الثلج. ولذلك انطلقوا بسرعة كبيرة. كان كاربوف في المقدمة على عادته. والآخران وراءه يسيران بسرعة متساوية مكررين بدقة حركات يديه وخطواته السريعة. وفي صمت الغابة لم يكن يسمع الا صريف الاسكي وصرير سيوره، وانفاس المتزحلقين. وتتابعت الثغرات الزرقاء في جدار الغابة اكثر فاكثر حتى وصلوا الى رابية عارية شديدة الانحدار لاحت تحتها كروغلوغوريه في الضوء المنكمش. كانت الحاضرة وهي محاطة بمنبسط ثلجي

رحب مثل لطخة صغيرة. وتجمع الاصدقاء وهم على قمة الرابية وتوقفوا. كان النزول من مثل هذا المنحدر دون سابق تفكير رهيبا. واقترح كاربوف:

– لنتراهن انني سانزل دون ان اقع.

جذب زيلينين كتف ماكسيموف وقال:

– هل يؤثر فيك ذلك؟

– ما هو ذلك؟

– كل هذا. روسيا الشمالية.

هزّ ماكسيموف كتفيه، وضحك ضحكة مقتضبة:

– انك تعرفني، انا المدني المضجر، المعجب بالازقة المبللة ومشارب البيرة العصرية.

– والآن انظر الى هذآ – اشار زيلينين بعصاه الى جهة.

على الرابية المجاورة كنيسة. كانت جدرانها العالية البيضاء ذات الرقع التي تلوح منها حجارتها الحمراء القديمة تقف منتصبة بصرامة بخطوط مستقيمة لا يزينها الا بعض الاشكال الطفيفة في الاعلى، وانبهر ماكسيموف، واحس برجع للصدى في نفسه غير مألوف له، وبنداء القدم وكأنما رأى رأي العيان، الاجدآد الذين ضرّسهم الكفاح من اجل الحياة

والمحاربين بخصلات شعرهم المستقيم، والنساء بدوائر سوداء تحت عيونهن الغائرة يصعدون الى الرابية ليرتموا على قدمي الههم الصارم.

ــ ركبتاك ضعيفتان يا ماكس. احذرك ــ قال فلادكا وانحدر الى الاسفل.

ــ ماذا تقول؟ ــ قال زيلينين وهو ينظر في وجه ماكسيموف ــ هل اصبت بالرجفة؟ اي تناسق هذا! ولو رأيت التصاوير الجدارية في الداخل!

قال ماكسيموف:

ــ نعم، انها قوة! ومثل هذه التفاصيل على هذه الخلفية الا تبدو لك زائدة؟ ــ سأل واشار الى ناحية رأس ستكلياني، حيث لاحت ضمة من العنابر الصفراء، وابراج رافعات ثلاثة ترتفع فوق الغابة.

ضحك زيلينين:

ــ يا غريب! تعال الى هنا بعد ثلاثة اعوام وسترى كيف ستتغير هذه المنطقة.

نظر ماكسيموف اليه.

ــ بعد ثلاثة اعوام؟ حسنا سآتي.

وفكر: «بعد ثلاثة آعوام ستنسى انت ايها

الفارس هذه الاماكن البديعة. ثلاثة اعوام! ستدخل صفوف الاسبيرانتورة. وهذا كل شيء...»

وعميقا في الاسفل لوح فلادكا بيده وقد بدا صغيرا جدا. وتقدم ساشا الى الحافة ايضا. ونظر الكسي ثانية الى الكنيسة. لم تطاوعه نفسه على النزول من الرابية. لم يرد ان يفارق هذه الرحاب وهذه البساطة. وطوّف ببصره في الافق، وشعر بالضيق لانه لن يرى هذه الانحاء في الربيع والصيف، والشتاء مرة اخرى. وبعد ثلاثة اعوام؟ من يدري...

في المساء كانوا يجلسون في غرفة الطعام. ولعب الكسي وساشا الشطرنج، وجلس فلادكا على الارضية قرب الموقد، وهيأ القيثار، وغمغم بشيء في سره. ثم قال:

– لنذهب الى السينما على الاقل.

– اليوم حفلة الرقص في النادي – تمتم زيلينين بذلك – والاحسن ان نستمع الى الراديو. ستنقل اذاعة موسكو حفلة مهرجان.

– صحيح؟ – هتف كاربوف – رائع! لنذهب آلى الرقص.

رفع زيلينين رأسه.

— كيف تذهبان بدون بدلة! لا يمكن الذهاب في سويترا

— هوه! هنا لا يسمحون الا بالفراك؟

— يسمحون، ولكنك ستشعر بحراجة.

— نعم، احترق خجلا.

وتكدر ساشا بغتة.

— يعني، اذا كنت في الارياف، ما خجلت من واحد؟ هل من المعقول ان تذهب الى حفلة رقص في حذاء تزحلق لو كنت في لينينغراد؟

— انا صامت، صامت، يا محب كروغلوغوريه! هل سمعت يا ماكس كيف اغتاظ الفارس؟

— بعد ثلاثة آعوام سينشئ ساشا هنا نادي آداب السلوك — وابتسم ماكسيموف في غير ضغن.

— ولم لا؟ — قال زيلينين في تحد — بعد ثلاثة اعوام ستنشأ هنا مدينة حقيقية.

— يا لك من حالم يا ساشا — قال كاربوف ذلك.

— وماذا عن المستقبل؟ — سأل ماكسيموف ذلك — هل سترحل من هنا بعد ثلاثة اعوام ام تبقى؟

راح زيلينين يذرع الحجرة، ثم نظر من النافذة، والتفت نحو الشابين وقال:

— لا اعرف ايها الولدان. انا الآن اجمع بعض المواد الطريفة جدا. يبدو ان موضوعا يتكون عندي. وسأكتب اطروحة وسيتبين الامر فيما بعد. وان كانت الحاجة اليّ في مكان آخر امسّ من الحاجة اليّ هنا رحلت. واذا ما كانت ظللت هنا بسرور. لقد احببت كل شيء هنا. انتما تضحكان سخرية وتقولان في سركما: اية شخصية ايجابية هو من صنع الجرائد؟ نعم، عقيدتي هي ان الحياة لا يمكن ان تكون ألا على هذه الشاكلة! اعرف مكانك بين الناس، واستشعر بقرب جارك منك، واحلم، واعمل، واحبب. وباي شيء آخر يمكن ان ينشغل الانسان في عصرنا؟

— باحتساء الخمر، والتذمر، والخداع، والمضاربة، والقتل — لاحظ ماكسيموف ذلك.

— ليست هذه اعمال عصرنا — صاح زيلينين — هذه من مخلفات الماضي، وما في سبيله الى الزوال متشبثا وناثرا اللعاب.

هزّ ماكسيموف رأسه. فقد كان يتوقع مثل هذا الجواب بالذات.

– نحن ابناء الاشتراكية... – بدأ زيلينين قولا جديدا. ولكن طرقا على الباب سمع في تلك اللحظات. ودخلت داشا:

– يا الكسندر دميتريفتش، جاؤوا من باخرة الحريق... نعم، يبدو انه جاءها...

في الحال اخذ زيلينين يشد سحابة سترته. وتمتم:

– آه، يا للشيطان، عليّ ان اسرع!

– الى اين؟

– الى باخرة الحريق. اللعنة! لان احد البحارة قد جاءه المخاض. لماذا تكشر؟ اقصد احدى البحارات. الجنين في وضع عرضي. فهمت؟

– ولماذآ لم تضعها في المستشفى؟ – سأل كاربوف.

– رفضت. لم يسمح زوجها. دماغ ناشف!

وخرج مع داشا. عرج على المستشفى ليأخذ الحقيبة، واتفق مع الممرضة على ان تذهب الى الباخرة ايضا ما ان تفرغ من توزيع الادوية، وتقوم بالاجراءات اللازمة للمرضى، اسبل قبعته الفرائية، والقى حمالة الحقيبة على كتفه، وخرج الى الفناء.

كان الغسق قد شمل الارض، والسماء تفيض بخضرة متعبة. وكانت نجمة المساء الأولى فوق الرأس تلوح مرتجفـــة من الريح الخفيفـــة الشديدة الصقيع. وتوقف زيلينين لحظة، ونظر الى السماء، وتذكر، لسبب مـــا، شعر بلوك يصف مدينـة تنتظر في القلق وصول سفن غامضة. وزفر، ورأى على مدخل بيته ماكسيموف واقفا منفرج الساقين.

— ماذا بك يا ماكس؟

— هل تريد ان اذهب معك يا ساشكا؟

— أتظن انني لا انهض بالامر؟

— لا، للحيطة، ها؟ وستكون الصحبة أمرح...

— شكرا، يا ليوشكا. من الافضل ان تستريح! غدا سننطلق بمسيرتنا الى قرية جورافلينيه.

— لنذهب سوية يا ساشا. تعرف...

— لا تلح! — هزّ زيلينين يده، وركض نحو البوابة.

عاد ماكسيموف الى غرفة الطعام. كان فلادكا جالسا على الاريكة يدخن. قال الكسي:

— بعد عشرة ايام تقريبا سيكون أحدنا بعيدا عن الآخر كثيرا.

وتقدم من جهاز الراديو، وفتحه، وبحث في الموجة الطويلة فالتقط موسكو. وتدفقت في الغرفة اصوات القاعة الكبرى. وسمع بوضوح سعال وحركة كراسي.

– سنبدأ باذاعة آخر حفلة من حفلات مباراة المهرجان. وسيقدم البرنامج اعضاء فرقة الهواة الطلابية لمدينة موسكو...

سكوت.

– اينا زيلينينا الطالبة في جامعة موسكو تعزف التسبيح الليلي لشوبان.

ندت من ماكسيموف آهة تعجب. وقفز كاربوف.

– وساشا، ساشا... اللعنة!

– اسكت!

طعنة سكين

وكان زيلينين يقترب من المرسى. كان يبدو موحشا لخلوه من الناس ولاحاطته باكوام عالية من الثلج. على بعد خمسين مترا من الساحل لاحت أشباح صنادل

محصورة في الجليد لفترة الشتاء. وعزم على ان يسلك طريقا مختصرا عبر مخازن البضاعة ويخرج الى البحيرة ثم يسير في درب مرسوم على الجليد باقدام الى باخرة الحريق.

كان السكون الشامل يلف كل ما حوله حتى خيل اليه ان اذنيه محشوتان بالقطن. ولكي يتخلص من هذا الاحساس بدأ يتسمع الى صوت تحطم الثلج تحت قدميه، ودون ان يتوقع التقطت اذناه صوتا غريبا، صوت شخير. كان الحارس لوكونيا يجلس ملفوفا بفروته الضخمة بالقرب من حائط احد المخازن. كان رأسه ملقى على كتفه باسترخاء. وكان فمه المفتوح يلوح وسط لحيته الشائبة اسود كالجحر.

وقال زيلينين لنفسه بصوت عال:

– عاد الى سكره مرة اخرى. – واراد ان يوقظ لوكونيا، الا انه قال لنفسه انه سيغط في النوم ثانية في اللحظة التي يوقظ فيها. ومر به وانعطف. وهنا سمع صوتا مرة اخرى – طرق حديد بحديد خلسة. كان صوت عمل اجرامي نشيط، صوتا جبانا وفي الوقت نفسه، صوت تهديد – وكأنه يقول: لا تقترب. وحث زيلينين خطاه، ورأى شبحين قرب باب

احد مخازن البضاعة. لاح في رقعة المصباح اليدوي الصفراء قفل هائل.

وفكر زيلينين: «انا ذاهب لعيادة. بانتظاري ولادة». وارتعش بعد ان شعر بوحدته. وصاح:

— قف!

اندفع الشبحان الاسودان الى جهتين مختلفتين — احدهما اختفى وراء منعطف المخزن، والآخر جرى نحو البحيرة وانزلق على جرفها. انطلق زيلينين في اثر الثاني دون ان يحسب حسابا لما قد يحدث. كانت المطاردة صعبة فقد كانت قدماه تغطسان في الثلج. وكان الرجل المطارد قد وصل الى الجليد الخالي من الثلج.

وفكر زيلينين: «انه سيفلت على اية حال. والافضل ان أذهب الى باخرة الحريق. ومن هناك ارسل احدا الى المليشيا».

الا ان الشبح توقف في هذه اللحظة، واستدار. وكشف ضوء القمر عن شخصيته. وعرف الكسندر كتفي فيودور بوغروف المربعتين، وهيئته الجانحة المهيأة للعراك. حدق فيدكا فيه ثم قدح عود ثقاب واشعل سيكارة، وتقدم من زيلينين بهدوء.

«ليس هذا بالامر الهين ان يكون الجنين في وضع عرضي. يجب ان استدير واسرع الى باخرة الحريق. ليس من شأني ان آمسك اللصوص».

ولسبب مجهول احكم زيلينين وضع اللفاح، باصابع مرتعشة، واستنشق الهواء القارس عميقا الى اقصى شعب الرئة، وتبقدم للقاء فيدكا.

— قف يا بوغروف! — قال حين تقاربا — ساقدمك الآن الى الحارس.

— صحيح؟ — تمتم فيودور وتنهد — لا مفر، يجب الاذعان.

وتقدم خطوة اخرى من زيلينين، ونفث دخان سيكارته الممزوج برائحة خمرة رخيصة. ورفع يده عاليا وانزل بها على صدغ زيلينين. وقع زيلينين فتقدم منه وضرب وجهه بحذائه، وقفز. تقلب زيلينين على الثلج خائرا. وغشى على عينيه نقاب احمر. ومن فوق، من حافة الهوة بلغه صوت يقول:

— هذا جزاء الفالس ايها النتن. والآن انهض واجري. واذا نطقت بكلمة لاحد فسحقتك كالدودة.

نهض زيلينين. وتقدم من فيدكا فتراجع هذا خطوة الى الوراء وزعق:

ـ اذهب، ابتعد عن الشر.

وهمس زيلينين:

ـ تكذب، ايها الوغد!

ووجه ضربة الى وجه بوغروف. وعلى الفور تدحرج الاثنـان على الثلج مثل كتلة واحدة ضارية ناخرة. سنحت لفيدكا فرصة فالقى عنه ساشا برفسة من رجله ووثب الاثنان:

ـ اذهب! ـ هدر فيودور.

تقدم الكسندر منه مرة اخرى مادا يديه كالسكران. انحنى فيدكا الى عنق حذائه، ثم تقدم الى الامام وبيده اليمنى سكين.

فتح زيلينين فمه معقود اللسان، وامسك بطنه وقبل لحظة واحدة من وقوعه تمدد كالوتر. تصاعدت من اعماق جسمه سحابة حمراء هائلة وغطت على كل شيء. وتكونت في ذهنه فكرة متباطئة: «أهذه قنبلة ذرية؟» وسقط زيلينين. وصار الضباب الاحمر يتصاعد بسحائب ويتكاثف، ويتماوج. وفجأة توافدت على ذهنه بسرعة جنونية وتلاشت في الاسفل صور فوتوغرافية، عدد كبير من الصور: اينا، آلأم، والأب، والاصدقاء.

حاول ان يمسك بصورة واحدة منها على الاقل. الا ان الامواج الحمراء تلاشت. ولاحت سماء داكنة الزرقة، والنجوم ترتعش. المناطق الاستوائية؟ بحر، بلاجات بيض، ونخيل... أهذه بلدة سوخومي؟ ورادیــو... ومكبرات صوت على الرصيف، وحفلة منقولة، وشيلو منفرد. على من ينتحب؟ أعليه ينتحب؟ عليه نفسه وعلى شبابه، وعلى فرآقه للارض؟

ثم اسودت السماء، وتدنّت بسرعة، وارتطمت به.

... لم يعرف لوكونيا لماذا استيقظ. تثاءب وسار بمحاذاة المخزن، وانعطف حوله، وتمخط على الثلج، ونظر الى البحيرة. هناك على الجليد يتمازح شابان سكرانان. واولى لوكونيا للموضوع اهتمامه. وغمغم:

– ماذا يفعلان؟ يا للحماقة!

سقط احد الشابين، وانحنى الآخر عليه، وقلبه، وفجأة ولى مبتعدا، سار بقفزآت كبيرة، وسقط، وزحف وركض ثانية. اما الآخر فرقد بلا حراك.

– هذه هي لعبة! – صاح لوكونيا، وانزل البندقية من كتفه وتدحرج الى الاسفل.

الفصل الحادي عشر

قتلوا ساشا!

الليل لطيف على ضوء النوافذ البعيدة. ان الانسان يستطيع ان يكافح من اجل حياته وحيدا، على شرط ان يعلم ان في أعماق الليل نوافذ بعيدة دافئة بانتظاره. والا فما الفائدة من الكفاح؟ ان الانسان في هلاكه ليلا ناخرا مطلا دمه على الثلج يرسل آخر شرارة من وعيه المنطفئ للنوافذ المضاءة، لنوافذ الأم والأخ، والحبيبة، لنوافذ الاصدقاء، للنوافذ الدافئة في العالم كلـه.

بينمـا كان زيلينين يصـارع فيدكا كان صديقـاه يوآصلان الاستماع الى الراديو. قال ماكسيموف:

— من المؤسف ان اينا عزفت دون ان يسمعها ساشا.

قال كاربوف:

— ولكنه اليوم في الخفارة.

— انه في الخفارة هنا في كل دقيقة!

حرك فلادكا اوتار قيثاره وغنى. وفي تلك اللحظة

اشعل الكسي سيكارة. وفي الحال غشاهما حزن مألوف لهما، واستشعرا بدنو الفراق، وبشيء شيطاني آخر: ام هو صفير سهب او رائحة ربيع. املت القبعة الى قفاي. لا تمسني، واتركني وشأني. انا ذاهب! انا خارج الى الحقل، والى طريق السفر، وعبر المستنقع الى الجبل، وصوب البحر. ساشير الى السيارات في الطريق لتحملني معها، وانشر الاشرعة، واجوع، واتعرف على كل من يقابلني، والتقي بالفتيات. فاتركني وشأني!

اهد لي، عند الوداع، تذكرة قطار
ذاهب الى اي مكان.
لا يهمني الى اين ذاهب، —
ما دام منطلقا في سفر بعيد.

وحين تهدأ المناقشات الحادة حول المستقبل، ومعنى الحيـاة، وحين تزرر البزات والستر، وتبدأ الخمـرة تلعب بالرأس مطوحة بالحذائين اللبادين المرقعين من زاوية الى اخرى، ويتناول شخص قيثارا، ويغني بصوت عميق خفيض يخس الحاضرون جميعا بانهم عادوا شبابا مستعدين لكل شيء.

آه، لو كنت لا اعرف شفتيك ويديك،
ولم ار وجهك.
سيان عندي الشمال والجنوب.
ما دام الطريق بلا نهاية.

مطط كاربوف الكلمة الاخيرة مازحا وكأنه يحاول ان يضعف من تأثير الاغنية. ثم نظر من طرف عينه الى صديقه. كان ماكسيموف جالسا في شرود. لا يدل على انه شاكر لصديقه على هذه الاغنية الا ذاك الظل الخفيف من التأثر البادي على وجهه.

كانا يجلسان ويغنيان بصوت عال مقاطع من اغان طلابية قديمة وجديدة حين صفق باب فجأة ثم آخر. ودخلت داشا غوريانوفا الغرفة راكضة في غمامة من الهواء الشديد الصقيع.

– الكسندر دميتريفتش!.. – صاحت داشا وتوقفت. وغطت فمها بيديها في جنون، وترنحت، وتهاوت على الارض. ووثب كاربوف فوق المنضدة حالا، وهرع ماكسيموف الى الفتاة ايضا. فتحت داشا عينيها وهمست: – قتلوا ساشا.

... لم يجريا في اي سباق باسرع من جريهما الآن. جريا صامتين يتقاسمهما الحنق والامل ليعرفا باسرع ما يمكن ان هذا النبأ المحال مجرد هراء، وان ساشا حي وبعافية او انه جريح في أسوأ الاحوال. وليكن جرحه بليغا، شريطة آن يكون حيا! شريطة ان يكون بين الاحياء! جريا حتى دون ان يلحظا ان حركة دبت في شوارع الحاضرة المظلمة، وان الناس اخذوا يتحركون هنا وهناك، وان دوائر المصابيح اليدوية المضببة اخذت تتراقص.

كان حشد من الناس يموج قرب مخازن البضاعة. شق الصديقان الحشد بتقحم. كان جسد زيلينين ممددا على كومة من المعاطف الفرائية والستر المبطنة. جسد؟ او ربما جثة؟ كان على وجهه الممتقع الحاد التقاطيع كدم هائل، ولاح جرح فاغر على خده الايمن. وكان فمه مفتوحا في جمود.

وقال صوت على مقربة:

– راح الدكتور.

– ساشكا! – صاح كاربوف وركع على ركبتيه، وامسك يد زيلينين، واخذ يجس نبضه.

وقال ماكسيموف:

– على مهلك! اين طعنه؟ في رأسه؟
– في بطنه – اجاب احد من الحشد.
صوب شخص مصباحا كهربائيا. فرأى ماكسيموف فتحة دامية على معطف زيلينين. ومضت فكرة في رأسه: «لو كان لابسا سترتي الجلدية لما حدث، ربما، شيء خطير له». وركع الكسي على ركبتيه وفك ازرار المعطف، والسترة. وفحص الجرح، بينما جلس كاربوف على الثلج ينتحب. وردد:
– مستحيل، مستحيل!
– هل يوجد نبض؟ – ساله ماكسيموف بحدة. هز فلادكا رأسه نفيا. فامسك ماكسيموف يد زيلينين بنفسه. – يبدو ان هناك نبضا.
«اي شيطان جعل فلادكا بهذه الحالة الهستيرية في مثل هذه اللحظة؟ ويقول انه جراح؟ ولكن اذا وجد انسان يستطيع ان يقوم الآن بشيء فهو فلادكا. اذا ملك نفسه. انه جراح جيد». ان ماكسيموف يتذكر يوم عهد فيه الى فلادكا وحده بين سائر الطلاب باجراء عملية الستروموكتومي. حينذاك قال كروغلوف ان يدين مثل يدي كاربوف...»
وفكر ماكسيموف: «غريب ان تتوارد هذه الافكار

في لحظة كهذه». وتناول حفنة من الثلج، وفرك بها وجهه. ثم هزّ فلادكا وسأل:

- ما تشخيص الاصابة؟

مسح كاربوف وجهه بيده ايضا، وقال بصوت آلي:

- طعنة نافذة في التجويف البطني. لعل المعدة قد جرحت وربما اصيب شريان دكستر ايضا...

- سنجري العملية - قال ماكسيموف بصرامة.

انتفض فلادكا:

- نحن بانفسنا؟ فقدت عقلك!

- لم يصب الشريان. هل فهمت؟ كفّ عن التوجع. يقتضى ان تجري العملية بنفسك. هل توجد عربة؟ - صاح بذلك - يا رجال، افسحوا لنا الطريق.

- هل هناك أمل؟ - سألت اصوات جشاء من بين الحشد.

- نعم! - صاح ماكسيموف بضراوة.

- نعم. - همس كاربوف.

ساق فيليمون حصانه بجنون. وكان الناس الراكضون الى جانب العربة يجرون لجام الحصان في الاماكن الزلقة، ويدفعون العربة.

فكر ماكسيموف: «واين اختفت السيارات؟»

في تلك اللحظة برزت من الظلمة اشباح سيارات ثلاث. كان الناس يلوحون بايديهم حولها مضطربين. وترددت صيحات قصيرة:

– انه يختفي في حمام سيفاستيانوف!

– عنده بندقية!

– من اين جاء بها؟

– سلبها من لوكونيا.

– سنقبض على الشقي!

اضاءت السيارات الثلاث مصابيحها فجأة. وانتزعت الاشعة من الظلمة رؤوسا وقبعات، وكتافيات مليشيا، واستلقت على الثلج مثل اشرطـة فوسفوريـة، ثم استقرت على بيت صغير متداعي الاركان. وأخذ الناس يكونون سلسلة.

لكز ماكسيموف فلادكا فجأة.

– واصل السير. سألحقكم في سيارة.

– الى اين انت؟ – صاح كاربوف. ولكن ماكسيموف كان يبتعد راكضا. مر راكضا برجل اعرج، وتقدم الى السلسلة، وسار مع الآخرين رافعا قدميه من الثلج العميق بصعوبة.

– حصل هذا لساشا! – قال له شخص الى يمينه ممسكا عبراته.

نظر الكسي بطرف عينيه. بدا له وجه الشخص السائر بالقرب منه مألوفا.

احاطت السلسلة بالحمام، وبقي ما لا يزيد عن مائة متر. صدرت اطلاقة من هناك فجأة. وصرت مصراعي بـــاب في الصمت الذي اعقب ذلك. ورأى ماكسيموف شخصا طويل القامة يخرج من الحمام مقدما كتفه وبيده بندقية. هذا هو! هذا الذي مزق حياة ساشا، وقطع بحركة واحدة من يده خيط احلامه ونزواته ومشاريعه. يعني هو! الذي هدم عالم ساشا الهائل، واقعد آينا، واصاب الأبوين بجرح مميت، وجعل فلادكا يبكي كالمرأة، واخرج جميع الحاضرة من بيوتهم. يعني هذا هو الحشرة!

اندفع الكسي الى الامام، وسبق السلسلة في الحال.

«سأقتله الآن، ساسحقه، ساحطم رأسه! سادوس على هذه القذارة! لا اسمح لاحد غيري بان يفعل ذلك! يا الهي. وهل سيخفف ذلك عن ساشا؟ يخفف!»

وركض نحو فيدكا. كان هذا واقفا متمايلا يزمجر بصوت مكبوت خافت. وكان يمسك بالبندقية امامه

بكلتا يديه ولكن لا كسلاح بل كشيء يسنده بالاحرى. اقترب وجهه من الكسي. كان خداه يختلجان، وعيناه ترمشان، ومخاطه يتجمد تحت انفه. حشرة تعيسة... من هذا ينتقم؟ ان تقتله لا يعني انك اخذت بثأرك منه.

انتزع ماكسيموف البندقية منه، والقاها جانباً، وبثلاث ضربات مثل ضربات من يتدرب على الملاكمة القى فيدكا تحت قدميه، وارتمى هو ايضا على الثلج في هستيرية.

يستطيع الانسان ان يسيطر على نفسه مدة طويلة خوفا من ان يبدو عاطفيا، ولكن هناك لحظات تنفجر فيها نفسه انفجارا يصم الآذان، فيعجز عن كتمان صراخه ودموعه.

رأى ماكسيموف ارجلا قرب رأسه. لقد التفت السلسلة حوله وحول فيدكا. وصاح شخص:

– سنقضي عليه جزاء اعتدائه على طبيبنا.

ارتفعت قبضات عمال وحمالين وقاطعي الاخشاب فوق القاتل. وتردد صوت:

– قفوا! توقف يا ابراهيم! سيقدم الى المحاكمة.

– لماذا محكمة هذه!

– لا احد يعرف هل سيعدم رميا بالرصاص.

– لا تصغوا الى سامسونوفتش يا رجال!
– اضربوه!
– انا لم ارد – صاح فيدكا وكأنه أفاق – انا لم ارد قتله!
– اضربوه!
الا ان يغوروف وبعض رجال المليشيا نفذوا خلال الجمع في تلك اللحظة. وصاح يغوروف:
– هدؤوا انفسكم! ألم تنتخبوا القضاة بانفسكم؟
وقادوا فيدكا وتفرق الحشد يضج باضطراب. ونهض ماكسيموف على الثلج مرتبكا. وأخذ يعود الى نفسه. وخاطب نفسه ممليا:
«اسكت! من الخير لك ان تصك على اسنانك، ولكن لا تتباكى، اصمت ولا تفه بكلمة واحدة. وافرك وجهك بالثلج. واذهب. تحرك!» وقف بالقرب من السيارة ثلاثة اشخاص يبدو أنهم كانوا في انتظاره. الشاب ذو الوجه المألوف له، والاعرج المألوف له ايضا الى حد غريب، ورجل طويل الاطراف. قال الاعرج في انفعال:
– اسمع، يقولون ان هناك أملا. ها؟
وقال الطويل بصوت خفيض:

— وكنا نظن انه قد انتهى. خرجنا من النادي مع بوريس فاذا بهم يأتون راكضين صارخين «قتلوا ساشا!».

— ربما سيعيش؟ — سأل الشاب المألوف لالكسي.

— الى المستشفى باسرع ما يمكن — همس ماكسيموف ودخل الى السيارة.

كان خجلا من فقدانه الامل، واستسلامه للغيظ واليأس. ربما من الممكن حقا نفخ شعلة الحياة التي ما يزال لها بصيص في ساشا؟ كم قضى من الوقت مستلقيا على الثلج؟ ثم انه كان في الحقيقة شابا معافى للغاية. كان؟ لا. ان ساشا كائن الآن. وسيكون ساشا! سنجاهد.

شابان حقيقيان

احدث مصباح لغرفة العمليات وهو مفخرة زيلينين التي انتزعها بصعوبة من موظفي التجهيز لدى دائرة الصحة للناحية كان يضيء مجال غرفة العمليات بنور ساطع متساو. ان مثل هذه الآلة تلهم النفس بالثقة في جبروت الطب. كان كاربوف واقفا قرب الطاولة مسبلا يديه على جنبيه مرفوع الهامة بادي الصرامة.

أعد ماكار ايفانوفتش جهاز نقل الدم. وعدت داشا الادوات مرة اخرى. ودخل ماكسيموف واحتل مكانه مقابل كاربوف.

– يا ماكار ايفانوفتش. هل كل شيء جاهز؟

– نعم.

– هل نبدأ يا ماكس؟

– هيا.

ولثانية رفع الاربعة رؤوسهم وتبادلوا النظرات. ولثانية اختلجت وجوههم ذات الشفاه المزمومة، ثم اكتست رصانة مرة اخرى، وكأن كل واحد التقط الحبل الذي القي من واحد الى آخر، وشد نفسه به شدا محكما. والآن احسوا وكأنهم متسلقو جبال مترابطون.

احدث كاربوف شقا. كان التجويف البطني ممتلئا بالدم. وظهر ان نصل السكين قطع شعبة من شريان كبير، واصاب المعدة. ونظر كاربوف الى ماكسيموف:

– اواضح لك؟

هزّ ماكسيموف رأسه صامتا.

– ماذا وجدت؟ – سأل ماكار ايفانوفتش. وتقدمت داشا الى الامام متوترة جهماء. قال كاربوف:

– اخطأ شريان دكستر سنتيمترين فقط. اعطني رباطا.

فكر ماكسيموف: «ربما استلقاؤه على الثلج هو الذي انقذه. تقلصت الاوعية من البرد... انقذه؟ أحقا انه نجا؟ أحقا اننا سننتشله؟ اصمد، ايها الفارس! انت الآن غير موجود بعد، انت الآن غائب. ولكن جسمك حيّ، وحولك اصدقاء، **وستكون** مرة اخرى. اهدأ. ها هو فلادكا قد اخذ يخيط المعدة!»

ونظر ماكسيموف الى الاصابع الطويلة البارعة الحركة – الآلة المتقنة – منشغلة في الجرح، والتقط كل حركة من حركاتها. هذا هو فلادكا كاربوف الجراح الذي ينقذ صديقا. هذا هو فلادكا الحقيقي! وهذا هو ايضا – الكسي ماكسيموف الحقيقي. وهذا نحن، الطبيبان الشابان الحقيقيان!

وفجأة انتصب ماكار ايفانوفتش، واندفع نحو رأس ساشا. وفعل هناك شيئا ما. وقال:

– توقف النبض. والحدقتان لا تتأثران.

صعد الدم الى رأس ماكسيموف، وغامت الدنيا امام عينيه. ورأى كيف اخذت اصابع فلادكا الممسكة بالخياط ترتعش. رفع رأسه، وحدق بفلادكا.

فنظر هذا اليه ايضا. ولم يتحركا. سألت داشا:
– امن المعقول ان كل شيء قد انتهى؟
وكأن هذا السؤال اعاد لهما وعيهما. قال ماكسيموف:
– حقنة ادرنالين في القلب. هل قمت بذلك مرة؟
قال كاربوف:
– لا، تصور لم تكن لي فرصة.
– وانا كذلك. هل تفعل؟
– ليس هذا صعبا من الناحية التكنيكية، ولكن... يداي. احقنه بنفسك!
تناول ماكسيموف حقنة مع ابرة، وتلمس فاصل الضلع الرابع. هل فكر في يوم ما بانه سيوخز قلب ساشا زيلينين ليعيده الى الحياة؟ غرز الابرة بالقلب، وصب الادرنالين. وهمس العجوز:
– عاد النبض.
واخذوا ينتظرون. ثم قال العجوز كابتا على انفعاله:
– اخذ النبض يتحسن.
– والآن حقنة تحت الجلد.
– حسنا!

اصبحت حركات الاربعة جميعا اكثر دقة. وفجأة اعترى داشا قلق. نظرت الى المصباح عدة مرات في اضطراب.

– يا ماكار ايفانوفتش، كم الساعة؟

– الثانية عشرة الا ربع.

– اوي!

– ماذا؟

– عندنا يخفت التيار الكهربائي بعد الساعة الثانية عشرة.

نظر كاربوف اليها ذاهلا. فما يزال هناك عمل لنصف ساعة على اقل تقدير. قال العجوز:

– لا يهم. سنوقد مصابيح الكيروسين.

ولكن النور ظل ساطعا بعد الثانية عشرة. ان الناس الذين اصبح عالمهم منحصراً الآن في غرفة العمليات لم يعرفوا ان العالم في الخارج يدور حولهم، وينظر في أمل. ان الحاضرة يقظى، واشباح الناس السوداء تتجمع هنا وهناك، وتنظر الى ذلك الصف من نوافذ المستشفى المضاءة وراء اشجار البتولا.

عند مدخل المستشفى تنتظر سيارة يدفأ محركها بين حين وآخر. ويغوروف يدخن قرب التلفون في

حجرة الخفارة. وتيموشا يتمشى في محطة الكهرباء الفرعية ناظرا الى العاملين فيها نظرة غاضبة. ومن رأس ستكليـاني يسألون بالتلفون عمــا اذا كانوا يحتاجون ألى شيء. ويتلفنون من مستشفى الناحية ان رئيس الاطباء توجه اليكم. ويتلفنون من المخشبة ومن المطار المجاور. ويسير في الظلمة متزحلقون بالاسكي، والخيول تخب، واللوريـات تهـدر وتترنح في حفـر الطريق. وتضطرب تلك الليلة من مارس كلها.

ــ انتهى! ــ قال كاربوف وابتعد عن الطاولة ونظر الى وجه زيلينين. كان ممتقعا كالسابق مثل زجاج اغبش. ولكن امارات لا تكاد تبين كانت تنطق بان الوجه ليس وجه جثة، بل وجه رجل مريض جدا.

خرجوا الى غرفة الانتظار واحدا وراء الآخر، ثم الى حجرة الخفارة. طرقت عكازة يغوروف الارض بشدة، قفز بوريس. لم ينطقا بكلمة واحدة. ولكن عيونهما كانت تصرخ اعلى من كل الاصوات. والآن عرف ماكسيموف بوريس. وابتسم له.

ــ فكر كيف تسدد لساشا كبسة في ساحة الكرة الطائرة. ليس الامر هينا جدا.

ــ كيف؟ ــ صاح بوريس ويغوروف سوية.

وصمت الطبيبان، وجلسا وعلى وجهيهما ابتسامة غريبة. ودارت علبة السكائر على الحضور. واخذوا يدخنون محاولين ان لا ينظر احدهم الى الآخر. وفهم بوريس ويغوروف وصمتا. من الصعب التحدث بشيء مناسب بعد الذي حدث في تلك الليلة. بل وبدا لماكسيموف ان التعب الذي يثقل عليه الآن متسبب من تلك الكلمات المشجعة القليلة التي قالها للاعب الكرة الطائرة الذي يعرفه. حين تشجع شخصا آخر تأمل انت. ثم ماذا بانتظارهما في صباح الغد؟ سواء أهذا او ذاك فانهما اجتازا الليلة. اليوم لأول مرة في حياتهما كانا هناك، على الحد الفاصل بين الحياة والموت. وخاضا هناك معركة، وعادا متعبين مستنفدين، وفي نفس الوقت ممتلئين بشيء جديد. والآن يجب ان يناضل ساشا بنفسه. وهم جميعا متحفزون. ولكن يجب ان يجاهد بنفسه. ولماذا هما صامتان؟ من التعب؟ لا، يجب ان يتخمر في نفسيهما الذهول المتسبب من اعظم حادثة في حياتهما. ان هذه الليلة لن تنسى ابدا. لقد نفذا خلالها، ووجدا نفسيهما. واخيرا اصبح كل شيء واضحا. وبانقاذهما صديقهما ادركا رسالتهما في الحياة. انهما طبيبان! انهما سينهضان ويسيران

في انحاء مختلفة من العالم، في اي مكان يجدان نفسيهما فيه بهدف رئيسي واحد، صد هجمات الامراض والموت عن الناس، عن الكائنات المرحة القلقة الحكيمة المتكاتفة في عائلة واحدة. وسائر الاشياء ثانوية. انهما طبيبان! قبل عام قالوا لهما ذلك. ولكنهما كانا يتصوران نفسيهما مجرد شابين.

– ترى، اين التقيت بك؟ – خاطب ماكسيموف يغوروف مقلصا عينيه.

ربت يغوروف على كتفه، وابتسم.

– سأذكرك غدا. والآن تجب الراحة.

كل شيء في طيات المستقبل

اطل من النوافذ فجر مثلج داخن. كان ماكسيموف جالسا عند سرير زيلينين متطوي الجذع، ينظر الى وجه صاحبه. بدا الوجه مشوبا بشيء من التورد. ام لعل ذلك انعكاس للشروق؟ على اي حال ان التنفس منتظم، النبض ٦٤، وضغط الدم ١٠٠ و٦٠. «ويبدو ان أملنا يتنامى. ها؟ احسنت يا ساشا! ما تزال امامنا فرص لان نتفلسف انا وآنت، ونتجول في شوارع

بتروغرادسكايا ستورونا! ونتبارى في الكرة الطائرة، ونسبح سوية، ونضحك ونحزن، ونشاهد الافلام اكثر من مرة. وسنتلقى بعد ثلاثة اعوام، او اقل منها بكثير. وسنتبادل الرسائل، ونبعث الصور. وكل شيء لنا ما يزال في طيات المستقبل...»

نهض ماكسيموف، واقترب من النافذة. كانت الاشكال التي كونها الصقيع ترتفع على الزجاج الى الاعلى مثل شجيرات. الا انها لم تغط الا النصف الاسفل من النافذة. وكان يرى شاطئ البحيرة البعيد الذي تتدلى عليه الشمس. وكانت الظلال الوردية والزرقاء تتنقل على الجليد. سيبدأ الذوبان سريعا. ويأتي الربيع شبيها بمئات الربائع. ولكن فيه شيئا خاصا به على اية حال. ذلك قانون، دورة دائمة. من قبل، في السنين الخوالي، في القرون الماضية عاش اشباه ماكسيموف، وزيلينين. انهم يشبهون اللذين يعيشان الآن. ولكنهم مختلفون اذا اردت التدقيق. الآن يعيشون هم، وبعدهم سيعيش آخرون شبيهون بهما، الا انهم آخرون. وعلى هؤلاء المحدثين ان يتذكروهم بين الحين والآخر. حينئذ... حينئذ لن يكون هذا مخيفا. يجب ان نفعل كل شيء لنعيش في ذاكرة الآخرين. لا انت بشخصك

يا ماكسيموف بل جميعنا. ان ساشا على حق: يجب ان يحس الانسان علاقته بالماضي وبالمستقبل. ففي هذا بالذات نجاة من رهبة الفراق المحتوم عن الحياة. وفي هذا بالذات يكمن دور الانسان العظيم. والا فان الحياة ستصبح مأساة شريرة او ملهاة لا معنى لها. نحن، ابناء الاشتراكية يجب ان نفهم هذا بوضوح خاص. ولا داعي للخوف من الكلمات الرفيعة. فقد مضى ذلك الزمن الذي استطاع فيه بعض اوباش ان يتاجروا بهذه الكلمات. نحن ننظر الى آلاشياء بوضوح، وننقي هذه الكلمات من الشوائب. وهذا هو الشيء الرئيسي الآن: النضال من اجل نقاوة كلماتنا، وعيوننا، ونفوسنا. اما ما شاخ وهرم فيجب ان يحاصر!

وتذكر ماكسيموف البيت المتداعي الاركان الذي وجهت عليه مصابيح السيارات، وشبح القاتل المتقوس، والسلسلة التي احاطت به. كل هؤلاء العمال والحمالين وقاطعي الاخشاب والسواقين ورجال المليشيا سائرون لمهاجمة العالم القديم! العالم الذي تشهر السكاكين فيه لحسم القضايا. العالم الذي لا تساوي فيه الحياة فلسا، العالم الذي تلهب فيه الناس عواطف

موحشة. نحن سائرون، نهاجم، الهجوم الجبهوي منذ اربعين عاما. نحن نتمسك بالسلسلة الممتدة في العالم كله. نحن لا نهاجم ما في الخارج فقط، بل ما ينشأ في داخلنا احيانا. الجزع، وفقدان الايمان، والهزء بقيمة الحياة. فان هذه ايضا من مخلفات ذلك العالم. ما تزال تعيش بيننا، وقد تبدو في بعض الاحيان انها وحدها التي تعيش بيننا. لا، اننا اناس عصر جديد لاننا نكافح هذا وننتصر، ونجد مكاننا من السلسلة الممتدة. واستدار ماكسيموف ورأى فلادكا وداشا واشخاصا آخرين واقفين عند الباب.

قال فلادكا:

– اذهب لتنام يا ماكس. ونحن نحل بمكانك.

وقف ماكسيموف عند قدمي زيلينين، ونظر الى وجهه. وفجأة رأى ساشا ينظر اليه.

– ليوشكا! – ناداه زيلينين – ماذا جرى لي؟

امسك ماكسيموف بظهر السرير وقال بصوت مبحوح:

– لا شيء يذكر. انت حي.

وتقدم فلادكا وداشا. واجال زيلينين بصره وابتسم.

ـ اوه، كلكم هنا! مرحبا يا اولاد.

ـ مرحبا! ـ قال فلادكا.

ـ ساشا! ـ قالت الفتاة.

ـ والمرأة في باخرة الحريق؟

ـ لا تقلق. استطاع ماكار ايفانوفتش ان يساهم في التوليد.

هزّ زيلينين رأسه، وغمض عينيه، ثم فتحهما ثانية.

ـ طبعا، فاتكما سماع الحفلة الموسيقية من موسكو؟ هناك آينا...

قال فلادكا:

ـ سمعناها. ولكن كف عن الحديث! ممنوع.

ـ اردت ان افاجئكما بذلك ـ تابع زيلينين قوله ـ ولكنني لم اسمعها.

قال ماكسيموف:

ـ يمكن ان نقدم طلبا الى الراديو، ليذيعوا الشريط مرة اخرى. اغلب الظن انهم سجلوا الحفلة.

ـ بالطبع انهم سجلوا عزفا كهذا ـ قال فلادكا.

ـ بالضبط! وهذا ما سنفعله ـ همس زيلينين واغمض عينيه.

قال ماكسيموف:

– الطلب من بحارة المحيط الهادى.

– ومن بحر بارنتسيفو – قال كاربوف.

فقالت داشا:

– ومن سكان كروغلوغوريه.

– ومن عمال رأس ستكلياني – قال ذلك تيموشا الواقف عند الباب.

محتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته، وشكل عرضه، وطباعته، واعربتم لها عن رغباتكم.

العنوان: زوبوفسكى بولفار، ٢١
موسكو ـ الاتحاد السوفييتى

شغلت تواريخ حياتهم نصف صفحة...» هكذا تبدأ قصة ثلاثة اطباء شبان، سافر احدهم للعمل في قرية، وجذبت الآخرين طبيعة البحر. وسحر هذا الكتاب هو في مرح الشباب، في النبرة الملتهبة المثيرة للجدل وغير المغلوبة. ولا غرابة في ذلك، فان المؤلف شاب مثل ابطاله.

ولد اكسيونوف عام ١٩٣٢، وتخرج من معهد الطب، وعمل طبيب ميناء، وطبيب منطقة في الشمال الاقصى. وكل حقائق سيرته هذه دخلت في اساس رواية «الزملاء». وحتى الوقت الحاضر كتب عدة كتب: «تذكرة الى النجوم»، «برتقال من مراكش»، «حان الوقت، يا صديقي، حان الوقت». وكلها ايضا مكرسة للشباب.

ولكن ايا كان ابطاله، فهم قبل كل شيء اناس من جيلهم، باحثون، شاكون، حساسون بحرارة، محبون لمهنتهم، وللحياة، وللشمس.

